السلطة الوطنية الفلسطينية
دار الإفتاء الفلسطينية

الرسول الأسوة

محمد
صلى الله عليه وسلم

(الجزء الرابع)

القدس
1432هـ - 2011 م

من إصدارات

دار الإفتاء الفلسطينية

هدية

سنة 1432هـ - 2011م

تقـــديم

الحمد لله حمد الشاكرين المنيبين، والصلاة والسلام على رسولنا الكريم، محمد بن عبد الله، وعلى آله الطيبين، وصحبه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين، وبعد؛

فيسر دار الإفتاء الفلسطينية أن تقدم للقراء الأعزاء الجزء الرابع من كتاب (**الرسول الأسوة محمد ﷺ**) الذي يعرض لمحات من سيرة المصطفى ﷺ بطريقة ميسرة، من خلال سيرته القولية والعملية.

ونأمل أن نكون قد وفقنا في عرض مادة هذا الإصدار بطريقة ميسرة تتيح للقارئ أن يستقي منه ما يفيده، وتساهم في نشر الوعي الإسلامي الصحيح.

كما أنتهز مناسبة صدور الجزء الرابع من هذا الكتاب لأقدم جزيل شكري لكل من بذل جهداً فيه، سائلاً المولى عز وجل أن يتقبل منا ومنهم صالح العمل، كما أسأله جل جلاله أن يديم دار الإفتاء الفلسطينية منارة علم وخير وهداية وصلاح للمسلمين، إنه الهادي الموفق إلى سبيل الرشاد.

هذا جهد المقل؛ فإن أصبنا فيه؛ فبتوفيق من الله، وإن قصرنا؛ فمن عند أنفسنا والله المستعان.

الشيخ محمد أحمد حسين
المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية
خطيب المسجد الأقصى المبارك

القدس
1432هـ / 2011م

الفصل الأول

عقيدة

1.	يربي أمته على العقيدة الراسخة	5
2.	يبين منزلة محبة الله ورسوله	10
3.	يحثنا على الوقوف عند حدود الله	14
4.	يرشد إلى أهمية التوكل وفضله	18
5.	يأمر باتباع سنته والابتعاد عن البدعة	24
6.	يبين مكانة المسجد الأقصى لدى المسلمين	29
7.	يؤم الأنبياء عليهم السلام ليلة إسرائه	33
8.	يبين ما ينفع الإنسان بعد موته	37
9.	يخبرنا عن غربة الإسلام	41
10.	يعين الأشهر الحرم	45
11.	يحدث عن الزمان وتقلب الأعوام (ح1)	49
12.	يحدث عن الزمان وتقلب الأعوام (ح2)	54
13.	يحدث عن الزمان وتقلب الأعوام (ح3)	59

في هدي نبوي شريف من جوامع كلم رسول الله ﷺ، يوجه الرسول الأكرم، عليه الصلاة والسلام ابن عمه عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، إلى العقيدة الراسخة، والتربية الإيمانية النافعة، وهذا الخطاب الكريم -وإن كان موجهاً إلى عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما- إلا أنه خطاب لكل أبناء الأمة، وبخاصة الشباب منهم، وتنساب كلمات المصطفى ﷺ، يكسوها نور النبوة بأسلوب المربي الناجح والأمين الناصح، ويحث ابن عباس، رضي الله عنهما، على حفظ هذه الكلمات، والعمل بها، فيما رواه عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما: "كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْماً، فَقَالَ: يَا غُلامُ؛ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ؛ احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الأَقْلامُ، وَجَفَّتْ الصُّحُفُ".(1).

وقد ورد هذا الحديث الشريف برواية أخرى بلفظ "احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ، يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، قَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَلَوْ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَرَادُوا أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَإِنْ أَرَادُوا أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا". (2)

لقد وعى ابن عباس، رضي الله عنهما، هذه الكلمات الطيبات، وحفظها، وطبقها هو والصحابة الكرام في حياتهم العملية.

---

1. سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله، وصححه الألباني.

2. مسند أحمد، ومن مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، وصححه شعيب الأرناؤوط.

فتربوا في مدرسة الرسول ﷺ تربية إيمانية قوية، أهلتهم لتحمل أعباء الرسالة الإسلامية ونشرها في الجزيرة العربية خلال حياة النبي ﷺ بينهم.

وقد نشأوا على العقيدة الراسخة التي حملتهم إلى أرجاء الأرض لدعوة الأمم الأخرى لهذا الدين العظيم، والإسلام الحنيف، الذي جاء للإنسانية على يد رسول الرحمة خاتم الأنبياء والمرسلين رحمة للعالمين، {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}.(1)

وعودة إلى كلمات المصطفى ﷺ في هذا الحديث الشريف نستظل بظلالها، ونقطف من ثمارها، ونسترشد بهديها، فأول الوصايا في هذه الكلمات الطيبات: "احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك"، فهي وصية شاملة جامعة، توجه المؤمن إلى مراعاة حقوق الله تعالى بالوقوف عند أوامره والتزامها، واجتناب نواهيه والابتعاد عنها، ومراعاة حدود شرع الله فلا يتعداها، فلا يطلق جوارحه إلا في عمل الخير، ولا يكون إلا ذاكراً لله شاكراً لأنعمه، مخلصاً له في القول والعمل، راجياً شاكراً حال الرخاء، وصابراً حال الشدة، إذ كل أمر المؤمن خير له، كما ورد في الحديث الشريف "عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ؛ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ". (2)

والله تعالى يقول: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ}(3)، ويقول: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً}.(4)

وحفظ الله لعباده المتقين يكون على وجهين:

الأول: الحفظ في الدنيا، فيحفظ الله المؤمن في بدنه وماله وأهله، ويوكل له من الملائكة من يتولون حفظه ورعايته، قال تعالى: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ}(5)، وقد أرشدنا النبي ﷺ إلى الدعاء صباح مساء بما يحفظ علينا ديننا ودنيانا، فكان يدعو

---

1. الأنبياء: 107.
2. صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير.
3. البقرة: 152.
4. الكهف: 107.
5. الرعد: 11.

بهذا الدعاء: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي، وَآمِنْ رَوْعَاتِي، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ، وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي، وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي، قَالَ: يَعْنِي الْخَسْفَ".(1)

وقد حفظ الله تعالى أنبياءه، عليهم الصلاة والسلام، فحفظ إبراهيم عليه السلام من النار، قال تعالى: {قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ}. (2)

ونجى يوسف عليه السلام من الهلاك في الجُب، قال تعالى: {فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً}.(3)

ونجى موسى عليه السلام من الغرق في البحر وهو رضيع، والنجاة من فرعون وجنوده، قال تعالى: {فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ}(4)، وقال تعالى: {فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ}.(5)

وتتسع حدود حفظ الله تعالى لعباده المؤمنين، حيث تنتفع ذرية الصالحين بحفظ الله لهم، قال تعالى بحق اليتيمين اللذين كان أبوهما صالحاً، وكان تحت جدارهما كنز لهما: {وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ}.(6)

---

1. مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح.
2. الأنبياء: 69.
3. يوسف: 19.
4. الشعراء: 63.
5. يونس: 90.
6. الكهف: 82.

الثاني: حفظ الله تعالى للعبد في دينه، فيحميه من الفتن والشهوات والشرك والضلال، فقد حفظ الله تعالى أنبياءه وأولياءه وعباده المتقين من نوازع الفتن، وصرف عنهم مغرياتها. قال تعالى بحق يوسف عليه السلام: {لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ}.(1)

وتستمر هذه الرعاية والحفظ في الدين للعبد المؤمن حتى يلقى ربه على كلمة التوحيد، فتختم حياته بها، نسأله تعالى أن يتوفانا على الإيمان، ويثبتنا عند السؤال والحساب.

ثم يوجه النبي ﷺ المسلمين إلى جانب مهم في العقيدة وهو التوجه بالسؤال إلى الله تعالى.

بقوله: (إذا سألت فاسأل الله) إذ هو سبحانه القادر على إجابة السؤال، وتلبية الدعاء.

ومن أبرز مظاهر العبودية الالتجاء إلى الله والافتقار إليه، وقد وجهنا الله تعالى إلى طلب رحمته ودعائه، قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}.(2)

{وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}.(3)

وأثنى الله على المؤمنين بقوله: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ }.(4)

وإن من تمام العبادة ترك سؤال الناس، فلا يخلو سؤالهم من مذلة للنفس، ومهانة لها، قال طاووس لعطاء رحمهما الله: (إياك أن تطلب حوائجك إلى من أغلق دونك بابه، وجعل دونك حجابه، وعليك بمن بابه مفتوح إلى يوم القيامة، أمرك أن تسأله، ووعدك أن يجيبك)

قال الشاعر أبو العتاهية:

لا تسألن بني آدم حاجـــة وسل الذي أبوابه لا تُحجب

فاجعل سؤالك للإله فإنما في فضل نعمة ربنا تتقلب

---

1. يوسف: 24.
2. البقرة: 186.
3. غافر: 60.
4. الأنبياء: 90.

ثم يختم الحديث الشريف بتوجيه العبد إلى الاستعانة بالله تعالى، إذ المعين الحقيقي هو الله جل شأنه، والعبد بطبعه يحتاج إلى من يستعين به في أمور دينه ودنياه وعاجله وآجله، وليس يقدر على هذا العون إلا الذي بيده خزائن السماوات والأرض.

فمن أعانه الله فلا خاذل له، ومن خذله فلن يجد له ولياً معيناً، قال تعالى: {إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ}.(1)

ومن الدعاء المأثور (اللَّهُمَّ اَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِك)، فإذا تمكنت استعانة العبد بربه، ورأى أن لا معين غيره، تجذر الإيمان بالقضاء والقدر في نفسه وتعمق، فلا يبالي بكيد الأعداء، ويوقن أن الخلق كلهم عبيد الله لن ينفعوه إلا بما قدر له، ولن يستطيعوا ضره بشيء لم يقدر عليه.

قال تعالى: {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}.(2)

فما أحوجنا إخوة الإيمان إلى هذه الكلمات الطيبات من هدي المصطفى ﷺ، نعمل بها، ونطبقها في حياتنا، فلا نسأل إلا الله تعالى، ولا نستعين إلا به، ونوقن بأنه لن يصيبنا إلا ما قدر لنا، عندها تهون علينا مصاعب الدنيا، وننطلق دعاةً عاملين على رفع شأن هذا الدين في عقيدة راسخة، وإيمان لا يتزعزع.

فالنصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، ولن يغلب عسر يسرين، وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأسوة، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجه إلى يوم الدين.

---

1. آل عمران: 160

2. الحديد: 22.

لقد حرص الصحابة، رضوان الله عليهم، على الاقتداء بهدي النبي ﷺ، وملازمة هذا الهدي في جميع أحوالهم، ليقينهم أن اتباع الرسول ﷺ في أقواله وأفعاله، والتزام ذلك في حياة المسلم مدعاة لرضا الله ومحبته ومحبة رسوله ﷺ، فالله يقول: {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}.(1).

وقد كان اتباع الصحابة، رضوان الله عليهم، لرسول الله ﷺ في أعلى درجات التطبيق في العمل، وفي أسمى معاني المحبة لله ورسوله، يبدو ذلك جلياً في استفسارات الصحابة، رضوان الله عليهم، عن مصير محبة الرسول ﷺ في الآخرة، فقد ورد عن أكثر من صحابي سؤاله للرسول ﷺ عن ذلك، وكان جواب الرسول، عليه الصلاة والسلام، قاطعاً في هذا الشأن: "الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ".(2).

وقد روى أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: "بَيْنَمَا أَنَا وَالنَّبِيُّ ﷺ خَارِجَانِ مِنْ الْمَسْجِدِ، فَلَقِيَنَا رَجُلٌ عِنْدَ سُدَّةِ الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَا أَعْدَدْتَ لَهَا، فَكَأَنَّ الرَّجُلَ اسْتَكَانَ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ مَا أَعْدَدْتُ لَهَا كَبِيرَ صِيَامٍ، وَلا صَلاةٍ، وَلا صَدَقَةٍ، وَلَكِنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، قَالَ: أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ".(3).

ويعلق الصحابي الجليل أنس بن مالك، رضي الله عنهما، على هذا القول الشريف قائلاً: " فَمَا فَرِحْنَا بَعْدَ الإِسْلامِ فَرَحًا أَشَدَّ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ، فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ".(4).

---

1. آل عمران: 31.
2. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب علامة حب الله عز وجل.
3. صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب القضاء والفتيا في الطريق.
4. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب.

فهذه منزلة المحبة لله ورسوله يفوز صاحبها في الآخرة برفقة رسول الله ﷺ في الجنة، وأي فوز أعظم من النجاة في الآخرة من العذاب والنار والدخول في الجنة، دار الرضوان، بصحبة سيد الأنام، أمان المؤمنين، والرحمة العامة لأمة المسلمين، أمة الإجابة لرسول رب العالمين، الذين آمنوا به واتبعوه، وحملوا النور الذي جاء به للعالمين، تملأ صدورهم محبة الله ورسوله على مدى الأزمان.

فقد فاز من اتبعه من الأصحاب الكرام بالصحبة في الدنيا، وهم من السابقين بصحبته في الآخرة، ومنزلتهم القرب، كما أخبر الله تعالى: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ}.(1)

كما يفوز من أحب الله ورسوله بهذه الصحبة في الآخرة، وإن لم يصاحب الرسول، عليه الصلاة والسلام، في الدنيا، فقد ورد عن النبي ﷺ قوله، وهو يخبر الصحابة رضي الله عنهم، عن أحبابه، فعن أبي جمعة قَالَ: "تَغَدَّيْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَعَنَا أَبُو عُبَيْدَةَ ابْنُ الْجَرَّاحِ، قَالَ: فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ هَلْ أَحَدٌ خَيْرٌ مِنَّا، أَسْلَمْنَا مَعَكَ، وَجَاهَدْنَا مَعَكَ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ قَوْمٌ يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِكُمْ، يُؤْمِنُونَ بِي، وَلَمْ يَرَوْنِي". (2)

وهكذا هي أمة المصطفى ﷺ بين الصحبة والمحبة لرسول الله، عليه الصلاة والسلام، وفي كلتيهما الخير والفوز والفلاح في الدنيا والآخرة، فليحرص أتباع النبي، عليه الصلاة والسلام، في زمان كثرت فتنه، وعم بلاؤه، على اتباع نهج المصطفى ﷺ، ليكونوا من أحبابه، وليجتازوا فتن الدنيا، ويفوزوا بالنجاة في الآخرة، فيكونوا مع حبيبهم رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، الذين فازوا بالصحبة في الدنيا والآخرة، وهذا مطمح السائرين، وغاية المحبين، التي حولها يدندن كل من عمر الإيمان قلبه ونوره بمحبة الله ورسوله، فكان

1. الواقعة: 10-12.

2. مسند أحمد، مسند الشاميين، حديث أبي جمعة حبيب بن سباع رضي الله تعالى عنه، وصححه شعيب الأرناؤوط.

جديراً بأن يكون مع من أحب، كما أخبر الصادق المصدوق، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وقد تعرض السلف الصالح من العلماء لبيان منزلة المحبة، فقال عنها ابن القيم: "المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى عملها شمَّر السابقون، وعليها تفانى المحبون، وبروح نسيمها تروح العابدون، وهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرة العيون، وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه جميع الأسقام، واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام، تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة، إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب".

ولقد مدح الله رسوله ومن معه بقوله: {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً}.(1)

ولعل من أعظم الأعمال الموصلة إلى محبة الله ورسوله، والفوز بشرف الدنيا والآخرة:

أولاً: الإقبال على كتاب الله تعالى، قراءة وتدبراً وفهماً وتطبيقاً، وقد أحب الله عبداً من أصحاب النبي ﷺ كان يلازم قراءة سورة الإخلاص في صلاته، فلما سئل عن ذلك قال: "لأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ".(2)

ثانياً: التقرب إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض، فإنها توصل إلى درجة المحبوب بعد المحبة، فقد ورد في الحديث القدسي: "مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ

1. الفتح: 29.

2. صحيح البخاري، كتاب التوحيد ، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ.

إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ؛ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ".(1)

ثالثاً: الدوام على ذكر الله تعالى، وابتغاء رضاه على كل ما سواه، والمحافظة على الطاعات، وتحري أوقات الإجابة، فإن الطاعة والعبادة فيها مدعاة لرضا الله، والفوز بمحبته تعالى {وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ}(2)، { يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} (3).

فهيا إخوة الإيمان إلى هذه الرحاب الرحبة من أعمال البر والخير، للفوز بمحبة الله تعالى ومحبة رسوله، عليه الصلاة والسلام، حتى نفوز بكرامة الدنيا والآخرة، ونكون مع رسولنا الأسوة ﷺ، نرد حوضه يوم القيامة، ونشرب منه شربة لا نظمأ بعدها أبداً، ونفوز برضوان الله تعالى، فنكون في ظل محبته، ومعية محبوبه، الذي أخبرنا بأن المرء مع من أحب، وذلك هو الفوز العظيم، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

1. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع.
2. البقرة: 165.
3. المائدة: 54.

في حديث من جوامع كلمه، عليه الصلاة والسلام، ومن أحاديث الأصول العظيمة من أصول هذا الدين الحنيف، يحثنا رسول الله ﷺ على الوقوف عند حدود الله، وعدم تجاوزها، والالتزام بما فرض الله علينا، فقد روى أبو ثعلبة الخشني ... قال: قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ اللَّـهَ تَعَالَى فَرَضَ فَرَائِضَ فَلاَ تُضَيِّعُوهَا، وَحَرَّمَ حُرُمَاتٍ فَلاَ تَنْتَهِكُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلاَ تَعْتَدُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ، فَلاَ تَبْحَثُوا عَنْهَا".(1)

لقد أمر رسول الله ﷺ أمته الإسلامية في هذا الحديث الشريف بوجوب الالتزام بأداء الفرائض والواجبات، وعدم التفريط بها وإضاعتها، والفرض هو ما أوجبه الله على المكلفين، ومن الفرائض: الصلوات الخمس، وصيام رمضان، وأداء الزكاة، وحج البيت مرة واحدة في العمر لمن استطاع إلى ذلك سبيلاً، وكذلك صلات الأرحام، وحقوق الأقارب، وأداء المواريث والمأمورات التي أمرنا الله بأدائها كافة.

فالالتزام بأداء الفرائض هو حفظ لها، وبعد عن تضييعها، ومعلوم أن أداء الفرائض يقود إلى طاعة الله تعالى، وتضييعها يؤدي إلى معصية الله تعالى، وشتان بين المحافظ على فرائض الله والمضيع لها؛ فالمحافظ هو الطائع لله جل وعلا، السائر على طريق الخير والهدى، والفائز -بإذن الله- بجزيل ثوابه بالتوفيق في الدنيا، والنجاة في الآخرة، أما المضيع؛ فهو العاصي لله تعالى في الدنيا، والخاسر في الآخرة، والعياذ بالله.

1. أخرجه الدارقطني، كتاب الرضاع، وقال النووي في رياض الصالحين: حديث حسن.

والفرض والواجب بمعنى واحد، فمن التزم بما فرضه الله وأوجبه، كان محافظاً على فرائض الله، ومن لم يلتزم كان مضيعاً لها، وفي الواقع والحقيقة هو مضيع لنفسه وخاسر لها، {أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ}.(1)

وقد فرّق بعض العلماء بين الفرض والواجب من جهة الدليل، فقالوا: إن الفرض ما ثبت بدليل قطعي الدلالة والثبوت، والواجب ما ثبت بدليل ظني الدلالة، وهذا من مباحث علم الأصول.

وجمهور العلماء على أن الفرض والواجب واحد من حيث الدليل عليهما، ومن حيث المرتبة، فيقال: الصلوات الخمس فرائض، ويقال: هي واجبة.

وعدم تضييعها يكون بامتثال أدائها، فما فرضها الله إلا للالتزام بأدائها، وهذا يدل على أن من ضيع أثم، لأنه نهى عن التضييع، كما يدخل التضييع في قاعدة ترك الواجب محرم.

فترك الفرائض هو تضييع لها، وقد نهى عنه رسول الله ﷺ، كما أنه محرم لأنه ترك للواجب، فالحرص أخي المسلم على أداء فرائض الله وعدم تضييعها، والتزام أمر الله ورسوله، حتى تكون من الفائزين بالنجاة في الدنيا والآخرة.

كما بين لنا رسول الله ﷺ عدم تجاوز حدود الله تعالى، فقال: "وَحَدَّ حُدُودًا فَلا تَعْتَدُوهَا".

ومعنى "حد حدوداً" كما ذكره الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم: الواجبات والمستحبات والمباحات فلا تعتدوها؛ أي لا تتجاوزوها إلى الحرام.

والله يقول: {تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا }(2)، وقال تعالى:{تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا}.(3)

---

1. هود: 21.
2. البقرة: 229.
3. البقرة: 187.

فما أذن به الله تعالى من فرض، أو مستحب، أو مباح، هو الحد الذي لا ينبغي على المسلم أن يتجاوزه أو يتعداه، فإن فعل ذلك كان متعدياً ومتجاوزاً، ووقع في نطاق النهي والتعدي، وخرج عن حد المأذون به.

أما الحدود، إذا جاءت للمحرمات؛ فغالباً ما تأتي مقرونة بالنهي عن القرب منها، {تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا}.(1)

وبعد أن نهانا رسول الله ﷺ عن تعدي الحدود، وهو تجاوز ما أذن الله به من الفرض أو الواجب أو المباح، نهانا عن انتهاك ما حرم الله، فقال: "... وحرم أشياء فلا تنتهكوها...".(2)

إذ انتهاك ما حرم الله هو عدم المبالاة والاستهانة باقتراف هذا المحرم.

فكما لا يجوز تجاوز حد ما أذن به الله؛ كذلك لا يجوز انتهاك ما حرم الله، والاعتداء باقتراف هذا المحرم؛ فالمسلم لا يجاوز حدود المشروع، كما لا ينتهك المحرم، فتجاوز المشروع إثم، كما أن انتهاك المحرم إثم.

والملاحظ في القول النبوي الشريف"وحرم أشياء"؛ أن هذه الأشياء قليلة، إذا ما قورنت بدائرة المباح، ولله الحمد والمنة، فدائرة المباح أوسع من دائرة التحريم، وهذا ما نجده واضحاً في نصوص الكتاب والسنة.

فإذا نظرنا إلى دائرة المطعومات وجدنا دائرة التحريم ضيقة، بينما دائرة المباح واسعة.

قال تعالى: {قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }(3)، وكذلك في دائرة الملبوسات أو الأشربة وغيرها، فهي دوائر محدودة، بينما دائرة المباح واسعة، وهذا من نعم الله تعالى على عباده، ولهذا لم يحرم الشرع شيئاً فيه لابن آدم منفعة في حياته، بل كل المحرمات يمكنه الاستغناء عنها بالمباحات، ولا يؤثر ذلك على حياته في شيء.

---

1. البقرة: 187.
2. أخرجه الدارقطني، كتاب الرضاع، وقال النووي في رياض الصالحين: حديث حسن.
3. الأنعام: 145 .

ثم يقول الرسول ﷺ: "وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ، فَلا تَبْحَثُوا عَنْهَا"؛ أي إن الله تعالى لم يظهر حكم هذه الأشياء فلم يظهر حكم التحريم لها رحمة بنا.

ومعلوم أن من أركان التشريع الإسلامي الرحمة واليسر، وهذا من باب رحمة الله تعالى بعباده، {إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً}(1)، فالسكوت عن إظهار الحكم هو رحمة من الله تعالى لا نسيان، {وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً}(2)، بل هو الحفيظ العليم الذي جلت أسماؤه، وتقدست صفاته.

فالتكلف بإضفاء الأحكام على أمور مما يدخل في الإباحة الأصلية لا مبرر له أمام هذا الباب الواسع من رحمة الله بعباده، وقد ورد عن رسول الله ﷺ قوله: "إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ، فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ"(3)، والله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللّهُ عَنْهَا وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ}(4)، عن ابن عباس قال: "كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَأْكُلُونَ أَشْيَاءَ، وَيَتْرُكُونَ أَشْيَاءَ تَقَذُّرًا، فَبَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ، وَأَنْزَلَ كِتَابَهُ، وَأَحَلَّ حَلالَهُ، وَحَرَّمَ حَرَامَهُ، فَمَا أَحَلَّ فَهُوَ حَلالٌ، وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حَرَامٌ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَفْوٌ، وَتَلا :{قُلْ لا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا} إِلَى آخِرِ الآيَةِ ".(5)

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لحفظ فرائضه، والالتزام بحدود ما أمر به، وعدم انتهاك ما حرم، والالتزام بما أمر به، وعدم البحث عما سكت عنه رحمة بنا غير نسيان، إنه خير مأمول، وأكرم مسؤول، وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأسوة، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

---

1 النساء: 29.

2. مريم: 64.

3. صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه.

4. المائدة: 101.

5. سنن أبي داود، كتاب الأطعمة، باب ما لم يذكر تحريمه، وقال الألباني: صحيح الإسناد.

عن أَبِي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّهُ سمع رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: "بَيْنَا امْرَأَةٌ تُرْضِعُ ابْنَهَا إِذْ مَرَّ بها رَاكِبٌ وَهِيَ تُرْضِعُهُ، فقالت: اللهم لا تُمِتْ ابْنِي حتى يَكُونَ مِثْلَ هذا، فقال: اللهم لا تَجْعَلْنِي مثله، ثُمَّ رَجَعَ في الثَّدْيِ، وَمُرَّ بِامْرَأَةٍ تُجَرَّرُ وَيُلْعَبُ بها، فقالت: اللهم لا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهَا، فقال: اللهم اجْعَلْنِي مِثْلَهَا، فقال: أَمَّا الرَّاكِبُ فإنه كَافِرٌ، وَأَمَّا الْمَرْأَةُ؛ فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ لها تَزْنِي، وَتَقُولُ حَسْبِيَ الله، وَيَقُولُونَ تَسْرِقُ، وَتَقُولُ حَسْبِيَ الله".[1].

فهذا الحديث النبوي الشريف، يشير إلى عمق إيمان تلك المرأة التي تعرضت للظلم والطغيان، سواء في فرية اتهامها بالسرقة والزنى، أم جراء ما لحقها بسبب تلك الفرية من معاناة نفسية وبطش بدني، غير أنها لجأت إلى الله، وكانت تردد "حَسْبِيَ الله"، وقد سخر الله لها رضيعاً ينطق ببراءتها، لكن قومها يجهلون، مثلما يجهل كثير من الناس حقائق الأمور، التي تجري وفق قدر الله، الذي يصرف الأمور كيف شاء، سواء أدرك الناس الحكمة منها أم لم يوفقوا لإدراك ذلك، والذي يؤمن بالله يقين الإيمان؛ فإنه يتوكل على الله حق التوكل، والله يرشد إلى حقيقة هذا اليقين، فيقول سبحانه وتعالى: {قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}.[2].

والعبرة تبقى دائماً وأبداً بالحقائق، وإن خدعت المظاهر بعض الناس حيناً من الدهر، وما حصل مع تلك المرأة المتوكلة، جدير بأن تؤخذ منه العبر والعظات، فها هم الأنبياء كانوا يعلنون عن تشبثهم بالتوكل على الله في شأنهم كله، وبخاصة خلال دعوتهم الناس للإيمان، ومواجهة طغيان الظالمين الذين يبغونها طريقاً ضالة منحرفة عن نهج الله وقيمه ومبادئه، والله

1. صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار.

2. التوبة: 51.

سبحانه أمر المؤمنين بالتوكل عليه جل وعلا، في آيات عدة، منها قوله تعالى: {...وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}.(1)

ووجه الله تعالى نبيه الأمين محمد بن عبد الله ﷺ إلى الأخذ بمبدأ التوكل على الله في مواجهة إعراض الظالمين عن هديه ودعوته، ففي خاتمة آيات سورة التوبة يقول سبحانه وتعالى: {فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}.(2)

ونوح عليه السلام أعلن لقومه عن تمسكه بمبدأ التوكل على الله، فقال تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللّهِ فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ}.(3)

وموسى عليه السلام جعل التوكل على الله آية دالة على صدق إسلام من زعم الإيمان من قومه، قال تعالى: {وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ}.(4)

وعلى نفس نهجه قال رجلان من شيعته، كما ورد في القرآن الكريم عنهما، قال تعالى: {قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}.(5)

ويعقوب عليه السلام يلفت انتباه أبنائه إلى توكله على الله، ويوجههم إليه، يقول تعالى: {وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ}.(6)

---

1. آل عمران: 122.
2. التوبة: 129.
3. يونس: 71.
4. يونس: 84.
5. المائدة: 23.
6. يوسف: 67.

وهود عليه السلام قرن براءته من شرك قومه، بإعلان توكله على الله في مواجهة أذاهم وكيدهم، فقال: {إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}.(1)

وشعيب عليه السلام أفصح عن توكله على الله، وهو يحاجج قومه بدلائل الإيمان، فقال تعالى: {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}.(2)

وأورد القرآن الكريم رده الإيماني على وعيد المستكبرين من قومه، وتضمن ذاك الرد الإقرار بعلم الله الواسع، وإعلان التوكل عليه سبحانه، وطلب الفتح بالحق بينه وبين قومه، قال تعالى: {قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ* قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ}.(3)

وأرشد الله المؤمنين للتأسي بإبراهيم عليه السلام الذي كان عنواناً للتوكل، وأنموذجاً صالحاً له، فقال تعالى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}.(4)

---

1. هود: 56.
2. هود: 88.
3. الأعراف: 88-89.
4. الممتحنة: 4.

وعن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، قال: "كان آخِرَ قَوْلِ إبراهيم حين أُلْقِيَ فِي النَّارِ حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ". (1)

وحجة المؤمنين دامغة في التوكل على الله، فمن ذا المخلوق الذي يملك لنفسه ضراً أو نفعاً؟ ومن بيده الحياة والموت؟ ومن الذي يرزق الخلق في البر والبحر؟ لا أحد إلا الله، يقول سبحانه: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ} (2)، ولما أمر القرآن بالتوكل على الله، لفت الانتباه إلى مسوغات هذا الأمر، فهو سبحانه الحي الذي لا يموت أبداً، وهو العليم الخبير، والعزيز الرحيم، يقول سبحانه وتعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً} (3)، ويقول جل شأنه: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ} (4) {وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً}. (5)

وحين تستقر هذه الحقيقة الإيمانية في القلوب، فأصحابها يعتقدون بأن لا ملجأ من الله ولا ملاذ إلا إليه سبحانه، ويرددون في وجه الطغاة والظالمين ما ورد في قوله تعالى: {وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ}. (6)

---

1. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ}.
2. الزمر: 38.
3. الفرقان: 58.
4. الشعراء: 217.
5. الأحزاب: 3.
6. إبراهيم: 12.

وأبرز ثمار التوكل على الله الفوز بالجنة، فعن ابن عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: "يَدْخُلُ الْجَنَّةَ من أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، هُمْ الَّذِينَ لا يَسْتَرْقُونَ، ولا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ". (1)

ووعد الله الذين يصبرون على ما يجدون من ظلم وأذى، ويتوكلون على الله، خير المنازل في الدنيا والآخرة، قال تعالى: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ* وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ* الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}.(2)

ويقول سبحانه وتعالى:{فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}.(3)

وأثنى الله على المؤمنين المتوكلين، فقال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}.(4)

ويكفي المتوكلين عزاً وفخراً ونعيماً نيلهم حب الله، وقد أفصح الله عن هذا الحب، فقال سبحانه: {...إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}.(5)

ومن ثمار التوكل على الله، الحماية من كيد الشيطان، يقول تعالى: {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}.(6)

ويقول سبحانه وتعالى: {إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}.(7)

---

1. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب ومن يتوكل على الله فهو حسبه.
2. النحل: 40-42.
3. الشورى: 36.
4. الأنفال: 2.
5. آل عمران: 159.
6. النحل: 99.
7. المجادلة: 10.

ومن ثمار التوكل على الله، تيسير سبل الحماية والرعاية للمتوكلين، قال تعالى: {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً}.(1)

ومن شروط التوكل على الله الأخذ بالأسباب، من حيث الإعداد السليم، والنظر في الأمور والقضايا بوعي وبصيرة وعين ثاقبة، فالله تعالى جعل التوكل بعد العزم، فقال سبحانه: {...فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}.(2)

ولا بد للمتوكل من اليقين أنه على منهج الحق يسير، وله يدعو، قال تعالى: {فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ}.(3)

ويلزم المتوكل على الله أن يتسلح بالصبر، فالصبر والتوكل متعاضدان، قال تعالى: {الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}.(4)

وقد وجه الله المؤمنين إلى التسلح بالتوكل على الله، وحذرهم من مهادنة الكفر والنفاق وأهلهما، فقال تعالى: {وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً}.(5)

ويقول سبحانه وتعالى: {وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً}.(6)

جعلنا تعالى من المتوكلين عليه حق توكله، ورزقنا كما يرزق الطير، وهدانا إلى خير السعي والعمل، وجنبنا التواكل والكسل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأزواجه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. الطلاق: 3.
2. آل عمران: 159.
3. النمل: 79.
4. العنكبوت: 59.
5. الأحزاب: 48.
6. النساء: 81.

سنتحدث في هذه المقالة عن وجوب اتباع سنة رسول الله ﷺ والابتعاد عن البدع، فقد جاء في الحديث الشريف عن النبي ﷺ أنه قال: "إِنَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ؛ كِتَابُ اللَّهِ، وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ؛ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وإِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ". [1]

هذا الحديث يبين أن أفضل ما يقتدي به الإنسان من أخلاق وأعمال وغيرها، إنما يكون باتباع سنة رسول الله ﷺ، ومعلوم أن السنة تعني: الهدي الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، علماً واعتقاداً، وقولاً، وعملاً، وهي السنة التي يجب اتباعها، ويُحمد أهلُها، ويُذمُّ من خَالَفها، أو هي بمعنى آخر: اتباع آثار رسول الله ﷺ، باطناً وظاهراً، واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار.

وإن من يتمسك بسنة الحبيب ﷺ، ويحافظ عليها، يدخل ضمن مسمى أهل السنة والجماعة، وهم: من كان على مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، وهم المتمسكون بسنة النبي ﷺ، من الصحابة، والتابعين، وأئمة الهدى المُتَّبِعين لَهُم، وهم الذين استقاموا على الاتِّباع، وابتعدوا عن الابتداع، في أي مكان، وفي أي زمان، وهم باقون منصورون إلى يوم القيامة، وسمَّوا بذلك لانتسابهم لسنة النبي ﷺ، واجتماعهم على الأخذ بها ظاهراً وباطناً، في القول، والعمل، والاعتقاد، فعن عوف بن مالك، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "افْتَرَقَتْ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَافْتَرَقَتْ النَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَإِحْدَى وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَثِنْتَانِ

1. صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب السنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله.

وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ مَنْ هُمْ؟ قَالَ: الْجَمَاعَةُ"[1]، وفي رواية الترمذي عن عبد الله بن عمرو: "مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي".[2]

وعلامات أهل السنة كثيرة، يدركها العقلاء من البشر، ومن أهم تلك العلامات:

1- الاعتصام بالكتاب والسنة، والعض عليها بالنواجذ.

2- التحاكم إلى الكتاب والسنة في الأصول والفروع.

3- حبهم لأهل السنة، والمتمسكين بها، وبغضهم لأهل البدع.

4- لا يستوحشون من قلة السالكين؛ لأن الحق ضالة المؤمن، يأخذ به ولو خالفه الناس.

5- الصدق في الأقوال والأفعال، بالتطبيق الصحيح لهدي الكتاب والسنة.

6- التأسي برسول الله ﷺ الذي كان خلقه القرآن.

ومعلوم بداهة أن من شروط قبول العمل الذي يتقرب به إلى الله، شرطين هامين هما:

الشرط الأول: إخلاص العمل لله وحده لا شريك له.

الشرط الثاني: المتابعة للرسول ﷺ، لقوله عليه الصلاة والسلام: "مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ".[3]

فمن أخلص أعماله لله، متبعاً في ذلك رسول الله ﷺ، فهذا الذي عمله مقبول، ومن فقد الإخلاص، والمتابعة لرسول الله ﷺ، أو أحدهما، فعمله مردود، داخل في قوله تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا}[4]، ومن جمع الأمرين، فهو داخل في قوله عز وجل: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ}.[5]

---

1. سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب افتراق الأمم، وصححه الألباني.
2. سنن الترمذي، كتاب الإيمان عن رسول الله، باب ما جاء في افتراق الأمم، وقال الألباني: حسن.
3. صحيح البخاري، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود.
4. الفرقان: 23.
5. النساء: 125.

وأما البدعة؛ فلها تعريفات كثيرة في الاصطلاح الشرعي، تدعم بعضها بعضاً، ومن هذه التعريفات، أن البدعة هي: ما لم يشرعه الله ورسوله ﷺ، وهي مما لم يأمر به أمر إيجاب ولا استحباب.

وجاء في ذم البدعة نصوص كثيرة من الكتاب والسنة، ومن ذلك -على سبيل الإيجاز- ما يأتي:

أولاً: من القرآن

1- قال الله عز وجل: {هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ}.[1]

2- وقال عز وجل: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[2]، فالصراط المستقيم هو سبيل الله الذي دعا له، وهو السنة، والسبل هي سبل أهل الاختلاف، وطرق أهل البدع.

3- وقال سبحانه وتعالى: {وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ}[3]، فقصد السبيل هو طريق الحق، وما سواه جائر عن الحق، أي: عادل عنه، وهي طرق البدع والضلالات.

ثانياً: من السنة

1- حديث عائشة، رضي الله عنها، عن النبي ﷺ أنه قال: "مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ".[4]

---

1. آل عمران: 7.
2. الأنعام: 153.
3. النحل: 9.
4. صحيح البخاري، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود.

2- كان رسول الله ﷺ، يَحْمَدُ اللَّهَ -في خطبته-، وَيُثْنِي عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ يَقُولُ: مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْهُ فَلا هَادِيَ لَهُ، إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ، وَكُلُّ ضَلالَةٍ فِي النَّارِ".[1]

ومما ساهم في انتشار البدعة أمور عدة، منها:

* الجهل، فهو آفة خطيرة، قال الله عز وجل: {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً}.[2]

* اتباع الهوى، وهو من الأسباب الخطيرة التي توقع الناس في البدع والأهواء، قال الله عز وجل: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}.[3]

* سكوت العلماء وكتم العلم، وهو أهم أسباب انتشار البدع والفساد بين الناس، قال الله عز وجل: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ، إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}.[4]

وغيرها من الأسباب الكثيرة التي لا يتسع المجال لذكرها.

---

1. سنن النسائي، كتاب صلاة العيدين، باب كيف الخطبة، وصححه الألباني.
2. الإسراء: 36.
3. ص: 26.
4. البقرة: 159-160.

والبدع لها آثارها وعواقبها الوخيمة، وأضرارها المهلكة، منها:

1- القول على الله بغير علم؛ لأن الناظر في سير المبتدعة يجدهم أكثر الناس كذباً على الله ورسوله ﷺ.

2- بغض المبتدعة للسنة وأهلها، وهذا مما يدل على خطورة البدع.

3- رد عمل المبتدع؛ لقول النبي ﷺ: "مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ".[1]

4- انعكاس فهم المبتدع، فيرى الحسنة سيئة، والسيئة حسنة، والسنة بدعة، والبدعة سنة.

5- المبتدع يفرق الأمة؛ فإنه ببدعته يفرق هو وأتباعه المسلمين، فيوجد بسبب ذلك أحزاباً وشيعاً متفرقةً، قال الله عز وجل: {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ}.[2]

وختاماً؛ نسأل الله عز وجل أن نكون ممن يتبع سنة الحبيب المصطفى ﷺ، ويبتعد عن البدع ظاهرها وباطنها، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد الأسوة، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح البخاري، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود.

2. الأنعام: 159.

عن أبي ذرٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِـي الأَرْضِ أَوَّلَ؟ قَالَ: الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ. قَالَ: قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: الْمَسْجِدُ الأَقْصَى. قُلْتُ: كَمْ كَانَ بَيْنَهُمَا؟ قَـالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً، ثُمَّ أَيْنَمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلاةُ بَعْدُ فَصَلِّهْ، فَإِنَّ الْفَضْلَ فِيهِ". ([1])

فالمسجد الأقصى هو ثاني مسجد بني في الأرض لعبادة الله، ولم يسبقه سوى المسجد الحرام في مكة المكرمة، وهو قبلة المسلمين الأولى، فعَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَـازِبٍ: "أَنَّ النَّبِـيَّ ﷺ كَـانَ أَوَّلَ مَا قَدِمَ الْمَدِينَةَ نَزَلَ عَلَى أَجْدَادِهِ، أَوْ قَالَ أَخْوَالِـهِ مِـنَ الأَنْـصَارِ، وَأَنَّـهُ صَـلَّى قِبَـلَ بَيْـتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا، أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ الْبَيْتِ، وَأَنَّهُ صَلَّى أَوَّلَ صَلاةٍ صَلاهَا صَلاةَ الْعَصْرِ، وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّـنْ صَـلَّى مَعَـهُ، فَمَـرَّ عَلَى أَهْلِ مَسْجِدٍ وَهُمْ رَاكِعُونَ، فَقَالَ: أَشْهَدُ بِاللَّهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ قِبَـلَ مَكَّـةَ، فَدَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ الْبَيْتِ، وَكَانَتْ الْيَهُودُ قَدْ أَعْجَبَهُمْ إِذْ كَـانَ يُـصَلِّي قِبَـلَ بَيْـتِ الْمَقْدِسِ وَأَهْلُ الْكِتَابِ، فَلَمَّا وَلَّى وَجْهَهُ قِبَلَ الْبَيْتِ أَنْكَرُوا ذَلِكَ".([2])

وحث الرسول ﷺ المسلمين على شد الرحال إليه، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِـيَ اللَّـهُ عَنْـهُ، عَـنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلا إِلَى ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ؛ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُـولِ ﷺ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى".([3])

ووصف الرسول ﷺ بيت المقدس عقب رحلة الإسراء، "فعن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: لَمَّا كَذَّبَتْنِي قُرَيْشٌ قُمْتُ فِي الْحِجْرِ، فَجَـلا اللَّـهُ لِـي

1. صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: {واتخذ الله إبراهيم خليلاً}.

2. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الصلاة من الإيمان.

3. صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة.

بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ"[1]، وقد تعرض مسرى الرسول ﷺ صاحب هذه المكانة والفضل، إلى محن كثيرة عبر التاريخ، كان من أبرزها إحراقه على يد الظالم الصهيوني "مايكل دينس روهان" حيث أتت نار البغي على منبر صلاح الدين، وكثير من أجزاء المسجد وموجوداته، ولم تقف حدود الاعتداءات على المسجد عند حادثة بعينها، وإنما يجري الحديث عن كيد الليل والنهار له، في إطار ظلم الذي يحول بين المؤمنين وبين مساجد الله، ويسعى في خرابها، والله تعالى يشنع على المجحفين بحق المساجد، فيقول سبحانه:{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَـئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}.[2]

فالحريق الذي تعرض له المسجد الأقصى رغم قسوته وبالغ آثاره، وعمق جرحه، إلا أنه ليس سوى صورة رمزية لصنوف الانتهاكات والاعتداءات التي يتعرض لها ورواده من قبل المحتل الذي اغتصب الأرض والمقدسات، وعاث في الأرض الفلسطينية الفساد.

فالقدس ومسجدها الأقصى يتعرضان لمخاطر التدنيس، وطمس الهوية، ولعدوان متواصل يستهدف وجودهما، وهما يستنجدان، ولكن لا مغيث لها من أصحاب النفوذ البشري الذين يقتصر دعمهم على مواقف هزيلة، ودعم لا يرقى إلى مستوى الخطر الذي يتهددهما، فهما يتعرضان لخطر لا يستطيع أحد التقليل من حجمه وآثاره، فما حدث خطير، وما يحكى عما يجري من تخطيط للتنفيذ في الأيام القادمة والمراحل أخطر وأصعب وأقسى، فالحرب مستعرة لكنها غير متكافئة على القدس والمسجد الأقصى، فهناك الطرف الذي يعتبر القدس عاصمته، ويمارس تبعات ذلك على أرض الواقع، ويعتبر المسجد الأقصى مكاناً لمعبده، ويسعى لبناء هيكله مكانه، وهناك المسلمون الذين يعتبرون القدس عاصمتهم المنشودة، والمسجد الأقصى جزءاً من عقيدتهم، ومسرى نبيهم، والتاريخ بسجله ووقائعه ووثائقه يؤيد

1. صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب حديث الإسراء.

2. البقرة: 114.

حقهم فيهما، وتبقى المسألة في نطاق الصراع بين طرف ينفذ مرحلياً ما شاء من الأفعال، ويصدر ما شاء من القرارات، والمسلمون في أرض الإسراء مغلوبون على أمرهم، يستندون إلى قوى مختلفة، وما يجري على أرض الواقع من الأمور يأتي بخلاف ما يتمنون ويتطلعون.

وجزء مهم ورئيس من الحرب على القدس يخص المسجد الأقصى المبارك، الذي ترتكز حوله بؤرة الصراع، وقد كثر في الآونة الأخيرة الحديث عن تهديده، وأصحاب هذا الحديث قسمان، قسم تمثله الجماعات الإسرائيلية المتطرفة التي تستهدف هدم المسجد الأقصى المبارك وبناء الهيكل مكانه، أو استباحة حرماته باقتطاع أجزاء منه لتكون نواة لكنيس يهودي يبنى في ربوعه، والقسم الثاني يمثله المسلمون الذين يبدون التخوف من تنفيذ التهديدات الإسرائيلية، فينبهون العالم، وبخاصة المسلمين في أنحاء الدنيا، إلى ما يجري للمسجد الأقصى من استهداف ومحاولات تدنيس، ويبدو أن الأفعال والخطط التي تتماشى مع التهديد تجري على قدم وساق، وفق برامج معدة بعناية لهذه الغاية، فصور الهيكل المنوي إقامته على أنقاض المسجد الأقصى نشرت على مواقع عدة، ومنها جوانب الحافلات الإسرائيلية، ومسيرات بعض الحركات الإسرائيلية تسير نحو الأقصى بين الحين والآخر تحت مسميات مختلفة وفي مناسبات عدة، والتصريحات العلنية المتضمنة التعبير عن الرغبة الملحة في اقتحام المسجد وهدمه وإقامة الهيكل مكانه تطلق من أفواه عدة ومستويات مختلفة، والحفريات تحت أساسات المسجد وجدرانه، وإحاطة المسجد بالكنس التي يتم تشييدها ورفعها بحيث تعلو المسجد وتحجبه عن الظهور والبروز في قلب القدس، وتغيير معالم المدينة المقدسة التي اشتهرت في صورها ومنظرها بمبنى المسجد الأقصى وأسواره ومسجد قبة الصخرة في قلبها.

وتتضمن هذه المشاريع إقامة مبنى على موقع موقف السيارات قرب باب المغاربة بجانب المسجد الأقصى، وقد نشرت وسائل الإعلام صوراً تصدرت صفحة صحيفة القدس المقدسية في السادس من رمضان للعام 1431هـ السابع عشر من شهر آب 2010م، ظهرت فيها الحفريات التي تقوم بها الجهات الإسرائيلية في ساحة البراق المحاذية للجهة

الغربية من المسجد الأقصى المبارك تمهيداً لإقامة مصعد ونفق يربطان ساحة البراق بالمواقع التي يستوطنها اليهود في البلدة القديمة من القدس.

وهنا لا بد من التأكيد على أن ما يستهدف المسجد الأقصى من تهديد إنما يستهدف عقيدة مسلمي العالم، ويمس حقوقهم الثابتة ديناً وتاريخاً وثقافةً وواقعاً في هذا المسجد، الذي يمثل قبلتهم الأولى، ومسرى نبيهم ﷺ، ومنطلق معراجه إلى السماء، فالله بارك حوله، في مطلع السورة القرآنية التي سميت بالإسراء، فقال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}.[1]

ولو لم يكن إلا هذا الدليل القرآني يدعو لارتباط المسلم بالمسجد الأقصى لكفى، فهو يشير إلى الصلة الوثيقة بينه وبين المسجد الحرام، بما يمثله من مكانة عظيمة في تاريخ المسلمين وعبادتهم وعقيدتهم، وقد سبق للرسول ﷺ أن بشر بفتح بيت المقدس، مشيراً إلى أن ذلك يكون بين يدي الساعة، فعن عَوْفَ بْنَ مَالِكٍ قَالَ: "أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَهُوَ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ، فَقَالَ: اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ؛ مَوْتِي، ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ مُوْتَانٌ يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقُعَاصِ الْغَنَمِ، ثُمَّ اسْتِفَاضَةُ الْمَالِ، حَتَّى يُعْطَى الرَّجُلُ مِائَةَ دِينَارٍ، فَيَظَلُّ سَاخِطًا، ثُمَّ فِتْنَةٌ لا يَبْقَى بَيْتٌ مِنْ الْعَرَبِ إلا دَخَلَتْهُ، ثُمَّ هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الأَصْفَرِ، فَيَغْدِرُونَ، فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً، تَحْتَ كُلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا"[2].

فالله نسأل أن يكرم المسلمين بتحرير القدس والمسجد الأقصى، وأن يحفظهما من كيد المتربصين، إنه قريب سميع مجيب الدعاء، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله الكرام، وصحابته الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. الإسراء: 1.

2. صحيح البخاري، كتاب الجزية، باب ما يحذر من الغدر.

تحل على العالم الإسلامي هذا اليوم ذكرى الإسراء والمعراج برسولنا الأكرم ﷺ، وهي ذكرى عزيزة على نفس كل مسلم لما اشتملت عليه من العبر والدروس والمعاني، والتكريم والرفعة لسيد الخلق أجمعين، وحبيب رب العالمين، وخاتم الأنبياء والمرسلين، عليه وعليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم.

فقد جاء توثيق هذه المعجزة الكريمة في كتاب الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

فغدت هذه المعجزة آية كريمة من كتاب الله وسورة جليلة من سور القرآن الكريم يتلوها المسلم متعبداً ومتقرباً بها إلى الله تعالى، لأن القرآن الكريم كلام الله تعالى، المتعبد بتلاوته.

كما وردت هذه المعجزة في صحاح كتب الحديث بتفصيل لأحداثها ووقائعها ومشاهداتها منذ جاء جبريل، عليه السلام، إلى النبي ﷺ، فقد جاء فيما أخرجه الإمام مسلم "فَحَانَتْ الصَّلاَةُ، فَأَمَمْتُهُمْ، فَلَمَّا فَرَغْتُ مِنْ الصَّلاَةِ، قَالَ قَائِلٌ: يَا مُحَمَّدُ؛ هَذَا مَالِكٌ صَاحِبُ النَّارِ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ، فَبَدَأَنِي بِالسَّلاَمِ".[1]

وما من شك أن كل حدث أو مرحلة أو مشاهدة من مشاهد هذه الرحلة القدسية العظيمة، والمعجزة الباهرة تحتاج إلى وقفة من التأمل والإيمان، لإدراك بعض معانيها، والوقوف على عبرها ودروسها، والاستفادة من أحداثها، ولعلنا في هذه الإطلالة على هذه المناسبة الكريمة، نلقي الضوء على بعض الدروس والعبر المستفادة منها:

- فقد جاءت هذه المعجزة، وهذا التكريم للنبي ﷺ بعد أن أغلقت أبواب الأرض في وجه الدعوة الإسلامية، وفقد النبي، عليه الصلاة والسلام، زوجه خديجة التي كانت خير عون له في تحمل أعباء الدعوة، كما فقد عمه أبا طالب الذي كان يدفع عنه أذى كفار مكة.

1. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال.

وبعد عودته من الطائف التي ذهب إليها، يدعو أهلها للإسلام والإيمان والخير، فردوا عليه أقبح رد لا يليق ببشر، فضلاً عن سيد البشر ورسول الله إلى الإنسانية جمعاء.

فالله تعالى العليم الخبير شاءت حكمته أن يفتح أبواب السماء أمام هذا الرسول الكريم الذي حمل رسالة الإسلام، وشاءت إرادته أن يكرم هذا النبي الكريم بمزيد من العناية والتكريم، فيستدعيه إلى رحابه الكريمة ليخلع عليه خلع الكرامة والسيادة والإمامة للعالمين جميعاً، {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً }.(1)

وهذا درس عظيم للدعاة لله، فحينما تغلق أبواب الأرض، فإن أبواب السماء مفتوحة، وإن فضل الله لا حصر له ولا حد، فما عليهم إلا أن يلجأوا إلى الله تعالى الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ويخلصوا النوايا، والعمل في دعوتهم، فرب السماء والأرض والناس جميعاً وعد عباده الصالحين بنصره، فقال تعالى:{ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ }(2)، وقال تعالى: {كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}.(3)

- كما أن هذه الحادثة ربطت ربطاً وثيقاً بين المسجد الحرام بداية رحلة الإسراء والمسجد الأقصى نهاية هذه الرحلة.

هذا الرباط العقدي والتعبدي والتاريخي والحضاري، فإذا كان المسجد الحرام، هو أول بيت وضع في الأرض، فإن المسجد الأقصى هو ثاني بيت يوضع في الأرض.

وإذا كان المسجد الحرام هو القبلة الثانية للمسلمين، فإن المسجد الأقصى هو القبلة الأولى.

وإن ثواب العبادة يضاعف في كلا المسجدين، وإذا كان المسجد الحرام قد بارك الله فيه، فقد بارك الله في المسجد الأقصى وبارك حوله.

---

1. سبأ: 28.
2. الروم: 47.
3. المجادلة: 21.

وإن كلا المسجدين مع المسجد النبوي الشريف، تشد إليها الرحال لقول الرسول ﷺ: "لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلا إِلَى ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ؛ مَسْجِدِي هَذَا، وَمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى".[1]

- كما جاءت هذه الرحلة القدسية لتؤكد فعلاً وعملاً القرار الرباني بمسجدية المسجد الحرام والمسجد الأقصى، وبالتالي إسلامية ديار هذين المسجدين.

وإن هذه الديار هي أمانة في أعناق المسلمين جميعاً، عليهم حمايتها، والحفاظ عليها، والذود عنها، إذا ما تعرضت لعدوان أو غاصب.

ومن هنا نهض المسلمون الأوائل من الصحابة الكرام والسلف الصالح للوصول إلى هذه الديار لبسط سلطان المسلمين وعدلهم عليها، تنفيذاً للقرار الرباني بإسلاميتها، بعد هذا الفتح المعنوي لها بإسراء النبي ﷺ إليها، وعروجه منها، وعلى وجه الخصوص من رحاب مسجدها الذي بارك الله فيه وبارك حوله، {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}.[2]

- كما أن إمامة النبي ﷺ للأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، في رحاب المسجد الأقصى المبارك لها دلالات وإشارات واضحة بأن زمام التوحيد والرسالات قد سلم للنبي ﷺ، إمام الأنبياء وخاتمهم، عليه وعليهم أتم الصلاة والتسليم.

وإن أمة هذا النبي الإمام هي صاحبة الولاية على هذا المسجد، وعلى هذه الأرض المباركة والأمينة على إرث النبوات وهدي الرسالات السماوية، من خلال رسالة الإسلام العظيمة، والدين القيم، والحنيفية السمحة، التي بعث بها رسولنا الأكرم ﷺ.

وقد فرضت الصلاة على أمتنا الإسلامية من فوق سماء القدس، وجعلها الله تكريماً لنبينا، ورحمة بأمتنا خمساً في العمل، خمسين في الأجر والثواب، وهذا تكريم للأمة، والصلاة هي

1. صحيح مسلم، كتاب الحج، باب لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد.
2. الإسراء: 1.

معراج العبد إلى الله، ففيها يكون العبد مع ربه، فأكرم بهذه العبادة، وهذا الركن العظيم من أركان الإسلام، الذي أكرم الله به أمتنا، حيث جعل قرة عينها في الصلاة.

- لقد حثنا رسول الله ﷺ ورغبنا في الرباط والسكنى في هذه الديار، عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: سَتَخْرُجُ نَارٌ مِنْ حَضْرَمَوْتَ، أَوْ مِنْ نَحْوِ بَحْرِ حَضْرَمَوْتَ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، تَحْشُرُ النَّاسَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: عَلَيْكُمْ بِالشَّامِ".[1]

فعلينا إخوة الإيمان في هذه الديار المباركة، ديار الإسراء والمعراج، وقد أكرمنا الله أن نكون سدنةً وحراساً لمسجده الأقصى المبارك، أن نعقد العزم بنية صادقة مخلصة لله على الرباط والثبات والتمسك بأرضنا ومقدساتنا وعقاراتنا، وحمايتها -ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً- من التسرب إلى يد هذا الاحتلال الغاشم وقطعان مستوطنيه، فهي أمانة الله في أعناقنا وأعناق المسلمين إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

كما نهيب بأمتنا الإسلامية دولاً وحكومات وحكاماً وشعوباً أن يجمعوا شملهم، ويوحدوا صفهم، ويعملوا جاهدين لإنقاذ المسجد الأقصى والقدس وأرض الإسراء والمعراج من براثن هذا الاحتلال الظالم، الذي يعيث في الأرض فساداً.

والله ندعو أن يعيد علينا هذه الذكرى العطرة، وقد توحدت الأمة، وتحررت ديار الإسراء والمعراج، ليشد المسلمون رحالهم إلى مسجدها الأقصى، زائرين، مهللين ومكبرين بنداء التوحيد الخالد، الله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد.

وصلى الله وسلم وبارك على حبيبنا وأسوتنا محمد، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم، واتبع سنتهم إلى يوم الدين.

---

1. سنن الترمذي، كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من قبل الحجاز، وصححه الألباني، والشام هي فلسطين وما جاورها، انظر: ص88.

لقد حرص النبي ﷺ، وهو يربي أصحابه ويرشد الأمة إلى ما ينفعها في دنياها وآخرتها، على بيان الأعمال الصالحة التي لا ينقطع ثوابها عن الإنسان بعد موته، بل يستمر نفعها وخيرها للإنسان، ويجري أجرها له بعد انتهاء هذه الحياة والانتقال إلى الحياة الآخرة، وهذا شأن كل نفس إنسانية، فـ{كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ}[1]، وكل إنسان لا بدَّ أن يسير إلى هذا المصير،{كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ}.[2]

وقد بين النبي ﷺ الأعمال التي يجري ثوابها للإنسان بعد موته في حديثه الشريف الذي يرويه أبو هريرة، رضي الله عنه، "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلا مِنْ ثَلاثٍ؛ صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ".[3]

فهذا الحديث الشريف يبين أن ثواب الأعمال يتوقف بموت الإنسان، فالله يقول: {وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلا مَا سَعَى* وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى* ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الأَوْفَى}.[4]

ولذا جاء الحث على استغلال الإنسان أيام حياته القصيرة في عمل الخير والطاعة والعبادة، حتى ينال الثواب، وينجو من العقاب والعذاب، وقد جاء في الحديث" اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك".[5]

---

1. الأنبياء: 35.
2. آل عمران: 185.
3. سنن الترمذي، كتاب الأحكام عن رسول الله، باب في الوقف، وقال الترمذي: حسن صحيح.
4. النجم: 39-41.
5. المستدرك للحاكم، كتاب الرقاق، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

فعلى الإنسان أن يكون مبادراً دائماً إلى فعل الخير، قبل أن يحول بينه وبين ذلك عارض المرض أو الضعف أو تضيق به الأوقات عن فعل الطاعات.

وقد حرص النبي، عليه الصلاة والسلام، وهو يربي أصحابه على توجيههم إلى استغلال أوقاتهم في أعمال الخير، وتوجيه النوايا بالأفعال الفطرية إلى قصد الطاعة، وعفة النفس، وإعانتها على الخير، لتنقلب العادات إلى عبادات يرجى ثوابها وأجرها عند الله تعالى، حينما يمارسها الإنسان وهو يقصد بذلك الطاعة والقوة على الخير وسلوك سبله، والإنسان مهما فعل من الخير في هذه الحياة يبقى شعوره بأنه ما زال بحاجة إلى الاستزادة من هذا الخير، فالأخطاء كثيرة، والذنوب كبيرة، والأعمال قليلة، والوقوف بين يدي الجليل تعالى واقع لا محالة، ولا جاه ولا مال ولا ولد ولا متاع حينئذ إلا فضل الله تعالى وعفوه وقبوله، ما قدم المرء من عمل صالح رجاء رضوان الله تعالى ومغفرته.

ولكي يتدارك الإنسان هذا الخلل، ويجبر هذا النقص في الأعمال، فقد بين النبي، عليه الصلاة والسلام، أعمالاً من شأنها أن ينتفع بها الإنسان بعد موته، إذا حرص عليها أو على واحد منها، وهذه الأعمال تقع في عوالم ثلاثة؛ عالم الأشياء؛ وهو مجال واسع في التكافل الاجتماعي، ومثاله الصدقة الجارية. وعالم الأفكار؛ وهو مجال الإنتاج الفكري والعلمي والمعرفي للإنسان، "عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ". وعالم الأشخاص؛ وهو مجال التربية والتوجيه نحو الصلاح، ويتمثل في الولد الصالح.

وإذا دققنا في هذه الأعمال وجدناها تقع في دائرة سعي الإنسان وكسبه، لأنه سبب في وجودها، فالولد الصالح من كسب والده، والعلم النافع من كسب صاحبه، وكذلك الصدقة الجارية المتمثلة في الوقف وسبل الخير كبناء المساجد، والمدراس، والمشافي، ودور إيواء الأيتام والمسنين والمحتاجين وتذليل الطرق وسبل المياه.

وقد جاء هذا الحديث الشريف ليبين لنا وفق منهجية واضحة سبل استثمار فترة ما بعد الموت - حيث انقطاع الأعمال - من خلال أعمال يستمر نفعها، ويلحق ثوابها بالإنسان بعد موته، فالصدقة الجارية دائمة الثواب والنفع لا يحدها الزمان والمكان، بل يستمر ثوابها وخيرها إلى ما شاء الله، وهذا ما يحقق طموح الإنسان في مزيد من الأجر والثواب، وفي هذا ما فيه من إسهام حضاري وإنساني في نفع البشرية من خلال الصدقات الجارية التي يعم نفعها أفراد المجتمع، كما يتحقق النفع والثواب من خلال العلم النافع الذي يتداوله أفراد المجتمع، وينتفعون به، والولد الصالح سيعود نفعه على المجتمع وعلى أبيه في الحياة وبعد الممات.

فليحرص الآباء على تربية الأبناء الصالحين، وليس فقط الأبناء الدارسين الذين ترتبط دراستهم بالنفع المادي الفردي الذي يعود بالنفع المؤقت على صاحبه فقط.

كما أن هذا الهدي النبوي الشريف يعيد الاعتبار لقيم ضاعت في زحمة المجتمعات المادية الاستهلاكية، ليجعل لهذه القيم مكانتها وأهميتها في حياة الحريصين على هذه القيم، وتفعيلها في الحياة الاجتماعية من خلال التكافل الاجتماعي بالصدقات الجارية، والتربية الصالحة للأبناء والأجيال وتوجيههم نحو العلوم النافعة لهم ولمجتمعهم، ليكونوا امتداداً لحياة آبائهم الخيرة.

وما دمنا بصدد الحديث عن الأعمال الخيرة التي يستمر ثوابها بعد موت الإنسان، فحري أن نشير إلى فضائل الصدقة الجارية وثوابها، ومنها:

* أنها تطفئ غضب الله تعالى، كما ورد في الحديث الشريف: "صَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ ".[1]

* كما أنها تمحو الخطيئة، "... وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ ...".[2]

1. المعجم الصغير للطبراني، ج2، ص205، وصححه الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم 37-59.

2. سنن الترمذي، كتاب الجمعة عن رسول الله، باب ما ذكر في فضل الصلاة، وقال الألباني: صحيح.

* والمتصدق يكون في ظل صدقته يوم القيامة كما ورد في الحديث الشريف، " كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّى يُفْصَلَ بَيْنَ النَّاسِ".[1]

* والصدقة دواء للأمراض القلبية والجسمية.

* كما أن الصدقة يدفع الله بها البلاء.

* كما يبارك الله تعالى في المال الذي تخرج منه الصدقة، يقول الرسول ﷺ: "... مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ ...".[2]

* إن الباقي لصاحب المال من ماله، هو ما تصدق به، فالله تعالى يقول: {وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ }[3]، وعَنْ مُطَرِّفٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: "أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، وَهُوَ يَقْرَأُ:{أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ} قَالَ: يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مَالِي، قَالَ: وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ".[4]

فاحرصوا إخوة الإيمان على تخليد ذكركم واستمرار ثوابكم بعد موتكم بالإقبال على إنشاء الصدقات الجارية في حياتكم، لتكون عوناً لكم على آخرتكم، وأقْبِلوا على العلم النافع تعلماً وبحثاً وتأليفاً لينتفع به من بعدكم.

وربوا أبناءكم تربية صالحة نافعة، ليكونوا خير عون لكم ولمجتمعهم في حياتكم وبعد موتكم، عملاً بحديث رسولنا وأسوتنا محمد، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

---

1. مسند أحمد، مسند الشاميين، حديث عقبة بن عامر الجهني عن النبي ﷺ، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح.
2. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع.
3. البقرة: 272.
4. صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق.

في نبوءة عظيمة تخترق حجب الزمان، وتتجاوز حدود المكان، يخبرنا رسول الله ﷺ عن مسيرة هذا الدين، الذي بدأ غريباً، وسيعود في مراحل أخرى غريباً كما بدأ، حيث يدعو رسول الله ﷺ بالخير للغرباء الذين يتمسكون بهذا الدين، رغم ضيق الزمان والمكان، ورغم أنواع الفتن والبلاء والابتلاء التي تحل بهم جراء تمسكهم بهذا الدين، ودفاعهم عنه، وانتصارهم له.

فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: بَدَأَ الإِسْلاَمُ غَرِيباً، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيباً، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ".([1])

فمن هم هؤلاء الغرباء الذين دعا لهم رسول الله ﷺ بالخير والجنة والغبطة والفرح والسرور والكرامة؟ إنهم أهل الاستقامة، حين فساد الناس، المتمسكون بدينهم وعقيدتهم وإسلامهم وأخلاقهم وعباداتهم، الذين يحملون هذا الدين باعتزاز وعزيمة، يصبرون على ما أصابهم من البلاء، وما ينزل بهم من المحن، غير مبالين بكل متاع الدنيا الزائل وغرورها الباطل.

إنهم الذين قال الله فيهم وفي أمثالهم: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ}.([2])

فالناظر إلى بداية الدعوة لهذا الدين يجدها ابتدأت غريبة عن مجتمع كانت تسوده الجاهلية والانحراف في العقائد، وراح هذا المجتمع ينكر على أتباع هذا الدين انتسابهم له، ويناصبهم

---

1. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً.

2. فصلت: 30-32.

العداوة، ويلحق بهم الأذى، ويراهم غرباء في هذا المجتمع، الذي ألف عبادة الأصنام والأوثان، ووأد البنات، وسيادة شيخ القبيلة.

إلا أن هؤلاء الغرباء قد قويت شوكتهم، وازداد عددهم، وأسسوا دولتهم في المدينة المنورة بعد الهجرة إليها، وعادوا إلى مكة المكرمة فاتحين، منتصرين، معلنين سيادة هذا الدين الذي أيده الله بنصره وبالمؤمنين، {وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }.([1])

وهكذا تحولت غربة هذا الدين وغربة أتباعه إلى مبدأ ألفه الناس واعتنقوه، وأنسوا به، واتبعوا الرسول الذي جاء به داعياً إلى الله بشيراً ونذيراً.

وهو النور الذي ارتضاه الله لعباده، {... قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ* يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} ([2])، وهكذا سادت الأمة، وكان لها قصب السبق على سائر الأمم، لا بل ساهمت الأمة الإسلامية إسهاماً كبيراً في نهضة الأمم الأخرى، التي تلقفت العلوم والفنون التي برعت فيها الأمة الإسلامية، واستفادت منها في تقدمها وتطورها، فوصل التقدم العلمي لدى بعض الأمم إلى ما وصل إليه بفضل أمتنا التي برعت في هذه العلوم، ونقلتها إلى الأمم الأخرى في أوج قوة الإسلام وعزة أمته.

ولكنها سنة الله تعالى فيما يعتري الأمم من فترات القوة والضعف، وأن الإسلام يعرض له ما يعرض لكل الدعوات والرسالات من قوة الأتباع وضعفهم، وحالات الامتداد والانكماش والازدهار والذبول، وفق السنن الإلهية، التي لا تتغير ولا تتبدل، فما جرى على الأمم السابقة، سيجري على أمة الإسلام جراء خلل في تعامل الأمة مع أحكام دينها، وتراجعها عن أسباب القوة التي تمكن لها ولدينها.

---

1. الأنفال:63.

2. المائدة: 15-16.

وإن من رحمة الله بهذه الأمة، وبهذه الرسالة الخاتمة أنه مهما اعتراها من الضعف أو التراجع عن مصاف الأمم القوية، إلا أن الله تعالى يهيئ لها من أسباب النهوض ما يعينها على النهضة والعودة إلى طريق القوة، والنهوض بها إلى المكانة اللائقة بها.

والحديث الذي نحن بصدده يخبر عن فترة ضعف يمر بها المسلمون، وينبئ عن دورة من التراجع، إلا أنه في الوقت نفسه يبشر الغرباء بالنصر والتمكين، وأن الإسلام الذي بدأ غريباً في مكة، سيعود غريباً في فترة من الفترات، إلا أن الغرباء هم المتمسكون بدينهم، رغم كل وسائل البطش والملاحقة، لدرجة وصف هذا الدين زوراً وبهتاناً بالإرهاب، سيعودون إلى واجهة الأحداث، وسيقوى هذا الدين باجتماع الأمة على تعاليمه وهديه، لينتصر، وينتشر، ويكون رحمة للعالمين جميعاً، كما أراده الله خيراً للبشرية وسعادتها، فهنيئاً لمن نجح من المسلمين في امتحان الابتلاء، واجتاز الفتن، {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ}[1]، {الم* أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ* وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ}.[2]

فالإسلام والمسلمون اليوم يمرون في هذا الامتحان الصعب، وقد تكالبت عليهم الأمم، وملك أعداؤهم ناصية القوة المادية والتفوق العددي والعسكري والاقتصادي، وراحوا يشنون على بلاد المسلمين أعتى الحملات العسكرية، ويتحكمون في ثرواتهم ومقدراتهم، ويطاردون دعاة الخير، ويصفونهم بأبشع الأوصاف المنفرة؛ كالإرهاب والتخلف والرجعية، وغير ذلك من المصطلحات التي لازمت حربهم الثقافية والإعلامية ضد الإسلام وأهله.

ومع كل هذه الظروف الصعبة التي يتعرض فيها المسلمون لأقسى أنواع البلاء والابتلاء، إلا أن المسلم يجب عليه أن يبقى واثقاً من نصر الله وتأييده، فهو القائل: {وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}.[3]

---

1. محمد: 31.
2. العنكبوت: 1-3.
3. آل عمران: 139.

ويقول تعالى بحق أهل الباطل: {لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ* مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ}.[1]

فغربة هذا الدين، وغربة أهله الذين حملوه عقيدة وشريعة ونظام حياة لن تطول، بل سيأتي الله بنصره، وسينشر فضله ورحمته على الغرباء، وسيُمَكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً، فالحديث يحمل بشارات الخير للأمة، ويدعوها للابتعاد عن اليأس والقنوط، لا بل يدعوها للعمل والمزيد من التمسك بأهداب هذا الدين الذي سيظهره الله ولو كره الكافرون، وصدق الله العظيم {يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ }[2]، {وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ }.[3]

ورضي الله عن صحابة رسول الله الكريم الذين عاشوا الغربة باتباعهم لهذا الدين، فنصرهم الله وأيدهم، ومكن لهم وزكاهم، فكانوا خير هذه الأمة، {رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ}.[4] وجعلنا من الغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس، وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأسوة، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. آل عمران: 196-197.
2. الصف: 8.
3. يوسف: 21.
4. المائدة: 119.

لما قضى الله تعالى وفق علمه وحكمته أن تكون عدة شهور العام اثني عشر شهراً، فقد جعل منها أربعة حرماً، فقال تعالى: {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ}.[1]

وقد نهى الله تعالى عن استحلال هذه الأشهر، حيث لها حرمتها وفضلها، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ}[2]، قال ابن كثير: "شعائر الله: محارمه"، أي لا تحلوا محارم الله التي حرمها الله تعالى.

وقد عينت السنة النبوية الشريفة هذه الأشهر فيما أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي بكرة أن النَّبِيِّ ﷺ خطب في حجة الوداع، فقال في خطبته: "الزَّمَانُ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ، ذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحِجَّةِ، وَالْمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ مُضَرَ؛ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ ".[3]

فقد بين القرآن الكريم أن السنة القمرية التي يعتد بها شرعاً مقسمة إلى اثني عشر شهراً، اختص الله من بينها أربعة أشهر جعلها حراماً، بينها النبي ﷺ بسنته القولية في خطبة الوداع، وقد كانت هذه الخطبة في يوم النحر، وعلى مسامع حجيج المسلمين الذين خرجوا مع النبي ﷺ في أداء هذا النسك العظيم من أركان هذا الدين الحنيف.

وقد كان العرب في جاهليتهم يعرفون شيئاً من بقايا الدين الذي كان عليه إبراهيم عليه السلام، من ذلك حج بيت الله الحرام، وتعظيم حرمة الأشهر الحرم الأربعة، فقد كانوا يعظمونها، ويعير بعضهم بعضاً إذا انتهكت حرمتها، فقد كانوا يعظمون شهر رجب بالذبح والصيام، وكذلك

1. التوبة: 36.
2. المائدة: 2.
3. صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في سبع أرضين.

بقية الأشهر الحرم بالتوقف عن القتال فيها، غير أن أهل الجاهلية كانوا يسيرون على أهوائهم، فتارة يحلون ما حرم الله، وتارة يحرمون ما أحل الله، وثالثة يبدلون الشرائع والأحكام وفق أهوائهم، فقد كانوا يبدلون بعض الأشهر الحرم بغيرها من الشهور، فيحرمونها مكانها، ويحلون ما أرادوا تحليله من هذه الأشهر.

وقد شنع الإسلام عليهم هذه الحيلة وأبطلها، وجعلها زيادة في الكفر، فقال تعالى: {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلِّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِّيُوَاطِؤُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ اللّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ }.([1])

فقد اعتبر الإسلام تبديل الشرائع - بالتحليل والتحريم - نوعاً من أنواع الكفر الذي ارتكبته الجاهلية، وحذر المسلمين من ذلك بقوله: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ}.([2])

وقد عظمت شريعتنا الإسلامية الأشهر الحرم، واعتبرت ذلك من شرع الله المستقيم، ونهت المسلمين عن ظلم أنفسهم فيها وفي غيرها، قال ابن عباس، رضي الله عنهما، في معنى قوله تعالى: {فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ} في الشهور كلها، ثم اختص من ذلك أربعة أشهر، فجعلهن حراماً، وعظم حرماتهن، وجعل الذنب فيهن أعظم، والعمل الصالح والأجر أعظم".

قال قتادة: إن الظّلم في الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزراً من الظلم فيما سواها. وإن كان الظلم على كل حال عظيماً، ولكن الله يعظّم من أمره ما يشاء، وقال: إن الله اصطفى صفايا من خلقه؛ اصطفى من الملائكة رسلاً، ومن الناس رسلاً، واصطفى من الكلام ذكره، واصطفى من الأرض المساجد، واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم، واصطفى من الأيام يوم الجمعة، واصطفى من الليالي ليلة القدر، فعظموا ما عظّم الله، فإنما تُعَظّم الأمور بما عظمها الله به عند أهل الفهم وأهل العقل.

---

1. التوبة: 37.

2. المائدة: 2.

وقال ابن كثير: {فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ} أي في هذه الأشهر المحرمة، لأنها آكد وأبلغ في الإثم من غيرها، كما أن المعاصي في البلد الحرام تضاعف، لقوله تعالى: {وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}[1]، وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام، ولهذا تغلظ الدية في مذهب الإمام الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء، وقد بقيت الأشهر الحرم معظمة مكرمة في الإسلام، ينبغي للمسلم أن يتقرب فيها إلى الله تعالى بما استطاع من صيام النوافل وأعمال الخير، وأن يبتعد عما حرم الله تعالى، عملاً بقوله تعالى: {فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ}.

وأما النهي عن القتال في الأشهر الحرم، فذهب جمهور العلماء إلى أنه منسوخ بقول الله تعالى: {وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}[2]، {وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ}.[3]

وقد اختص الله تعالى هذه الأشهر الحرم بالفضائل والبركات، فشهر ذو القعدة هو من أشهر الحج، قال تعالى: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ}[4]، قال ابن عمر: "هي شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة".

ومن فضائل هذا الشهر أن النبي ﷺ أدى فيه عمراته الأربع، وفي هذا ما فيه من فضل الأوقات وأهميتها وبركتها، فأولى الأزمنة بالعمرة هي أشهر الحج.

وأما شهر ذو الحجة؛ فقد أقسم الله تعالى بأيامه ولياليه العشر الأولى، فقال تعالى: {وَالْفَجْرِ* وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ}[5]، فالعبادة، وذكر الله، وتلاوة القرآن في هذه الأيام لها من الثواب الجزيل والأجر الكبير عند الله تعالى ما لها.

---

1. الحج: 25.
2. التوبة: 36.
3. البقرة: 191.
4. البقرة: 197.
5. الفجر: 1-3.

يقول الرسول ﷺ: "مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الأَيَّامِ الْعَشْرِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ وَلا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَلا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ".(1)

ومن الأيام العشر من ذي الحجة يوم عرفة، وهو يوم الحج الأكبر، يباهي الله ملائكته بالحجيج وقد وقفوا على صعيد عرفات الطاهر، يدعونه ويستغفرونه، فينعم عليهم بالمغفرة والعتق من النار، وهذا يحزن الشيطان اللعين ويغيظه.

ويوم النحر؛ وهو العاشر من ذي الحجة، يوم عيد المسلمين، ونحر الأضاحي قربة إلى الله تعالى، وكذلك أيام التشريق هي أيام رمي الجمار في الحج، وهي كذلك أيام نحر الأضاحي، أما شهر المحرم، فهو خير ما يصام بعد شهر رمضان، فقد سئل الرسول ﷺ: "أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ شَهْرُ اللَّهِ الْمُحَرَّمُ، وَأَفْضَلُ الصَّلاةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ صَلاةُ اللَّيْلِ".(2)

كما حث النبي ﷺ على صيام يوم عاشوراء من شهر المحرم، وهو اليوم الذي نجى الله فيه موسى، عليه السلام، من فرعون وقومه، وأما شهر رجب؛ فينبغي أن تعظم حرمته، وأن يكثر المسلم فيه من العمل الصالح، ويتجنب فيه الآثام كغيره من الأشهر الحرم وأيام السنة، ولا يختص هذا الشهر بشيء من الذبائح كالعتيرة كما كانت تفعل الجاهلية.

ومن الوقائع الهامة في شهر رجب معجزة الإسراء والمعراج بنبينا، عليه الصلاة والسلام.

هذه هي الأشهر الحرم عظمها الله تعالى، وحافظ الإسلام على حرمتها وفضلها، وعينها رسول الله ﷺ كهيئتها يوم خلق الله السماوات والأرض، فلنقبل إخوة الإيمان - ونحن نعيش أيام شهر رجب الحرام - على الطاعة وعمل الخير، عسى أن نفوز برضوان الله ومغفرته، ونحن نتعرض لنفحات الله في هذه الأيام المباركة من شهر رجب الحرام.

وصلى الله وسلم وبارك على حبيبنا وأسوتنا محمد، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم، واتبع سنتهم إلى يوم الدين.

---

1. سنن الترمذي، كتاب الصوم عن رسول الله، باب ما جاء في العمل في أيام العشر، وصححه الألباني.
2. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب فضل صوم المحرم.

عن أبي بَكْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: "إِنَّ الزَّمَانَ قد اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يوم خَلَقَ الله السماوات وَالْأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، منها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ؛ ثَلاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ؛ ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ مُضَرَ الذي بين جُمَادَى وَشَعْبَانَ".(1).

ينبثق هذا الحديث الشريف من فحوى الآية القرآنية التي حددت عدة العام من الشهور، فقال تعالى: {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ...}.(2).

والرسول ﷺ يحدد للعام مكوناته الشهرية عدداً وأسماء وترتيباً، فهو يتكون من اثني عشر شهراً، أسماؤها محددة ومرتبة في تسلسل ثابت، وقد تضمن الحديث المشار إليه أعلاه ذكر ستة منها، وهي: ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ وَرَجَبُ وجُمَادَى وَشَعْبَانَ.

فالعام وحدة زمنية، لها مكوناتها ودلالاتها، والله تعالى يقول: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً}(3)، ومعلوم أن مقادير أعوام الدنيا تختلف عن مقاديرها عند الله، فيقول سبحانه: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ}.(4).

1. صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في سبع أرضين.
2. التوبة: 36.
3. الإسراء: 12.
4. الحج: 47.

ومع بدايات الأعوام الجديدة يقف المرء متأملاً بحركة الزمان، وتقلب الأحوال فيها، فالعام يأتي إثر العام، وتدور عجلة الأيام، فتشهد للمحسن بالإحسان، وللمسيء بالشر والخسران.

والعام ثابت في عدد المكونات، ومتقلب في الأحداث والمجريات والبركات، فما حدث في عام يمكن أن يثبت في الأعوام الآتية أو يتغير.

وقد تعارف الناس على تحديد مقادير الأعوام بناء على معايير شمسية، وأخرى قمرية، والله تعالى يقول: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}.[1]

ومعلوم أن الأعوام الإسلامية تعتمد الأهلة القمرية لبدايات الشهور ونهاياتها، والعام وحدة زمنية تتكون من شهور، وأسابيع وأيام، وليل ونهار، وساعات ودقائق وثوان، فالجزء الأصغر من العام ثانية، والأكبر منه تمام اثني عشر شهراً، منها أربعة حرم، هي: "محرم ورجب وذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ".

والترتيب المحدد لمواقع شهور السنة لا يخضع للاجتهاد، ولا يقبل التعديل أو التبديل، وقد أنكر الله تعالى على الذين كانوا يتلاعبون في هذا الترتيب، حيث كانوا يقدمون فيها ويؤخرون حسب أهوائهم، فإذا أرادوا حرباً في الحرم أخروا مواقعها، والله تعالى أطلق على هذا الصنيع وصف النَّسِيءُ، واعتبره من أفعال الكفر والضلال، فقال سبحانه: {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلِّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِّيُوَاطِؤُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ اللّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}.[2]

---

1. يونس: 5.
2. التوبة: 37.

ويؤكد الله تعالى النهي عن انتهاك حرمة الأشهر الحرم، فيقول سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ ...}.[1]

ومن خصائص الزمان أن له ثوابت وفيه متغيرات، وهو دليل لكثير من القضايا والأمور ذات الشأن والمقدار، فبه تقاس المقادير العددية للأعمار، فيعرف المرء كم انقضى من عمره بحساب المدة الزمنية التي عاشها منذ ولادته حتى لحظة التقدير والحساب، والله تعالى يقول: {قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ}.[2]

وبالزمان الدنيوي تعرف مواقيت الصلاة والصيام والحج، وكثير من تفاصيل العبادات ذات علاقة بالتحديد الزمني بداية وانتهاء، ففي الصلاة يقول سبحانه: {أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً}.[3]

والصوم مقدر بفترة زمنية، فهو شهر وأسابيع وأيام، يقول سبحانه: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ...}.[4]

وصوم النهار له توقيت زمني، من حيث البداية والنهاية، ويسمح فيه بالليل ببعض الممنوعات في النهار، يقول سبحانه: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ ...وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ...}.[5]

---

1. المائدة: 2.
2. الشعراء: 18.
3. الإسراء: 78.
4. البقرة: 185.
5. البقرة: 187.

والحج كذلك مقدر بفترة زمنية من العام، فالله تعالى حدد له أشهراً معلومات، يقول سبحانه: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ ...}.[1]

ولا ينحصر التحديد الزمني بالعبادات، بل إن كثيراً من قضايا المعاملات مرتبطة بالتحديد الزمني، فعدة النساء من الوفاة محددة بالشهور والأيام، يقول تعالى: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}. [2]

وحكم الإيلاء مرتبط بالشهور، يقول تعالى: {لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَآؤُوا فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}[3]، وفي بعض أحوال الطلاق تحدد العدة بالشهور أيضاً، يقول تعالى: {وَاللائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ...}.[4]

فهذه عينة لارتباط العبادات والمعاملات بالزمان، وهو ثابت في جوانب، ولا يستقر على حال في جوانب أخرى، فيشهد الزمان تطورات كثيرة، ومنها تقاربه، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّهِ ﷺ: "يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ، وَيَنْقُصُ الْعَمَلُ، وَيُلْقَى الشُّحُّ، وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ، قالوا: وما الْهَرْجُ؟ قال: الْقَتْلُ الْقَتْلُ".[5]

يقول ابن حجر العسقلاني في فتح الباري: "إنه يقصد بتقارب الزمان تقارب أحوال أهله في قلة الدين، حتى لا يكون فيهم من يأمر بمعروف، ولا ينهى عن منكر، لغلبة الفسق وظهور أهله، قال ابن بطال: وجميع ما تضمنه هذا الحديث من الأشراط قد رأيناها

1. البقرة: 197.
2. البقرة: 234.
3. البقرة: 226.
4. الطلاق: 4.
5. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل.

عياناً، فقد نقص العلم، وظهر الجهل، وألقي الشح في القلوب، وعمت الفتن، وكثر القتل". ورد ابن حجر على قول ابن بطال، فقال: "الذي يظهر أن الذي شاهده كان منه الكثير مع وجود مقابله، والمراد من الحديث استحكام ذلك حتى لا يبقى مما يقابله إلا النادر، وإليه الإشارة بالتعبير بقبض العلم، فلا يبقى إلا الجهل الصرف، ولا يمنع من ذلك وجود طائفة من أهل العلم، لأنهم يكونون حينئذ مغمورين في أولئك". [1]

وورد في فتح الباري لابن حجر العسقلاني: أن قوله يقبض العلم يفسر المراد بقوله يرفع العلم، والقبض يفسره حديث أنه يقع بموت العلماء، ومن لازم ذلك أنه يظهر الجهل. [2]

ومما ذكره الرسول ﷺ عما يطرأ على الناس من تطورات بتقدم الزمان، أنهم يعانون من فلتان الأمن على أرواحهم وحياتهم، وتكون الاستهانة بإزهاق الأرواح، حيث يحدث فيهم قتل غير مبرر، فيقول الرسول ﷺ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لا يَدْرِي الْقَاتِلُ فِي أَيِّ شَيْءٍ قَتَلَ، وَلا يَدْرِي الْمَقْتُولُ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ قُتِلَ". [3]

وإلى لقاء آخر في الحلقة القادمة مع حديث الرسول الأسوة ﷺ عن الزمان وتقلب الأعوام، جعل الله أيامنا وأعمارنا في طاعته، وأعاذنا الله من فتن الزمان ما ظهر منها وما بطن، وصلى الله على رسولنا محمد، وعلى آله وصحبه وأزواجه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. فتح الباري، ج13، ص16.
2. فتح الباري، ج1، ص182.
3. صحيح مسلم، كِتَاب الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، باب لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل على القبر، فيتمرغ عليه، ويقول: يا ليتني كنت مكان صاحب هذا القبر.

تواصلاً مع ما تم التطرق إليه في الحلقة السابقة بشأن حديث الرسول ﷺ عن الزمان وتقلب الأعوام، فقد جاءت أحاديث صحيحة تذكر علامات أخرى لآخر الزمان تسبق قيام الساعة، والتي يعقب ابن حجر العسقلاني على ذكرها، فيقول: وهذه المذكورات وأمثالها مما أخبر ﷺ بأنه سيقع بعده قبل أن تقوم الساعة، لكنه على أقسام؛ أحدها: ما وقع على وفق ما قال. والثاني: ما وقعت مباديه ولم يستحكم. والثالث: ما لم يقع منه شيء، ولكنه سيقع. [1]

وفي الحديث الصحيح عن أبي هُرَيْرَةَ قال: قال النبي ﷺ: "لا تَقُومُ السَّاعَةُ حتى يُقْبَضَ الْعِلْمُ، وَتَكْثُرَ الزَّلازِلُ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، وَتَظْهَرَ الْفِتَنُ، وَيَكْثُرَ الْهَرْجُ؛ وهو الْقَتْلُ الْقَتْلُ، حتى يَكْثُرَ فِيكُمْ الْمَالُ فَيَفِيضَ".[2]

وقد سبق في الحلقة السابقة الوقوف عند بعض العلامات المذكورة في هذا الحديث، وهي: تقارب الزمان، وقبض العلم، وكثرة القتل، ويتواصل هنا الوقوف عند معاني العلامات الأخرى التي وردت في الحديث المذكور أعلاه، وهي: كثرة الزلازل، وظهور الفتن، وكثرة المال بين أيدي المسلمين، فالمقصود بكثرة الزلازل شمولها ودوامها.[3]

والمقصود بظهور الفتن: ما يؤثر في أمر الدين[4]. أما بالنسبة إلى كثرة المال حتى يفيض، ففي فتح الباري؛ ويفيض المال، أي يكثر، وسبب كثرته نزول البركات، وتوالي الخيرات، بسبب

1. فتح الباري، ج13، ص83.
2. صحيح البخاري، كِتَاب الجمعة، بَاب مَا قِيلَ فِي الزَّلازِلِ وَالآيَاتِ.
3. فتح الباري، ج13، ص87.
4. فتح الباري، ج13، ص18.

العدل وعدم الظلم، وحينئذ تخرج الأرض كنوزها، وتقل الرغبات في اقتناء المال، لعلمهم بقرب الساعة. [1]

وورد في أحاديث صحيحة أخرى تفصيل لمسألة إفاضة المال، فعن أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّهِ ﷺ: "...وَحَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمْ الْمَالُ، فَيَفِيضَ حتى يُهِمَّ رَبَّ الْمَالِ من يَقْبَلُ صَدَقَتَهُ، وَحَتَّى يَعْرِضَهُ، فَيَقُولَ الذي يَعْرِضُهُ عليه: لا أَرَبَ لي بِهِ..." [2]. وعنه في رواية أخرى: "... وَيَفِيضَ الْمَالُ حتى لا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ، حتى تَكُونَ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ خَيْرًا من الدُّنْيَا وما فيها". [3]

أي إنهم حينئذ لا يتقربون إلى الله إلا بالعبادة، لا بالتصدق بالمال. وقيل معناه: أن الناس يرغبون عن الدنيا، حتى تكون السجدة الواحدة أحب إليهم من الدنيا وما فيها.[4]

ومن علامات آخر الزمان؛ ظهور أقوام يتحدثون بالإسلام، وهم يمرقون منه، فعن عَلِيٌّ، رضي الله عنه، قال: "سمعت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يقول: "يَأْتِي في آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ حُدَثَاءُ الأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الأَحْلامِ، يَقُولُونَ من خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ، يَمْرُقُونَ من الإِسْلامِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ من الرَّمِيَّةِ، لا يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فإن في قَتْلَهُمْ أجراً لِمَنْ قَتَلَهُمْ يوم الْقِيَامَةِ". [5]

وحدثاء الأسنان؛ أي صغارها، وسفهاء الأحلام؛ أي ضعفاء العقول. وقوله "يقولون من قول خير البرية" أي من القرآن.[6]

وفي عمدة القارئ للعيني: يقولون من قول خير البرية: قيل صوابه قول خير البرية،

---

1. فتح الباري، ج6، ص492.
2. صحيح البخاري، كِتَاب الزكاة، باب الصدقة قبل الرد.
3. صحيح البخاري، كِتَاب أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ، بَاب نُزُولِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَا السَّلام.
4. فتح الباري، ج6، ص492.
5. صحيح البخاري، كِتَاب الْمَنَاقِبِ، باب علامات النبوة في الإسلام.
6. فتح الباري، ج6، ص619.

وأجيب بأنه من باب القلب، أو معناه خير من قول البرية، أي من كلام الله، وهو المناسب للترجمة، أو خير أقوال الخلق، أي قول رسول الله ﷺ. [1]

وقوله: "يمرقون": أي يخرجون. وقوله: "الرمية": بكسر الميم الخفيفة، أي الصيد المرمي.

وقوله: "حناجرهم"؛ جمع حنجرة. وقوله: "فاقتلوهم"، قال مالك: من قدر عليه منهم استتيب، فإن تاب وإلاَّ قتل.[2]

وفي فتح الباري عن النَّوَوِيُّ: الْمُرَادُ أَنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ فِيهِ - قول خير البرية - حَظٌّ إلا مُرُورَهُ عَلَى لِسَانِهِمْ، لا يَصِلُ إِلَى حُلُوقِهِمْ، فَضْلاً عَنْ أَنْ يَصِلَ إِلَى قُلُوبِهِمْ، لأَنَّ الْمَطْلُوبَ تَعَقُّلُهُ وَتَدَبُّرُهُ بِوُقُوعِهِ فِي الْقَلْبِ. وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ فِيهِمْ أَيْضًا "لا يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ " أَيْ يَنْطِقُونَ بِالشَّهَادَتَيْنِ وَلا يَعْرِفُونَهَا بِقُلُوبِهِمْ. [3]

ويذكر الرسول ﷺ وصف المارقين من الدين، خلال تعقيبه على حادثة وقعت من بعض رموزهم، فعن أَبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ، قال: بَعَثَ عَلِيُّ بن أبي طَالِبٍ إلى رسول اللَّهِ ﷺ من الْيَمَنِ بِذَهَبَةٍ في أَدِيمٍ مَقْرُوظٍ [4]، لم تُحَصَّلْ من تُرَابِهَا، قال: فَقَسَمَهَا بين أَرْبَعَةِ نَفَرٍ، بين عُيَيْنَةَ بن حِصْنٍ، وَالأَقْرَعِ بن حَابِسٍ، وَزَيْدِ الْخَيْلِ، وَالرَّابِعُ إِمَّا عَلْقَمَةُ ابن عُلاثَةَ، وَإِمَّا عَامِرُ بن الطُّفَيْلِ، فقال رَجُلٌ من أَصْحَابِهِ: كنا نَحْنُ أَحَقَّ بهذا من هَؤُلاءِ، قال: فَبَلَغَ ذلك النبي ﷺ، فقال: ألا تَأْمَنُونِي وأنا أَمِينُ من في السَّمَاءِ، يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً؟! قال: فَقَامَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ، مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ، نَاشِزُ الْجَبْهَةِ، كَثُّ اللِّحْيَةِ، مَحْلُوقُ الرَّأْسِ، مُشَمَّرُ الإِزَارِ، فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ اتَّقِ اللَّهَ، فقال: وَيْلَكَ؛ أو لست أَحَقَّ أَهْلِ الأرض أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ؟ قال: ثُمَّ وَلَّى الرَّجُلُ، فقال خَالِدُ بن الْوَلِيدِ: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ ألا

---

1. عمدة القاري، ج20، ص61.

2. عمدة القاري، ج20، ص61.

3. فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج12، ص293.

4. أديم مقروظ بِظَاءٍ مُعْجَمَةٍ مُشَالَةٍ أَيْ مَدْبُوغٍ بِالْقَرَظِ والقرظ شجرٌ عِظام لها سُوق غِلاظ أمثال شجر الجَوْز وورقه أصغر من ورق التفّاح.

أَضْرِبُ عُنُقَهُ؟ فقال: لا، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي، قال خَالِدٌ: وَكَمْ من مُصَلٍّ يقول بِلِسَانِهِ ما ليس في قَلْبِهِ، فقال رسول اللَّهِ ﷺ: إني لم أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عن قُلُوبِ الناس ولا أَشُقَّ بُطُونَهُمْ، قال: ثُمَّ نَظَرَ إليه وهو مُقَفٍّ، فقال: إنه يَخْرُجُ من ضِئْضِئِ[1] هذا قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ رَطْبًا لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ من الدِّينِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ من الرَّمِيَّةِ، قال: أَظُنُّهُ قال: لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ ثَمُودَ".[2]

والمراد بتلاوة كتاب الله رطباً: قِيلَ الْحِذْقُ فِي التِّلاوَةِ؛ أَيْ يَأْتُونَ بِهِ عَلَى أَحْسَنِ أَحْوَالِهِ، وَقِيلَ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ يُوَاظِبُونَ عَلَى تِلاوَتِهِ، فَلا تَزَالُ أَلْسِنَتُهُمْ رَطْبَةً بِهِ، وَقِيلَ هُوَ كِنَايَةٌ عَنْ حُسْنِ الصَّوْتِ بِهِ. [3]

وفي هذا السياق جاء في صحيح البخاري ذكر الدجالين الذين يظهرون في آخر الزمان، فعن أبي هُرَيْرَةَ، قال رسول اللَّهِ ﷺ: "يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ، يَأْتُونَكُمْ من الأَحَادِيثِ بِمَا لم تَسْمَعُوا أَنْتُمْ ولا آبَاؤُكُمْ، فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُمْ؛ لا يُضِلُّونَكُمْ ولا يفتنوكم".[4]

وعن عَامِرِ بن عَبَدَةَ، قال: قال عبد اللَّهِ: "إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَتَمَثَّلُ في صُورَةِ الرَّجُلِ، فَيَأْتِي الْقَوْمَ فَيُحَدِّثُهُمْ بِالْحَدِيثِ من الْكَذِبِ، فَيَتَفَرَّقُونَ، فيقول الرَّجُلُ منهم: سمعت رَجُلاً أَعْرِفُ وَجْهَهُ، ولا أَدْرِي ما اسْمُهُ يحدث".[5]

والدجالون جمع دجال، وكل كذاب فهو دجال، وقيل الدجال المموه؛ يقال دجل فلان؛ إذا موه، ودجل الحق بباطله إذا غطاه.[6]

---

1. ضِئْضِئِ: فَالْمُرَادُ بِهِ النَّسْلُ وَالْعَقِبُ.
2. صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم.
3. عمدة القاري، ج20، ص61.
4. صحيح مسلم، الْمُقَدِّمَةُ، باب النهي عن الرواية عن الضعفاء والاحتياط في تحملها.
5. صحيح مسلم، الْمُقَدِّمَةُ، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع.
6. شرح النووي على صحيح مسلم، ج1، ص79.

وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: "سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتُ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ، قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: الرَّجُلُ التَّافِهُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ". [1]

لفتات في ضوء ما ورد في هذه الحلقة من حديث عن الزمان وتقلب الأعوام والحوادث والأحوال فيه:

* إن أحداث الزمان متغيرة، وبعضها من دلائل قرب الساعة، وبعضها ظهر وانتشر عبر الزمان الماضي، وسيظهر جديدها في الزمان المستقبل، ويتواصل ظهور المزيد من تلك المتغيرات الزمانية إلى أن تقوم الساعة ويبعث الخلائق للحساب.

* إن الإشارة إلى بعض المتغيرات الزمانية لا تعني الاستسلام لها، مثل قبض العلم وظهور الفتن وكثرة القتل، وإنما هي تأكيدات إيمانية على أن ما يحدث عبر الزمان إنما هو معلوم عند الله، وهو قدر واقع لا محالة، والكيس الفطن يزداد بهذه الأخبار إيماناً، ويربأ بنفسه أن يكون فاعلاً للشر أو مناصراً له.

* إن الأخبار عن أحداث الزمان الماضية والحاضرة والمستقبلية تدفع المؤمن لأخذ الحذر من الشر، والتسلح بالخير والإيمان للتحرز عن الوقوع في وحل الشر، فهذه الأخبار تشبه مصل الدواء الذي يعطى للناس للوقاية من بعض الأمراض الوبائية.

وإلى لقاء آخر في الحلقة القادمة مع حديث الرسول الأسوة ﷺ عن الزمان وتقلب الأعوام.

جعل الله أيامنا وأعمارنا في طاعته، وأعاذنا الله من فتن الزمان ما ظهر منها وما بطن، وصلى الله على رسولنا محمد، وعلى آله وصحبه وأزواجه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، وصححه الألباني.

الرسول الأسوة محمد ﷺ يحدث عن الزمان وتقلب الأعوام (ح3)

عن أبي هُرَيْرَةَ، عن النبي ﷺ، قال: "لا تَقُومُ السَّاعَةُ حتى يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ؛ فيقول يا لَيْتَنِي مَكَانَهُ".([1])

فهذه الحلقة الثالثة الخاصة بحديث الرسول ﷺ عن الزمان وتقلب الأعوام، والحديث المذكور أعلاه من الأحاديث الصحيحة التي ذكرت بعض علامات آخر الزمان، مما يسبق قيام الساعة، ومن ذلك أن الناس يصابون بحالة يفضلون فيها الموت على الحياة، فقد أورد البخاري الحديث المذكور أعلاه في صحيحه تحت باب: "لا تَقُومُ السَّاعَةُ حتى يُغْبَطَ أَهْلُ الْقُبُورِ".

أورد ابن حجر العسقلاني في فتح الباري، قول ابن بطال في المراد بغبط أهل القبور؛ أنه تمني الموت عند ظهور الفتن، ويكون ذلك خوفاً من ذهاب الدين، بغلبة الباطل وأهله، وظهور المعاصي والمنكر.([2])

فالمؤمن بشفافيته وحسه الإيماني المرهف يحذر من الانزلاق في مراتع الباطل، وبراثن المعاصي، فإذا وجد في زمان عمت فيه المعاصي وطغت عليه، فإنه قد يصل حالة يتمنى فيها لو كان مدفوناً في مقابر الأرض، على أن يكون سناً في دولاب المعاصي والآثام.

وعقب ابن حجر على هذا التمني مبيناً أن معناه ليس عامّاً في حق كل أحد، وإنما هو خاص بأهل الخير، وأما غيرهم فقد يكون تمني الموت من قبلهم لما يقع لأحدهم من المصيبة في نفسه أو أهله أو دنياه، وإن لم يكن في ذلك شيء يتعلق بدينه.([3])

ويؤيد تعقيب العلامة ابن حجر العسقلاني ما نسمعه اليوم، وما نشاهد بعضه في هذا الزمان؛ حيث الإقدام على الانتحار أو محاولته، أو تمني الموت من المتأففين، الذين يضجرون مما

1. صحيح البخاري، كِتَاب الْفِتَنِ، بَاب لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُغْبَطَ أَهْلُ الْقُبُورِ.
2. فتح الباري، ج13، ص75.
3. المرجع السابق.

يحل بهم من أمور يكرهونها، وفي الحديث الصحيح عن أبي هُرَيْرَةَ قال: قال رسول اللَّهِ ﷺ: "وَالَّذِي نَفْسِي بيده؛ لا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حتى يَمُرَّ الرَّجُلُ على الْقَبْرِ، فَيَتَمَرَّغُ عليه، وَيَقُولُ: يا لَيْتَنِي كنت مَكَانَ صَاحِبِ هذا الْقَبْرِ، وَلَيْسَ بِهِ الدِّينُ إلا الْبَلاءُ".([1])

وورد في مرقاة المفاتيح أن معنى لا تذهب الدنيا؛ أي لا تفرغ، ولا تنقضي. ومعنى يتمرغ عليه؛ أي يتلقب الرجل فوق القبر، وقيل يتمسك على رأس القبر، ويتقلب في التراب، وليس التمرغ من عادته، وإنما حمله عليه البلاء، فالحامل له على التمني، ليس الدين، بل البلاء، وكثرة المحن والفتن وسائر الضراء، أي ليس ذلك التمرغ والتمني لأمر أصابه من جهة الدين، لكن من جهة الدنيا، فيفيد البلاء المطلق بالدنيا، بواسطة القرينة السابقة.([2])

وذكر الرجل في حديث غبطة أهل القبور هو للغالب، حيث إن تمني الموت قد يقع من الرجل والمرأة، سواء بسبب انتشار الباطل والمعاصي، أم بسبب المحن والشدائد والمصائب والمشاكل التي تقع بالناس، فيتمنى المرء منهم الموت على اعتبار أنه أهون الضررين في اعتقاده، مع الإشارة إلى أن بعض الناس يلجأون إلى مثل هذا التمني لأسباب مرضية نفسية.

ولا بد من التأكيد هنا على أن ذكر غبطة أهل القبور في الحديث الصحيح لا ينافي منع تمني الموت، الوارد في الحديث الصحيح الآخر، فعن أَنَسِ بن مَالِكٍ، رضي الله عنه، قال النبي ﷺ: "لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لِضرٍّ نَزَلَ بِهِ، فَإِنْ كَانَ لا بُدَّ مُتَمَنِّيًا، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي".([3])

وعن أَبي هُرَيْرَةَ، قال: سمعت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يقول: "لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، قالوا: ولا أنت يا رَسُولَ اللَّهِ، قال: لا، ولا أنا، إلا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي الله بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ، فَسَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، ولا يَتَمَنَّيَنَّ أحدكم الْمَوْتَ؛ إِمَّا مُحْسِنًا؛ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ خَيْرًا، وأما مُسِيئًا؛ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ".([4])

---

1. صحيح مسلم، كِتَاب الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول يا ليتني مكانه.
2. مرقاة المفاتيح، شرح مشكاة المصابيح، تأليف: علي بن سلطان محمد القاري، ج10، ص80-81.
3. صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب كراهية تمني الموت لضر نزل به.
4. صحيح البخاري، كِتَاب المرض، باب تمني المريض الموت.

فالإخبار عما سيحدث من تمني بعض الناس الموت قبل قيام الساعة، سواء لسبب يتعلق بالدين، أم لسبب يتعلق بدنيا المتمني وحالته وظروفه، لا يتعارض هذا الإخبار مع النهي عن تمني الموت، فحديث غبطة أهل القبور يخبر عن أمر سيقع قبل قيام الساعة، دون التطرق المباشر إلى حكمه الشرعي، وحديث النهي عن تمني الموت يبين حكماً شرعياً، ومع ذلك فإن بعض العلماء استنتجوا من الحديث الوارد في صحيح مسلم، الذي سبق ذكره، إمكانية أخذ الحكم من الإشارة في قوله: "...وليس به الدين، إنما هو البلاء" فإنه سيق مساق الذم والإنكار.[1]

ومع ذكر الرسول ﷺ غبطة أهل القبور، ضمن تطورات سلبية تحدث للناس وفيهم، عبر الزمان قبل قيام الساعة، فإنه ﷺ يبشر المسلمين بأمور ستحدث قبل قيام الساعة، تحمل لهم في ثناياها دلالات العز والتمكين، الذي سيحل بهم، مما يدفعهم إلى التفاؤل بالخير، والأمل بتغير الأحوال التي لا تدوم على حال، فعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عن رسول اللَّهِ ﷺ، قال: "لا تَقُومُ السَّاعَةُ حتى تُقَاتِلُوا الْيَهُودَ، حتى يَقُولَ الْحَجَرُ وَرَاءَهُ الْيَهُودِيُّ: يا مُسْلِمُ؛ هذا يَهُودِيٌّ وَرَائِي، فَاقْتُلْهُ".[2]

ويطمئن الرسول ﷺ المسلمين إلى أن دينهم باق بقاء السماوات والأرض، حتى يأتي أمر الله بخلاف ذلك، فعن مُعَاوِيَةَ بن أبي سُفْيَانَ، قال: سمعت النبي ﷺ، يقول: "...وَلَنْ يَزَالَ أَمْرُ هذه الأُمَّةِ مُسْتَقِيمًا حتى تَقُومَ السَّاعَةُ، أو حتى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ".[3]

وفي رواية أخرى عنه: "...وَلَنْ تَزَالَ هذه الأُمَّةُ قَائِمَةً على أَمْرِ اللَّهِ، لا يَضُرُّهُمْ من خَالَفَهُمْ، حتى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ".[4]

وفي رواية أخرى عنه: "...ولا تَزَالُ هذه الأُمَّةُ ظَاهِرِينَ على من خَالَفَهُمْ، حتى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ، وَهُمْ ظَاهِرُونَ".[5]

---

1. فتح الباري، ج13، ص75.
2. صحيح البخاري، كِتَاب الْجِهَادِ وَالسِّيَرِ، باب قتال اليهود.
3. صحيح البخاري، كِتَاب الاعْتِصَامِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، باب لا يزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون.
4. صحيح البخاري، كِتَاب الْعِلْمِ، بَاب مَنْ يُرِدْ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ.
5. صحيح البخاري، كِتَاب فَرْضِ الْخُمُسِ، باب قول الله تعالى {فإن لله خمسه وللرسول}.

فكل هذه الروايات الصحيحة عن رسول الله ﷺ تؤكد على أن الإسلام لن يزول من الوجود، ولن يندثر من الزمان، مهما عظم الكيد والمكر ضده، وهذه الطمأنة تفيد في تعزيز حالة الاستقرار النفسي والإيماني عند المسلمين، وهم يواجهون تكالب أمم الدنيا عليهم.

وإن الحديث عن أخبار الساعة وعلاماتها، وما يقع من حوادث وتطورات قبلها، ليس من قبيل تتبع موعدها المحدد؛ فذلك مما اختص الله بعلمه، فعن سَالِمِ بن عبد اللَّهِ عن أبيه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قال: "مَفَاتِحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ؛ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَيُنْزِلُ الْغَيْثَ، وَيَعْلَمُ ما في الأَرْحَام، وما تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا، وما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ".([1])

ولما سأل جبريل، عليه السلام، الرسول ﷺ عن الساعة، لم يجب، غير أنه أخبر عن علاماتها، فالرسول ﷺ يعلم علامات الساعة، ويحدث عنها، لكنه لم يعلم موعدها، ولم يخبر أحداً بتحديد وقت القيامة، ففي الحديث الصحيح ما يؤكد هذه الحقيقة الإيمانية، وفيه أن جبريل، عليه السلام، "سأل رَسُولَ اللَّهِ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ؟ قال: ما الْمَسْئُولُ عنها بِأَعْلَمَ من السَّائِلِ، وَسَأُحَدِّثُكَ عن أَشْرَاطِهَا؛ إذا رَأَيْتَ الْمَرْأَةَ تَلِدُ رَبَّهَا فَذَاكَ من أَشْرَاطِهَا، وإذا رَأَيْتَ الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الصُّمَّ الْبُكْمَ مُلُوكَ الأرض فَذَاكَ من أَشْرَاطِهَا، وإذا رَأَيْتَ رِعَاءَ الْبَهْمِ يَتَطَاوَلُونَ في الْبُنْيَانِ فَذَاكَ من أَشْرَاطِهَا".([2])

هدانا الله لما ينفعنا عند لقاء ربنا، وحفظنا ودیننا وأمتنا ووطننا من الفتن ما ظهر منها وما بطن، وصلى الله وسلم على رسولنا الأسوة محمد، وعلى آله وصحبه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح البخاري، كِتَاب تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ (سُورَةُ الأَنْعَامِ)، بَاب وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلا هُو.
2. صحيح مسلم، كِتَاب الْإِيمَانِ، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان.

الفصل الثاني

ذكرى مولدالرسول ﷺ وهجرته

.14	في ذكرى مولده ﷺ	64
.15	يولد في خير البلاد ويبعث لخير الأمم	69
.16	المهاجر لله والعائد إلى الوطن	73

مما لا ريب فيه أن ميلاد الرسول ﷺ يشكل انطلاقة حقيقية وعظيمة في مسيرة الإنسانية، ومقدمة رئيسة للبعثة النبوية، رغم أنه ولد مثلما يولد البشر، نتيجة زواج أبيه من أمه، وخرج للدنيا بمخاض طبيعي، ولم يكن الناس من حوله على علم بما سيحظى به من شرف النبوة، إلا أنه أحيط بعين الرعاية الإلهية، ولم يضع ولن يضيع، رغم أنه عايش اليتم طفلاً، وشب دون أب ولا أم، فمارس حياته في غيابهما، واشتغل في رعاية الغنم والتجارة، وتحلى بمكارم الأخلاق منذ نعومة أظفاره، وبقي على ذلك حتى جاءه ما يعزز استقامته وسويته، حين اختاره الله رسولاً، فأوحى إليه قرآنه الكريم، وجعله هادياً للصراط المستقيم، ومبشراً بجنة النعيم، ونذيراً من نار الجحيم.

وحين تمر بالمسلمين ذكرى مولده ﷺ يحسن بهم بدلاً من أن يختلفوا حول طريقة تذكرها أو مبدأ الاحتفاء بها، يحسن بهم أن يسارعوا إلى تجديد البيعة للرسول ﷺ على الحب والسمع والطاعة والولاء له في المنشط والمكره والعسر واليسر، عملاً بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}.[1]

ويقول سبحانه: {وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ}.[2]

1. النساء: 59.

2. المائدة: 92 .

والآيات القرآنية الكريمة التي تحث على طاعة الرسول ﷺ والولاء له أعلنت عن إفراده بالطاعة المطلقة، حيث قرن الله طاعته بطاعة الرسول في كثير منها، فقال تعالى: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً} [1]، وانطلاقاً من هذا الإعلان الرباني ورد في السنة النبوية الصحيحة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: "مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي" .(2).

وجعل الله طاعته ورسوله دليلاً ساطعاً على الإيمان، فقال تعالى: {وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}.[3]

وطاعة الرسول ﷺ من البراهين الدالة على صدق محبة المؤمن لله، فمن يزعم محبة الله، عليه أن يقدم دليل هذه المحبة بطاعة الرسول ﷺ، قال تعالى: {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}.[4]

وقد حدد الله منهج الأخذ عن الرسول ﷺ، فأمر بلزوم التقيد بما يأمر به، والكف عما ينهى عنه، فقال تعالى:{وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [5] وهذا اللزوم غير قابل للتخيير والانتقاء والمزاجية، وقد أقسم الله بذاته العلية، على نفي الإيمان عمن لم يرض بحكم الرسول ﷺ، ولو في خواص نفسه، فقال تعالى: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}.[6]

---

1. النساء: 80.
2. صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية.
3. الأنفال: 1.
4. آل عمران: 31.
5. الحشر: 7.
6. النساء: 65.

ولم يجعل الله للمؤمن مجالاً للتردد في تنفيذ ما يصدر عن الرسول ﷺ من مقتضيات الأمر أو النهي، ففي عبارات صريحة لا تقبل التأويل، يقول تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِيناً}. [1]

حتى إن الله تعالى نص بصريح اللفظ أيضاً على أن الرسول أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فقال تعالى: {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ. . . }. [2]

وحذر الله المؤمنين من إيثار متعلقات الدنيا، على حب الله ورسوله، حتى لو تعلقت تلك المتعلقات بأرفع جهات التعلق والصلة وأغلاها، كمحبة الوالد والولد والأهل والعشيرة والمساكن والتجارة والأموال، فقال تعالى: {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}. [3]

ومحبة الرسول ﷺ تجلب للمحب كثيراً من المنافع والخيرات، من ذلك أن الله يشمله برحمته ورعايته، يقول تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}. [4]

ومن أبرز منافع محبة الرسول ﷺ، أن الله تعالى وعد المحب المطيع بأن يحشر مع زمرة المنعم عليهم في الآخرة، من كرام الخلق، فقال تعالى: {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ

---

1. الأحزاب: 36.
2. الأحزاب: 6.
3. التوبة: 24.
4. التوبة: 71.

مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً}. [1]

ويؤكد الرسول ﷺ هذه الحقيقة حين أجاب سائله عن الجنة، "فعن أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: وَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟ ـفَلَمْ يَذْكُرْ كَبِيرًاـ قَالَ: وَلَكِنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، قَالَ: فَأَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ".[2]

فالمؤدى الأعظم لمحبة الرسول ﷺ يتمثل في نيل الفوز بجنة الخلد، مصداقاً لقوله تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}. [3]

وهذا الفوز الذي يترتب على طاعة الرسول مؤكد في كثير من النصوص الشرعية، التي منها قوله تعالى: {وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} [4]، وهو فوز عظيم، حيث يقول تعالى: {... مَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً}.[5]

ومن المؤكد أن محبة الرسول ﷺ المشمولة في مضامين الآيات القرآنية والأحاديث النبوية يراد منها تنفيذ مستلزماتها، من الإيمان والولاء والطاعة والاحترام، دون أن تكون محبة قاصرةً على مجرد هوى النفس وعشق الفؤاد، وقد فقه الصحابة والسلف الصالح، رضي الله عنهم، المراد من محبة الرسول ﷺ، فكان لهم نبراساً وهادياً وقدوة، آخذين بالتوجيه

1. النساء: 69.
2. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب.
3. النساء: 13.
4. النور: 52.
5. الأحزاب: 71.

الرباني الوارد في قوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِـمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً}.[1]

وها هم الذين يحبون الرسول ﷺ في عالمنا المعاصر يعبرون عن عمق الاستعداد لفدائه بالغالي والنفيس، وقد أسمعوا تعبيرهم للدنيا بأسرها حين تجرأ بعض المسيئين بالتطاول على رسولهم المفدى.

ومن دلائل محبة المرء للرسول ﷺ احترامه وتقديره، ومراعاة الأدب معه وفي حضرته، سواء في حياته أو عند تدارس سنته ورواية حديثه، ومما أشار إليه القرآن الكريم في هذا المجال، قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ}. [2]

وفي المجمل؛ فإن الله تعالى حدد مصير مطيع الرسول ﷺ، ومصير الذي يعصيه بوضوح لا لبس فيه، فقال تعالى:{ . . .وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً}. [3]

فمن آمن بالله رباً، وبالإسلام ديناً ورسالة ومنهجاً، وبالقرآن دستوراً، لزمته طاعة الرسول مقرونة بطاعته لله، فهو مبلغ للعالمين عن ربه، مبين للقرآن، مفصل لمجمله، مقيد لمطلقه، مع كونه الرحمة المهداة ، الذي جاء للخلق بشيراً ونذيراً.

جعلنا الله ممن يتأسون بالرسول ﷺ، ويحبونه، ويطيعون أمره، ويسيرون على هديه، وممن يحشرون معه، ويشربون من الحوض بمعيته، ويدخلون الجنة برفقته آمين.

---

1. الأحزاب: 21.
2. الحجرات: 3.
3. الفتح: 17.

اقتضت حكمة الله تعالى، وهو العليم بما يصلح البشرية، أن يبعث لها على فترة من الزمان رسلاً أو رسولاً يهدون إلى الحق، ويبشرون وينذرون لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

وقد تعاقب إرسال الرسل على الأمم منذ بعثة آدم، عليه السلام، "أبو البشر" إلى أن اختتمت الرسالات ببعثة الرسول محمد ﷺ الذي بعث للناس كافة، قال تعالى:{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ}.([1])

وقد أشار، عليه الصلاة والسلام، باختصاصه هذا في الحديث الشريف "أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي؛ نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً".([2])

هذا النبي الكريم ورحمة الله للعالمين، هيأته العناية الإلهية لأن يولد في خير البلاد (مكة) بجوار بيت الله الحرام الذي جعله الله لأهل مكة ولمن دخله من الناس حرماً آمناً، قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ}.([3])

وكانت سقاية البيت ورفادته في بني هاشم أحد بطون قريش، وكان عبد المطلب جد النبي ﷺ سيد مكة، ولعل من الإرهاصات التي رافقت ولادة النبي ﷺ، وأشارت إلى هذا الحدث العظيم، هلاك جيش أبرهة الحبشي الذي أراد غزو مكة، ليهدم البيت الحرام، فرده الله خائباً، وسلط عليه

1. سبأ: 28.
2. صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب قول النبي جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً.
3. العنكبوت: 67.

الهلاك بالطير الأبابيل، وقد سطر القرآن الكريم هذه الحادثة لتبقى ذكرى للناس جميعاً بأن من أراد هذا البيت بسوء أهلكه الله، فنزلت سورة من القرآن الكريم باسم سورة الفيل، بينت هلاك أبرهة وجيشه الغاشم، فقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ*أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ* وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ* تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ* فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ}.[1]

وفي هذا العام الذي رد الله فيه كيد الأحباش عن بيته الحرام، ولد النبي المصطفى العدنان. فكان هذا الهلاك للغزاة المعتدين إرهاصاً لحدث عظيم تنتظره مكة، وأي حدث أعظم من ولادة سيد البشرية، ورسول الله للعالمين جميعاً، إنسهم وجنهم، والرحمة المهداة من الحق للخلق، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}.[2]

فكان عام الفيل عام هلاك للظالمين، وتكريماً لبيت الله العتيق، وتاريخاً لميلاد سيد المرسلين. فقد حمى الله مكة المكرمة بجند من عنده يوم خاف أهلها من مواجهة الغزاة الظالمين، وقال زعيمها لأبرهة قولته المشهورة: (أما الإبل؛ فأنا ربها، وأما البيت؛ فللبيت رب يحميه).

وما دار في خلد عبد المطلب أن مكة المحروسة بعناية الله ستبقى حرماً آمناً لأهلها، وأن بيت الله الحرام وهو أول بيت وضع للناس في الأرض لعبادة الله تعالى حجهُ آدم، عليه السلام، ومن تبعه من الأنبياء، ورفع قواعده أبو الأنبياء إبراهيم، عليه وعليهم الصلاة والسلام، قال تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}.[3]

هذا البيت الذي ينتظر حدثاً عظيماً كأهل مكة بل حدثاً عظيماً تنتظره الأرض ومن عليها؛ لإنقاذها من وهدة الضلال والشرك والأصنام إلى توحيد الخالق عز وجل، والسير في طريق هدايته ورحمته، لتحقيق إنسانية الإنسان في ظلال التوحيد والإيمان.

وجدير بنا ونحن نتحدث عن مكة المكرمة بلد مولد النبي الأكرم ﷺ أن نشير إلى بعض فضائلها التي من أهمها أنها حازت شرف احتضان مولد النبي ﷺ، كما حازت على شرف

1. سورة الفيل.
2. الأنبياء: 107.
3. البقرة: 127.

احتضان بيت الله الحرام أول بيت وضع للناس في الأرض، كما قال الله تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ}.[1]

وأمر الله تعالى خليله إبراهيم، عليه السلام، أن يؤذن في الناس بالحج إلى هذا البيت، فقال تعالى: {وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ}.[2]

فيأتي الناس محرمين متبرئين من مظاهر ترف الدنيا، خاشعين متذللين لله تعالى، وهم يطوفون بالبيت الحرام، ويقبلون الحجر الأسود، ويستلمون الركن اليماني، ويشربون من ماء زمزم، ويؤدون الصلاة التي يضاعف الله ثوابها إلى مائة ألف، ويلتزمون ملتزمها الذي لا يرد الله فيه عبداً يدعوه ويستغفره إلا استجاب له، وفي هذا البلد الطيب يحرم حمل السلاح، ودخول الكفار، وقطع شجره، وإخافة صيده.

أقسم الله في كتابه العزيز بفضل مكة ومكانتها، فقال تعالى: {لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ*وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ}[3]، وقال تعالى: {وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ*وَطُورِ سِينِينَ*وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ}.[4]

وقد أثنى الله على مكة في كتابه الكريم، وجاء ذلك في معرض إطلاق الأسماء عليها، من ذلك مكة، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ}.[5]

ومن الأسماء كذلك بكة، قال تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ}[6]، كما أطلق عليها اسم أم القرى، قال تعالى: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا}.[7]

---

1. آل عمران: 96.
2. الحج: 27.
3. البلد: 1-2.
4. التين: 1-3.
5. الفتح: 24.
6. آل عمران: 96.
7. الأنعام: 92.

فهي سرة الأرض، ووسط الدنيا، والكعبة المشرفة هي مركز الأرض، كما أطلق على مكة اسم البلد الأمين والبلد الحرام، ومن الأحاديث التي تتحدث عن فضل مكة المكرمة قوله ﷺ: "مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلَدٍ، وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ، وَلَوْلا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكِ، مَا سَكَنْتُ غَيْرَكِ".([1])

وفي رواية "عَلِمْتُ أَنَّكِ خَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ الأَرْضِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْلا أَنَّ أَهْلَكِ أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا خَرَجْتُ".([2])

وقال، عليه الصلاة والسلام، يوم فتح مكة: "... إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لا يُعْضَدُ شَوْكُهُ، وَلا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ، وَلا يَلْتَقِطُ إِلا مَنْ عَرَّفَهَا، وَلا يُخْتَلَى خَلَاهَا".([3])

هذه هي مكة المكرمة البلد الحرام الذي جعله الله حرماً آمناً، ورد عنه كيد الغاشمين، وجعله موطناً لمولد رسوله الكريم سيد المرسلين.

وشهدت بطاحها نور الوحي الأمين، وبعثة الرسول الكريم هادياً وبشيراً ونذيراً للعالمين. وجعل الله أمته خير أمة أخرجت للناس، قال تعالى: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}.([4])

فصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأسوة خير من وطأ الأرض داعياً إلى الله على بصيرة، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على هديهم إلى يوم الدين.

---

1. سنن الترمذي، كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب في فضل مكة، وصححه الألباني، وقال شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح.
2. مسند أحمد، أول مسند الكوفيين، حديث عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري.
3. صحيح مسلم، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها .
4. آل عمران: 110.

تدور الأيام، وتتقلب الظروف والأحوال، ويقول الناس: ما أشبه اليوم بالبارحة، والأحداث تعيد نفسها، وإن اختلف الزمان والمكان والشخوص، فحين يصول الظالم ويجول، ويطفح الكيل، فإن الساكن الآمن يضطر أحياناً أمام تبجح آلة القهر والاضطهاد إلى ترك ماله وأهله وبلده وديار وأرضه، ليقوم بعمل يطلق عليه مصطلح الهجرة، وهو يعني الترك واللجوء؛ ترك مكان أو فعل، واللجوء إلى بديل آخر.

وذكر القرآن هجرة المسلمين في عهد النبوة، فقال تعالى: {لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}[1]، فالمهاجرون المسلمون اضطروا للخروج من ديارهم في مكة المكرمة مهاجرين إلى المدينة المنورة، ابتغاءً لرضوان الله، ونصرة لدينه.

والإخراج من الديار تحت ضغط الاضطهاد محفوف بالباطل، بل غارق فيه، فهو فعل يقع بغير حق وفق المعايير الربانية، يقول تعالى:{الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ...}.[2]

ويدين أهل الباطل اللجوء إلى مثل هذا الاضطهاد، فقوم لوط ردوا على دعوة الحق التي جاءهم بها نبي الله لوط منقذاً من الضلال وعواقبه، بقرار إخراج آله من قريتهم، يقول تعالى: {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ}.[3]

والمؤمنون بموسى عليه السلام أُخرجوا من ديارهم قسراً، وذكر القرآن الكريم قولهم في ذلك، فقال تعالى:{...قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا...}.[4]

1. الحشر: 8.
2. الحج: 40.
3. النمل: 56.
4. البقرة: 246.

والأنبياء، عليهم السلام، مارسوا الهجرة، فراراً بأديانهم من سطوة الخصوم، فعلى لسان لوط عليه السلام يورد القرآن الكريم أنه هاجر إلى الله، فيقول تعالى:{فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [1]، فقد هاجر عليه السلام من العراق إلى الشام فراراً بدينه من جبروت قومه وطغيانهم.

وكان آخر مهاجر من الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ، وأشار القرآن الكريم إلى هجرته وصاحبه أبي بكر الصديق، فقال تعالى: {إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}.[2]

والله وعد الصابرين على الهجرة من ديارهم نصرة للدين بحسن الجزاء، فالله تكفل بنصرتهم، وإنزال السكينة على قلوبهم، ووعدهم بالتأييد والتمكين، كما وعدهم بهزيمة الباطل الذي يضطهدهم أهله، وأن ينصر الحق الذي أوذوا في سبيله، وورد مثل هذا الوعد للرسول محمد ﷺ في الآية القرآنية سالفة الذكر وغيرها من الآيات التي وعدت المهاجرين بحسن الجزاء، منها قوله تعالى: {...فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ} [3]، وإذا كانت الجنة من حسن جزاء المهاجرين من الله في الآخرة، فإن لهم جزاء في الدنيا أيضاً، ومنه النصر المؤزر، وهو قريب، وإن ظن الناس أنه بعيد، مصداقاً لوعد الله، حيث يقول سبحانه: {وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [4]، ويقول جل في علاه: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم

1. العنكبوت: 26.
2. التوبة: 40.
3. آل عمران: 195.
4. الصف: 13.

مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ}.[1]

وهجرة الرسول ﷺ لم تكن رغبة في بلد عن بلد، ولا طلباً لرزق أوسع، ولا سعياً لأي غرض من متطلبات الحياة الدنيا، وحصر الرسول ﷺ الهجرة التي طلبت من المؤمنين بهدف واحد لا ثاني له، فقال: "الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَلِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى، فَمَنْ كانت هِجْرَتُهُ إلى اللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ فَهِجْرَتُهُ إلى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كانت هِجْرَتُهُ لدُنْيَا يُصِيبُهَا، أو امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا؛ فَهِجْرَتُهُ إلى ما هَاجَرَ إليه".[2]

فالأوطان غالية على أهلها وعزيزة، ولا يكون هجرها مطلباً شرعياً إلا حين تتعلق دوافعها بالدين، الذي هو أسمى من كل الرغبات والشهوات، والله توعد في كتابه العزيز من يؤثرون شيئاً على مطالب الدين، فقال تعالى: {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}.[3]

والهجرة التي حظيت بالمكانة المرموقة في الإسلام، لم يرد الله لها أن تبقى سبيلاً دائماً في حياة المسلمين، وإنما كانت لمرحلة معينة، فلما جاوزوها رجعوا إلى الاستقرار في أوطانهم وديارهم، عن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، قال: قال رسول اللَّهِ ﷺ: "لا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وإذا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا".[4]

وإذا ما وضعت الهجرة القسرية التي حدثت في فلسطين، في ميزان النصوص الشرعية التي تناولت قضية الهجرة والمهاجرين، فإنها تظهر أولاً أن مشكلة التهجير القسري لم تتوقف، بل مازالت تمارس ضد المواطن الآمن البريء من خلال الإبعاد متعدد الصور، وذلك ما تمارسه سلطات الاحتلال في الأراضي الفلسطينية المحتلة، فهي تتعسف في إجراءات إبعاد المواطنين

1. البقرة: 214.
2. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة ولكل امرئ ما نوى.
3. التوبة: 24.
4. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الجهاد والسير.

الفلسطينين إلى داخل فلسطين وخارجها، تبعدهم من جهة إلى أخرى داخل فلسطين، وتبعدهم عن القدس والمسجد الأقصى، سواء في ذلك مقدسيهم وسواه، وتبعد أحياناً إلى خارج فلسطين بموجب قرارات عسكرية، أو أحكام قضائية صورية، فاليهود الذين يتباكون مما لحق بهم من اضطهاد في حقب معينة، أخذوا دورهم في تشريد الناس الآمنين عن بيوتهم وديارهم، بالقمع والتسلط والاضطهاد، دون أن يأخذوا درساً من التاريخ، أو عبرة من ماضيهم، فعلى أيديهم وبفعل جبروتهم وطغيانهم هاجر الفلسطينيون من قراهم ومدنهم عام 1948م، ولحق بهم -وبفعل الطغيان نفسه- آخرون من إخوانهم على إثر حرب عام 1967م، ومضت سلطات الاحتلال -ومازالت- في إجراءاتها التعسفية ضد المواطن الفلسطيني من خلال ممارسة الإبعاد القسري للأفراد والجماعات عن مدنهم ووطنهم، وتقطيع الأوصال بين قطاعات واسعة من أبناء هذا الشعب الصابر المحتسب، الذي يصر على التمسك بحقوقه وثوابته مهما بلغت سطوة الجلاد.

وعودة المهاجر من مهجره تتطلب منه أن يتسلح بالإصرار والإيمان والأمل؛ الإصرار على التمسك بحق العودة إلى الديار والأوطان مهما جرى على أرض الواقع من تغيير للمعالم والأوضاع، حيث يعمل المتغطرسون على محو هذا الحق من الذاكرة، لكن الإيمان بهذا الحق لهم بالمرصاد، وأصحابه منتصرون لا محالة، طال الزمن أم قصر، والأمل بالفرج يعمر قلوبهم ونفوسهم، فاشتدي أزمة تنفرجي.

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها ... فرجت وكنت أظنها لا تفرج.

وقرارات تهجير الناس من ديارهم تخالف مواثيق الله وقيمه، ومبادئ العدالة التي شرعها للخلق، يقول تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ}.[1]

لكن الطغاة لا يوفون لله بعهد، ولا يحفظون له ميثاق، فيشيعون في الأرض البطش والظلم والقهر، ويعيثون في أهلها الأبرياء قتلاً وتهجيراً، وأشار الله إلى بعض أفعالهم هذه، فقال تعالى:

1. البقرة: 84.

{ثُمَّ أَنتُمْ هَـؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}.[1]

وجعل الله من مسوغات مسالمة فئات من غير المسلمين؛ كونهم لم يعملوا على إخراج المسلمين من ديارهم، فقال تعالى: {لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}[2]، جاء ذلك في مقابل النهي القاطع عن موالاة من هجَّروا المسلمين من ديارهم، أو ساعدوا على إخراجهم منها، فقال تعالى: {إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}.[3]

ووصف الله تعالى الذين يضطرون المؤمنين إلى الهجرة من ديارهم بالأعداء، ونهى عن موالاتهم، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ}.[4]

وفي هذا البيان القرآني الصريح للموقف الحاسم من قضية التهجير من الأوطان نبراس يضيء الدرب للمسلمين في كل زمان ومكان، ليصروا على موقف حازم حيال هذه القضية الحساسة والفاصلة في العلاقات مع الآخرين.

وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأسوة، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. البقرة: 85.
2. الممتحنة: 8.
3. الممتحنة: 9.
4. الممتحنة: 1.

الفصل الثالث

عبادات

.17	يشرّع النداء للصلاة بالأذان (ح1)	79
.18	يشرّع النداء للصلاة بالأذان (ح2)	83
.19	الرسول الأسوة ﷺ يستسقي	90
.20	يصوم يوم عاشوراء	94
.21	الرسول الأسوة ﷺ وشهر شعبان	98
.22	هديه في صدقة الفطر وفدية الصيام	102
.23	أعماله بعد الانتهاء من صيام رمضان	107
.24	هديه في الأيام العشر من ذي الحجة	113
.25	هديه في يوم الأضحى	117

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ: "كَانَ الْمُسْلِمُونَ حِينَ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ يَجْتَمِعُونَ، فَيَتَحَيَّنُونَ الصَّلَوَاتِ، وَلَيْسَ يُنَادِي بِهَا أَحَدٌ، فَتَكَلَّمُوا يَوْمًا فِي ذَلِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: اتَّخِذُوا نَاقُوسًا مِثْلَ نَاقُوسِ النَّصَارَى، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَرْنًا مِثْلَ قَرْنِ الْيَهُودِ، فَقَالَ عُمَرُ: أَوَلا تَبْعَثُونَ رَجُلاً يُنَادِي بِالصَّلاةِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا بِلالُ؛ قُمْ فَنَادِ بِالصَّلاةِ". [1]

وعن أنس بن مالك قال: "ذَكَرُوا أَنْ يُعْلِمُوا (2) وَقْتَ الصَّلاةِ بِشَيْءٍ يَعْرِفُونَهُ، فَذَكَرُوا أَنْ يُنَوِّرُوا (3) نَارًا، أَوْ يَضْرِبُوا نَاقُوسًا (4)، فَأُمِرَ بِلالٌ أَنْ يَشْفَعَ الأَذَانَ وَيُوتِرَ الإِقَامَةَ.".(5)

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَبْدِ رَبِّهِ، " أنه طَافَ بِهِ مِنْ اللَّيْلِ طَائِفٌ وَهو نَائِمٌ، رَجُلٌ عَلَيْهِ ثَوْبَانِ أَخْضَرَانِ، وَفِي يَدِهِ نَاقُوسٌ يَحْمِلُهُ، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ؛ أَتَبِيعُ النَّاقُوسَ؟ قَالَ: وَمَا تَصْنَعُ بِهِ؟ قُلْتُ: نَدْعُو بِهِ إِلَى الصَّلاةِ، قَالَ: أَفَلا أَدُلُّكَ عَلَى خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ؟ قَالَ: فَقُلْتُ: بَلَى، قَالَ: تَقُولُ: اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، حَيَّ عَلَى الصَّلاةِ، حَيَّ عَلَى الصَّلاةِ، حَيَّ عَلَى الْفَلاحِ، حَيَّ عَلَى الْفَلاحِ، اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، قَالَ: ثُمَّ اسْتَأْخَرْتُ غَيْرَ بَعِيدٍ، قَالَ: ثُمَّ تَقُولُ إِذَا أَقَمْتَ الصَّلاةَ، اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، حَيَّ عَلَى الصَّلاةِ، حَيَّ عَلَى الْفَلاحِ، قَدْ قَامَتْ الصَّلاةُ، قَدْ قَامَتْ الصَّلاةُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، قَالَ: فَلَمَّا أَصْبَحْتُ

---

1. صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب بدء الأذان.
2. بِضَمِّ الْيَاء وَإِسْكَان الْعَيْن أَيْ يَجْعَلُوا لَهُ عَلامَة يُعْرَف بِهَا.
3. بِضَمِّ الْيَاء وَإِسْكَان الْوَاو وَمَعْنَاهُمَا مُتَقَارِب فَمَعْنَى (يُنَوِّرُوا) أَيْ يُظْهِرُوا نُورهَا، وَمَعْنَى (يُورُوا) أَيْ يُوقِدُوا وَيُشْعِلُوا، يُقَال: أَوْرَيْت النَّار أَيْ أَشْعَلْتهَا. قَالَ اللَّه تَعَالَى: {أَفَرَأَيْتُمْ النَّار الَّتِي تُورُونَ}. وَاَللَّه أَعْلَم. (صحيح مسلم بشرح النووي).
4. خَشَبَة تُضْرَبُ بِخَشَبَةٍ أَصْغَر مِنْهَا فَيَخْرُج مِنْهَا صَوْت وَهُوَ مِنْ شِعَار النَّصَارَى.
5. صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب الأمر بشفع الأذان وإيتار الإقامة.

أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا رَأَيْتُ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ هَذِهِ لَرُؤْيَا حَقٌّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَمَرَ بِالتَّأْذِينِ، فَكَانَ بِلالٌ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ يُؤَذِّنُ بِذَلِكَ، وَيَدْعُو رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى الصَّلاةِ، قَالَ: فَجَاءَهُ، فَدَعَاهُ ذَاتَ غَدَاةٍ إِلَى الْفَجْرِ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نَائِمٌ، قَالَ: فَصَرَخَ بِلالٌ بِأَعْلَى صَوْتِهِ، الصَّلاةُ خَيْرٌ مِنْ النَّوْمِ". (1)

فهذه الروايات تظهر كيف بدأ الإعلام بوقت الصلاة بالأذان، حيث كانت الصلاة قد فرضت على المسلمين قبل تشريع الأذان، وكانوا يجتمعون لها دون نداء، كما ورد في رواية عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: "يَجْتَمِعُونَ، فَيَتَحَيَّنُونَ الصَّلَوَاتِ، وَلَيْسَ يُنَادِي بِهَا أَحَدٌ" حتى هيأ الله للمسلمين سبيل الاهتداء للأذان الذي أقره الرسول ﷺ بوحي من السماء، وذلك في السنة الأولى للهجرة، وأضحى الأذان من أبرز شعائر المسلمين التي يتكرر إحياؤهم لها يومياً مرات عدة.

والأذان لغة: مطلق الإعلام، فالله تعالى يقول: {وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ...} (2)، إي إعلام من الله ورسوله...

وورد استخدام مادة "أذن" ومشتقاتها وصيغها بمعنى الإعلام في عدد من الآيات القرآنية، التي منها قوله تعالى: {وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ}. (3)

وقوله تعالى: {وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} (4)،

---

1. مسند أحمد، أول مسند المدنيين رضي الله عنهم، حديث عبد الله بن زيد بن عبد ربه صاحب الأذان عن النبي، وقال شعيب الأرناؤوط: حسن.
2. التوبة: 3.
3. الحج: 27
4. الأعراف: 44.

ويقول تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}.[1]

ويقول سبحانه:

- {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}.[2]
- {فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ}.[3]
- وفي قوله تعالى: {فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ}.[4]
- {إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلا تَضَعُ إِلا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ}.[5]
- {فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَى سَوَاء وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ}.[6]

وفي الحديث الصحيح عن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: "بَعَثَنِي أَبُو بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي تِلْكَ الْحَجَّةِ فِي الْمُؤَذِّنِينَ، (7) بَعَثَهُمْ يَوْمَ النَّحْرِ يُؤَذِّنُونَ بِمِنىً أَنْ لا يَحُجَّ بَعْدَ الْعَامِ (8) مُشْرِكٌ، وَلا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ، قَالَ حُمَيْدٌ: ثُمَّ أَرْدَفَ النَّبِيُّ ﷺ بِعَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَأَمَرَهُ أَنْ

---

1. الأعراف: 167.
2. إبراهيم: 7.
3. البقرة: 279.
4. يوسف: 70.
5. فصلت: 47.
6. الأنبياء: 109.
7. أَيْ فِي جَمَاعَة مُؤَذِّنِينَ.
8. أَيْ بَعْدَ الزَّمَان الَّذِي وَقَعَ فِيهِ الْإِعْلام بِذَلِكَ.

يُؤَذِّنَ بِبَرَاءَةَ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَأَذَّنَ مَعَنَا عَلِيٌّ فِي أَهْلِ مِنًى يَوْمَ النَّحْرِ بِبَرَاءَةَ، وَأَنْ لا يَحُجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ".[1]

ويؤخذ من هذا الحديث أَنَّ أَبَا بَكْر كَانَ الأَمِيرَ عَلَى النَّاس فِي تِلْكَ الْحَجَّة، وَكَانَ عَلِيّ هُوَ الْمَأْمُور بِالتَّأْذِينِ بِذَلِكَ، وَكَأَنَّ عَلِيًّا لَمْ يُطِقْ التَّأْذِين بِذَلِكَ وَحْدَهُ، وَاحْتَاجَ إِلَى مَنْ يُعِينُهُ عَلَى ذَلِكَ، فَأَرْسَلَ مَعَهُ أَبُو بَكْر أَبَا هُرَيْرَة وَغَيْره لِيُسَاعِدُوهُ عَلَى ذَلِكَ، فكان أَبِو هُرَيْرَة يباشر ذَلِكَ بِأَمْرِ أَبِي بَكْر، وَكَانَ يُنَادِي بِمَا يُلْقِيهِ إِلَيْهِ عَلِيٌّ مِمَّا أُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ[2]، و"الأذان" غير "الآذان" التي هي: جمع "أذن"، وهي عضو السمع في الإنسان والحيوان. ومن تعاريف الأذان في الشرع والاصطلاح، أنه: ذِكر مخصوص شُرِع في الأصل لإعلام الناس بدخول وقت الصلاة المفروضة. [3]

والأذان فيه إظهار لشعائر الإسلام، ودعوة لإقامة صلاة الجماعة، وهو فرض كفاية، فيجب على أهل كل بلد أن يكون فيهم من يؤذن حتى يحصل إعلام الناس بوقت الصلاة. وعبارات الأذان على قلة كلماتها وإيجازها تتضمن معاني كثيرة ومهمة، منها: الشهادة لله تعالى بالعلو والكبرياء، والشهادة بوحدانيته تعالى وبرسالة محمد ﷺ، وهما جوهر دين الإسلام، والدعوة للصلاة، وهي ثاني أركان الإسلام وعموده، والتنبيه إلى معنى الفلاح، وهو الفوز بخيري الدنيا والآخرة. [4]

وإلى لقاء قادم مع رسولنا الأسوة ﷺ في جوانب أخرى من مسألة تشريعه النداء للصلاة بالأذان، وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأسوة محمد، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم، واتبع سنتهم إلى يوم الدين.

---

1. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله {وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر}.
2. انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، 318/8.
3. عبد الرحمن بن عبد الله السحيم، شرح أحاديث عمدة الأحكام، الحديث الـ 68 في الأذان.
4. موقع إسلام ويب، قصة الأذان.

فضائل الأذان وأحكامه

عَنْ طَلْحَةَ بْنِ يَحْيَى عَنْ عَمِّهِ، قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ، فَجَاءَهُ الْمُؤَذِّنُ يَدْعُوهُ إِلَى الصَّلاةِ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "الْمُؤَذِّنُونَ أَطْوَلُ النَّاسِ أَعْنَاقًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ". ([1])

لاحقاً لحديثنا في الحلقة السابقة عن تشريع رسولنا الأسوة ﷺ النداء للصلاة بالأذان، والتي تناولنا فيها معنى الأذان في اللغة والاصطلاح، وكيف كان يجتمع المسلمون للصلاة قبله، ومتى بدأ العمل به، وصيغته الشرعية، فيسرنا أن نواصل الحديث عن فضل الأذان والمؤذن، ومشروعية الأذان، وبعض أحكامه في ضوء توجيهات رسولنا الأكرم ﷺ المستوحاة من أقواله وأفعاله، وحديث معاوية الذي تصدر هذه الحلقة يدل بوضوح على بعض فضل المؤذنين، وما أعد الله لهم من حسن الجزاء، فهم يأتون يوم القيامة متميزين بطول الأعناق، وفي المقصود بطول الأعناق هنا يذكر الإمام النووي، رحمه الله تعالى، أن السلف والخلف اختلفوا في معناه، فقيل: معناه أكثر الناس تشوفاً إلى رحمة الله تعالى؛ لأن المتشوف يطيل عنقه إلى ما يتطلع إليه، فمعناه كثرة ما يرونه من الثواب، وقال النضر بن شميل: إذا ألجم الناس العرق يوم القيامة طالت أعناقهم لئلا ينالهم ذلك الكرب والعرق. وقيل: معناه أنهم سادة ورؤساء، والعرب تصف السادة بطول العنق. وقيل: معناه أكثر اتباعاً. وقال ابن الأعرابي: معناه أكثر الناس أعمالاً. وقال القاضي عياض وغيره ورواه بعضهم إعناقاً بكسر الهمزة: أي إسراعاً إلى الجنة، وهو من سير العَنَق".([2])

وورد في فضل الأذان أحاديث أخرى، منها ما رواه البخاري عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ، أنه قَالَ لعبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صمصعة: "إِنِّي أَرَاكَ تُحِبُّ الْغَنَمَ وَالْبَادِيَةَ، فَإِذَا كُنْتَ فِي

1. صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه.
2. شرح النووي على صحيح مسلم 92/4.

غَنَمِكَ أَوْ بَادِيَتِكَ، فَأَذَّنْتَ بِالصَّلاةِ، فَارْفَعْ صَوْتَكَ بِالنِّدَاءِ، فَإِنَّهُ لا يَسْمَعُ مَدَى صَوْتِ الْمُؤَذِّنِ[1] جِنٌّ وَلا إِنْسٌ وَلا شَيْءٌ إِلا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ".[2] فالجن والإنس وخلق الله جميعاً يشهدون لصالح المؤذن يوم القيامة، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، والأذان جامع للفضل، حافل بالخير الجزيل، والناس لا يدركون المدى الحقيقي لفضله وخيره، ولو أدركوا ذلك لتنافسوا عليه، لدرجة اللجوء إلى اختيار المؤذن بالقرعة بين المتنافسين، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الأَوَّلِ، ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لاسْتَهَمُوا، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِلاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا". [3]

وجاء في فتح الباري أن الْمُرَاد بِالاسْتِبَاقِ مَعْنًى لا حِسًّا؛ لأَنَّ الْمُسَابَقَة عَلَى الأَقْدَام حِسًّا تَقْتَضِي السُّرْعَة فِي الْمَشْي، وَهُوَ غير متصور، ولا يمكن طلبه حال رفع الأذان، فإذا لَمْ يَجِدُ المتنافسون على رفع الأذان شَيْئاً مِنْ وُجُوه الأَوْلَوِيَّة، بِأَنْ يَسْتَوُوا فِي مَعْرِفَة الْوَقْت، وَحُسْنِ الصَّوْت، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِط الْمُؤَذِّن وَتَكْمِلاتِهِ، فإنهم يلجأون إلى الاستهام والقرعة، ليفوز أحدهم به، قال الإمام النووي: معناه أنهم لو علموا فضيلة الأذان وقدرها، وعظيم جزائه، ثم لم يجدوا طريقاً يحصلونه به لضيق الوقت عن أذان بعد أن أُذن، أو لكونه لا يؤذن للمسجد إلا واحد، لاقترعوا في تحصيله.

والأذان علامة فارقة، تميز سمات المسلمين عن غيرهم، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ " أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا غَزَا بِنَا قَوْمًا لَمْ يَكُنْ يَغْزُو بِنَا حَتَّى يُصْبِحَ، وَيَنْظُرَ، فَإِنْ سَمِعَ أَذَانًا كَفَّ عَنْهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ أَذَانًا أَغَارَ عَلَيْهِمْ، قَالَ: فَخَرَجْنَا إِلَى خَيْبَرَ، فَانْتَهَيْنَا إِلَيْهِمْ لَيْلاً، فَلَمَّا أَصْبَحَ وَلَمْ يَسْمَعْ أَذَانًا رَكِبَ، وَرَكِبْتُ خَلْفَ أَبِي طَلْحَةَ، وَإِنَّ قَدَمِي لَتَمَسُّ قَدَمَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: فَخَرَجُوا إِلَيْنَا بِمَكَاتِلِهِمْ

1. أَيْ غَايَة صَوْته، قَالَ الْبَيْضَاوِيّ: غَايَةُ الصَّوْت تَكُونُ أَخْفَى مِنْ اِبْتِدَائِهِ، فَإِذَا شَهِدَ لَهُ مَنْ بَعُدَ عَنْهُ وَوَصَلَ إِلَيْهِ مُنْتَهَى صَوْتِهِ فَلأَنْ يَشْهَدَ لَهُ مَنْ دَنَا مِنْهُ وَسَمِعَ مُبَادِي صَوْتِهِ أَوْلَى. (فتح الباري بشرح صحيح البخاري)

2. صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب رفع الصوت بالنداء.

3. صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب الاستهام في الأذان.

وَمَسَاحِيهِمْ، فَلَمَّا رَأَوْا النَّبِيَّ ﷺ، قَالُوا: مُحَمَّدٌ وَاللَّهِ مُحَمَّدٌ وَالْخَمِيسُ، قَالَ: فَلَمَّا رَآهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ". (1)

قَالَ الْخَطَّابِيُّ: فِيهِ أَنَّ الأَذَان شِعَار الإِسْلام، وَأَنَّهُ لا يَجُوز تَرْكُهُ، وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ بَلَد اِجْتَمَعُوا عَلَى تَرْكِهِ كَانَ لِلسُّلْطَانِ قِتَالُهُمْ عَلَيْهِ. (2)

ويعرف فضل الشيء في بعض الأحيان بضده، فمن دلالات فضل الأذان أن الشيطان الرجيم يفر منه، حتى أنه يلجأ إلى إشغال سمعه عنه، رغم أنه لا يقنط من محاولة التشويش على المصلي، حيث إنه يفر عند سماع الأذان، فإذا انتهى المؤذن عاد ليشغل بال المصلي ويشتت ذهنه، حتى يجعله يشك في عدد الركعات التي صلاها، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِذَا أُذِّنَ بِالصَّلاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ لَهُ ضُرَاطٌ حَتَّى لا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فَإِذَا سَكَتَ الْمُؤَذِّنُ أَقْبَلَ، فَإِذَا ثُوِّبَ أَدْبَرَ، فَإِذَا سَكَتَ أَقْبَلَ، فَلا يَزَالُ بِالْمَرْءِ يَقُولُ لَهُ اذْكُرْ مَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ حَتَّى لا يَدْرِيَ كَمْ صَلَّى". (3)

والأذان شُرِع في الأصل للإعلام بدخول وقت الصلاة المفروضة. وورد ذكره في القرآن الكريم والسنة النبوية، فيقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}.(4)

ويقول سبحانه وتعالى:{وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ}.(5)

إضافة إلى كثير من الأحاديث الشريفة القولية والعملية التي تتضمن الحديث عن الأذان وفضله وأحكامه، والتي حفلت هذه الحلقة وسابقتها بذكر بعض منها.

---

1. صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب ما يحقن بالأذان من الدماء.
2. فتح الباري بشرح صحيح البخاري.
3. صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب يفكر الرجل الشيء في الصلاة.
4. الجمعة: 9.
5. المائدة: 58.

والأذان يشرع للصلوات الخمس دون غيرها، فلا يؤذن لصلاة العيد ولا لصلاة الاستسقاء ولا الجنازة، وحكمه فرض كفاية، وقيل سنة، فلو رفع الأذان في بلد سقط الفرض عن أهله، أما من أحب أن يؤذن ويقيم للصلاة التي لم يلحق بها مع الجماعة الذين رفع فيهم الأذان وأقاموا الصلاة في البلد، فلا ضير عليه، ونسأل الله أن يجزيه ثواب أداء هذه السنة وأجر الحرص عليها.

ومن ابتغى الأخذ بمنهج الرسول ﷺ فينبغي له إذا سمع النداء إلى الصلاة بالأذان أن يتوجه إلى أداء الصلاة جماعة في المسجد، وأن يترك ما يمكن تركه وتأجيله من الأعمال لما بعد الصلاة، فإذا قضيت الصلاة انتشر في الأرض يسعى في مناكبها، يطلب الرزق، ويقضي المصالح والحاجات، في إطار ما أباح الله وشرع.

ويتضح مما سبق أنه بعد تشريع النداء للصلاة بالأذان، لم يختلف المسلمون حول هذه الشعيرة، ولم يستبدلوها بغيرها من أساليب النداء للصلاة، ولم يضيفوا إليها ما ليس منها، ولم ينقصوا منها لفظاً ولا مقطعاً، وإنما حافظوا عليها كما وردتهم عن رسولهم الهادي ﷺ، وهذا يقتضي من المسلمين في مختلف الزمان والمكان أن يبقوا على هذه الشعيرة في قراهم ومدنهم ومخيماتهم، في باديتهم وحضرهم، عند عربهم وعجمهم، شعيرة تظهر بتكبير الله في الأفاق خمس مرات في اليوم، وتدعو للتوحيد، وتشهد برسالة النبي محمد ﷺ، وتدعو للصلاة والفلاح، تميزهم وبقاعهم عن باقي الخلق وبقاعهم، وستبقى هذه الخاصية لهذه الشعيرة ما لم يحدث المسلمون معها ما ليس منها، فحينها يختلفون حول المحدث والمبتدع وبسببه، فمنهم معارض، ومنهم موافق، ومنهم متردد، ويصبحون أشتاتاً، على خلاف حالهم عند تجمعهم حول الأذان المشروع، الذي لا خلاف بينهم حوله.

ولو كانت هناك حاجة حقيقية للنداء للصلاة المفروضة والتذكير بدخول وقتها بغير الأذان، لحرص رسولنا ﷺ على تشريع إضافات أو بدائل أخرى، غير أنه لم يثبت عنه ﷺ شيء من هذا القبيل في دليل شرعي صحيح، فيبقى إذن الاقتصار على النداء للصلاة المفروضة بالأذان هو الأمر المشروع دون سواه.

ويشرع النداء لبعض الصلوات بأذانين، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : "أَنَّ بِلَالاً كَانَ يُؤَذِّنُ بِلَيْلٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: كُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يُؤَذِّنَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، فَإِنَّهُ لا يُؤَذِّنُ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ". قَالَ الْقَاسِمُ: وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ أَذَانِهِمَا إِلا أَنْ يَرْقَى ذَا، وَيَنْزِلَ ذَا". ([1])

فهذا دليل على تشريع النداء بأذانين لصلاة الفجر وقبلها، أحدهما قبيل دخول وقت الفجر للتهيؤ للصلاة والاستعداد للإمساك بالنسبة إلى الذي يريد الصوم، والثاني للإعلام بدخول وقت الفجر، فبعد الأول يجوز للذي ينوي الصيام أن يأكل ويشرب، ولا يصح له أن يبدأ بأداء صلاة الفجر، وبعد الثاني يمتنع من أراد الصوم عن تناول الطعام والشراب، ويمسك عن جميع مفطرات الصوم، وتبدأ به فترة صلاة الفجر التي تنتهي ببزوغ شمس نهار ذلك اليوم.

وورد في الحديث الصحيح عن عائشة إطلاق مسمى النداء الأول على الأذان الذي يسبق أذان الفجر، ولم يرد ما يفيد تسميته بأذان الإمساك كما يصنع بعض الناس، فعَنْ أَبِي إِسْحَقَ قَالَ: "سَأَلْتُ الأَسْوَدَ بْنَ يَزِيدَ عَمَّا حَدَّثَتْهُ عَائِشَةُ، عَنْ صَلاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ: كَانَ يَنَامُ أَوَّلَ اللَّيْلِ، وَيُحْيِي آخِرَهُ، ثُمَّ إِنْ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ إِلَى أَهْلِهِ قَضَى حَاجَتَهُ، ثُمَّ يَنَامُ، فَإِذَا كَانَ عِنْدَ النِّدَاءِ الْأَوَّلِ؛ قَالَتْ: وَثَبَ، وَلا وَاللَّهِ مَا قَالَتْ: قَامَ، فَأَفَاضَ عَلَيْهِ الْمَاءَ، وَلا وَاللَّهِ مَا قَالَتْ: اغْتَسَلَ، وَأَنَا أَعْلَمُ مَا تُرِيدُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ جُنُبًا، تَوَضَّأَ وُضُوءَ الرَّجُلِ لِلصَّلاةِ ثُمَّ صَلَّى الرَّكْعَتَيْنِ".([2])

وبالنسبة إلى صلاة الجمعة، ففي النداء إليها بأذانين خلاف بين الفقهاء، فروي عَنْ السَّائِبِ ابْنِ يَزِيدَ: "أَنَّ التَّأْذِينَ الثَّانِيَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَمَرَ بِهِ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حِينَ كَثُرَ أَهْلُ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ التَّأْذِينُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ حِينَ يَجْلِسُ الإِمَامُ". ([3])

1. صحيح البخاري، كتاب الصوم، قول النبي ﷺ لا يمنعنكم من سحوركم.
2. صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الليل وعدد ركعات النبي ﷺ.
3. صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب الجلوس على المنبر عند التأذين.

وبالنسبة إلى ما بين الأذان والإقامة من وقت، فقد روي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: "كَانَ الْمُؤَذِّنُ إِذَا أَذَّنَ قَامَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَبْتَدِرُونَ (1) السَّوَارِيَ (2)، حَتَّى يَخْرُجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُمْ كَذَلِكَ، يُصَلُّونَ الرَّكْعَتَيْنِ قَبْلَ الْمَغْرِبِ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ الأَذَانِ وَالإِقَامَةِ شَيْءٌ(3)". ([4])

ويستحب للمسلم أن يصلي ركعتين بعد الأذان وقبل الإقامة، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " بَيْنَ كُلِّ أَذَانَيْنِ صَلاَةٌ،بَيْنَ كُلِّ أَذَانَيْنِ صَلاَةٌ، ثُمَّ قَالَ فِي الثَّالِثَةِ لِمَنْ شَاءَ". ([5])

وأشار ابن حجر العسقلاني إلى أن المقصود بالأذانين الأذان والإقامة، ولا يصح حمله على ظاهره، كما ورد في فتح الباري، لأن الصلاة بين الأذانين مفروضة، والخبر ناطق بالتخيير لقوله "لمن شاء"، وتوارد الشرح على أن هذا من باب التغليب كقولهم القمرين للشمس والقمر، ويحتمل أن يكون أطلق على الإقامة أذان لأنها إعلام بحضور فعل الصلاة، كما أن الأذان إعلام بدخول الوقت، ولا مانع من حمل قوله "أذانين" على ظاهره، لأنه يكون التقدير بين كل أذانين صلاة نافلة غير المفروضة.

وبين ابن حجر العسقلاني أن المقصود بالصلاة بين الأذانين وقتها، أو المراد صلاة نافلة، أو نكرت لكونها تتناول كل عدد نواه المصلي من النافلة كركعتين أو أربع أو أكثر. ويحتمل أن يكون المراد به الحث على المبادرة إلى المسجد عند سماع الأذان لانتظار الإقامة، لأن منتظر الصلاة في صلاة ، قاله الزين بن المنير. ([6])

وفيما يخص كيفية الأذان والإقامة، فقد ورد في البخاري ومسلم شفع الأذان وإفراد الإقامة، فعَنْ أَنَسٍ قَالَ: "أُمِرَ بِلالٌ أَنْ يَشْفَعَ الأَذَانَ، وَأَنْ يُوتِرَ الإِقَامَةَ إِلا الإِقَامَةَ". ([7])

---

1. أَيْ يَسْتَبِقُونَ.
2. جَمْعُ سَارِيَةٍ، وَكَأَنَّ غَرَضَهُمْ بِالاسْتِبَاقِ إِلَيْهَا الاسْتِتَار بِهَا مِمَّنْ يَمُرُّ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ لِكَوْنِهِمْ يُصَلُّونَ فُرَادَى.
3. التَّنْوِين فِيهِ لِلتَّعْظِيمِ، أَيْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا شَيْء كَثِير... وَنَفْيُ الْكَثِير يَقْتَضِي إِثْبَات الْقَلِيل. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، 107/2.
4. صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب بين كل أذانين صلاة ثلاثاً لمن شاء.
5. صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب بين كل أذانين صلاة لمن شاء.
6. فتح الباري بشرح صحيح البخاري.
7. صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب الأذان مثنى مثنى.

ومعنى شفع الأذان: أن يؤتى به مثنى، وهذا مجمع عليه اليوم، وحكي في إفراده خلاف عن بعض السلف. ومعنى يوتر الإقامة: أن يأتي بها وتراً، ولا يثنيها بخلاف الأذان. وقوله إلا الإقامة معناه إلا لفظ (الإقامة) وهي قوله : قد قامت الصلاة فإنه لا يوترها بل يثنيها.

ويذكر الإمام النووي اختلاف العلماء، رضي الله عنهم، في لفظ (الإقامة)؛ فالمشهور من مذهب الشافعي، وبه قال أحمد وجمهور العلماء: إن الإقامة إحدى عشرة كلمة الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة، حي على الفلاح، قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله. وقال مالك، رحمه الله، في المشهور عنه: هي عشر كلمات فلم يثن لفظ الإقامة، وهو قول قديم للشافعي، ولنا قول شاذ إنه يقول في الأول: الله أكبر مرة، وفي الآخر الله أكبر، ويقول: قد قامت الصلاة مرة فتكون ثماني كلمات، والصواب الأول، وقال أبو حنيفة الإقامة سبع عشرة كلمة فيثنيها كلها وهذا المذهب شاذ، قال الخطابي: مذهب جمهور العلماء والذي جرى به العمل في الحرمين والحجاز والشام واليمن ومصر والمغرب إلى أقصى بلاد الإسلام أن الإقامة فرادى. قال الإمام أبو سليمان الخطابي، رحمه الله تعالى: مذهب عامة العلماء أنه يكرر قوله قد قامت الصلاة إلا مالكاً، فإن المشهور عنه أنه لا يكررها، والله أعلم.

ويشير النووي إلى الحكمة من إفراد الإقامة وتثنية الأذان أن الأذان لإعلام الغائبين. فيكرر ليكون أبلغ في إعلامهم، والإقامة للحاضرين، فلا حاجة إلى تكرارها، ولهذا قال العلماء: يكون رفع الصوت في الإقامة دونه في الأذان، وإنما كرر لفظ الإقامة خاصة لأنه مقصود الإقامة. والله أعلم. [1]

وصلى الله وسلم على رسولنا الأسوة محمد، وعلى آله وصحبه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. شرح النووي على صحيح مسلم، 79/4.

من سنن الله تعالى وآياته في هذا الكون نزول الغيث، وهو رحمة للمخلوقات، ونعمة للكائنات، وسبب لاستمرار الحياة، قال تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ} ([1])، وإذا نزل الماء على الأرض المجدبة أنبتت من كل زوج بهيج، ولبست حلتها الخضراء، واستبشر أهلها، {فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ}.([2])

وقوله تعالى:{وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}.([3])

وقد تجدب الأرض، ويحبس نزول المطر بمشيئة الله تعالى امتحاناً وابتلاءً لخلقه، أو بسبب إعراضهم ومعاصيهم،{وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ}.([4])

وعلى كل حال؛ فالخلق بحاجة ماسة إلى اللجوء إلى الله تعالى في جميع أحوالهم، فأمر معاشهم مرهون بتجاوز الله تعالى عنهم، ورحمته لهم، والله تعالى هو الغني عن عباده،{يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ }.([5])

فعلى العباد أن يتوجهوا إلى الله تعالى بالدعاء والرغبة والابتهال والتضرع طلباً للعفو والرحمة، والتجاوز عن السيئات بإغاثتهم بالمطر الذي تحيا به الأرض، وتنتفع به جميع المخلوقات، وتنشر به الرحمة،{وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ}.([6])

---

1. الأنبياء: 30.
2. الحج: 5.
3. البقرة: 22.
4. الشورى: 30.
5. فاطر: 15.
6. الشورى: 28.

وفي هذا العام؛ وقد تأخر نزول المطر، فحري بنا أهل ديار الإسراء والمعراج وأقطار المسلمين الأخرى أن نلجأ إلى الله تعالى بالتوبة الصادقة عن جميع الخطايا والذنوب، ونترك المظالم، ونتخلى عنها، ونتقرب إلى الله بالطاعات؛ كالصيام والنوافل والصدقات والضراعة إلى الله تعالى بقلوب خاشعة منكسرة، ونحن نطلب السقيا من المولى عز وجل.

فالتذلل إلى الله تعالى من أسباب إجابة الدعاء، وقد وصف الله عباده الصالحين بذلك، فقال تعالى: {وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}.[1]

ويسن خروج الناس إلى الفلاة لأداء صلاة الاستسقاء، يخرج الشيوخ والأطفال وأهل الدين والصلاح، لأنهم الأقرب إلى استجابة دعائهم، فقد ورد في بعض الأحاديث الشريفة: "لولا شباب خشع، وبهائم رتع، وشيوخ ركع، وأطفال رضع، لصب عليكم العذاب صبا".[2]

وأما صفة الاستسقاء كما وردت عن النبي ﷺ، فلها صيغ عدة، يحسن بنا أن نذكرها ما دمنا في معرض الحديث عن هدي النبي ﷺ في الاستسقاء.

أولاً: إن النبي ﷺ خرج بالناس إلى المصلى، فاستسقى مستقبل القبلة، وحول رداءه وصلى ركعتين، فقد ورد في الحديث الشريف: "أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ إِلَى الْمُصَلَّى، فَاسْتَسْقَى، فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، وَقَلَبَ رِدَاءَهُ، وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ"[3]، وصلاة الاستسقاء كصلاة العيد؛ يكبر فيها الإمام تكبيرات الزوائد، ويجهر بها في القراءة، ثم يخطب بعدها بالناس، ويتوجه إلى القبلة بالدعاء، ويبالغ برفع الأيدي، وهو يدعو، ويكثر من الاستغفار، ويدعو بما ورد عن النبي ﷺ، ومنه: "اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً هنيئاً مريئاً مريعاً، غدقاً مجللاً عاماً سحاً طبقاً دائماً، اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين، اللهم إن بالعباد والبلاد والبهائم والخلق من اللأواء والجهد والضنك مالا نشكوه إلا إليك، اللهم أنبت لنا الزرع، وأدر لنا الضرع، واسقنا من بركات الأرض، اللهم ارفع عنا الجهد والجوع والعري، واكشف عنا من البلاء ما لا يكشفه غيرك، اللهم إنا نستغفرك

1. الأنبياء: 90.
2. أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب صلاة الاستسقاء، باب استحباب الخروج بالضعفاء والصبيان والعجايز.
3. صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب تحويل الرداء في الاستسقاء.

إنك كنت غفاراً، فأرسل السماء علينا مدراراً" [1] "اللهم إنك أمرتنا بالدعاء ووعدتنا إجابتك، فقد دعوناك كما أمرتنا، فاستجب لنا كما وعدتنا".

ثانياً: الدعاء يوم الجمعة على المنبر في خطبة الجمعة، فقد ورد عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، رضي الله عنه، "أَنَّ رَجُلاً دَخَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مِنْ بَابٍ، كَانَ وِجَاهَ الْمِنْبَرِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَائِماً، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ هَلَكَتْ الْمَوَاشِي وَانْقَطَعَتْ السُّبُلُ، فَادْعُ اللَّهَ يُغِيثُنَا، قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا، قَالَ أَنَسُ: وَلا وَاللَّهِ مَا نَرَى فِي السَّمَاءِ مِنْ سَحَابٍ، وَلا قَزَعَةً، وَلا شَيْئاً، وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ مِنْ بَيْتٍ وَلا دَارٍ، قَالَ: فَطَلَعَتْ مِنْ وَرَائِهِ سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرْسِ، فَلَمَّا تَوَسَّطَتْ السَّمَاءَ انْتَشَرَتْ، ثُمَّ أَمْطَرَتْ، قَالَ: وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا الشَّمْسَ سِتًّا، ثُمَّ دَخَلَ رَجُلٌ مِنْ ذَلِكَ الْبَابِ فِي الْجُمُعَةِ الْمُقْبِلَةِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَهُ قَائِماً، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ هَلَكَتْ الأَمْوَالُ وَانْقَطَعَتْ السُّبُلُ، فَادْعُ اللَّهَ يُمْسِكْهَا، قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا، وَلا عَلَيْنَا، اللَّهُمَّ عَلَى الآكَامِ وَالْجِبَالِ وَالآجَامِ وَالظِّرَابِ وَالأَوْدِيَةِ وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ، قَالَ: فَانْقَطَعَتْ، وَخَرَجْنَا نَمْشِي فِي الشَّمْسِ". [2]

ثالثاً: استسقى النبي ﷺ وهو جالس في المسجد، فرفع يديه ودعا الله عز وجل، وكان من دعائه: "اللَّهُمَّ اسْقِنَا غَيْثاً مُغِيثاً، مَرِيئاً، نَافِعاً، غَيْرَ ضَارٍّ، عَاجِلاً غَيْرَ آجِلٍ، قَالَ: فَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ".[3]

هذه أشهر الأوجه التي نقلت عن النبي ﷺ في الاستسقاء.

ومن الأدعية التي وردت عن النبي ﷺ في الاستسقاء "... اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا..."[4]، وفي لفظ:"... اللَّهُمَّ أَغِثْنَا، اللَّهُمَّ أَغِثْنَا، اللَّهُمَّ أَغِثْنَا...".[5]

---

1. ذكره الشافعي في الأم تعليقاً، (251/1)، قال ابن حجر في التلخيص: لم نقف له على إسناد (99/2).
2. صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب الاستسقاء في المسجد الجامع.
3. سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب رفع اليدين في الاستسقاء، وصححه الألباني.
4. صحيح البخاري، كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء في المسجد الجامع.
5. صحيح البخاري، كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة.

ومنها "... الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ، لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ، اللَّهُمَّ أَنْتَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ الْغَنِيُّ، وَنَحْنُ الْفُقَرَاءُ، أَنْزِلْ عَلَيْنَا الْغَيْثَ، وَاجْعَلْ مَا أَنْزَلْتَ لَنَا قُوَّةً وَبَلاغًا إِلَى حِينٍ ...".[1]

ومنها "... اللَّهُمَّ اسْقِ عِبَادَكَ وَبَهَائِمَكَ، وَانْشُرْ رَحْمَتَكَ، وَأَحْيِ بَلَدَكَ الْمَيِّتَ".[2]

هذا هو هدي رسولنا الأسوة ﷺ في طلب السقيا، وقد سار على نهجه وهديه صحابته الكرام، فقد روى أنس، رضي الله عنه، "أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَانَ إِذَا قَحَطُوا اسْتَسْقَى بِالْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا، فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا، فَاسْقِنَا، قَالَ: فَيُسْقَوْنَ".[3]

فعلينا معاشر المسلمين أن نخلص النوايا لله تعالى بتوبة صادقة، وأعمال صالحة، وندعو الله تعالى بخير الدعاء في طلب الغيث بما دعاه به رسوله الأكرم ﷺ، فهو أقرب للإجابة، وأدعى للقبول، إن الله تعالى بعباده رؤوف رحيم.

وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأسوة، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم بإحسان إلى يوم الدين.

1. سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب رفع اليدين في الاستسقاء، وحسنه الألباني.
2. سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب رفع اليدين في الاستسقاء، وحسنه الألباني.
3. صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا.

الرسول الأسوة محمد ﷺ يصوم يوم عاشوراء

لقد حث النبي ﷺ على صوم عاشوراء؛ وهو العاشر من شهر محرم لما فيه من الأجر العظيم والثواب الجزيل من الله جلَّ في علاه، وسبب صيام يوم عاشوراء ما روي عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: "قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ، فَرَأَى الْيَهُودَ تَصُومُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: هَذَا يَوْمٌ صَالِحٌ، هَذَا يَوْمٌ نَجَّى اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عَدُوِّهِمْ، فَصَامَهُ مُوسَى، قَالَ: فَأَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ، فَصَامَهُ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ".[1]

فهذا الحديث الشريف يبين لنا أن سبب صيام يوم عاشوراء هو أنه لما أنجى الله موسى وأغرق فرعون صام موسى عليه السلام يوم العاشر من محرم شكراً لله على نعمته وفضله عليه بإنجائه وقومه، وإغراق فرعون وقومه، فصامه موسى عليه السلام، وصامه نبينا وأسوتنا ﷺ شكراً لله على ما منحه الله لموسى عليه السلام، فصامه وأمر الناس بصيامه، وأرسل إلى قرى الأنصار: "مَنْ أَصْبَحَ مُفْطِراً، فَلْيُتِمَّ بَقِيَّةَ يَوْمِهِ، وَمَنْ أَصْبَحَ صَائِماً فَلْيَصُمْ".[2]

ولا بد من الإشارة إلى أن صوم يوم عاشوراء من شهر الله المحرم كان واجباً في الابتداء قبل أن يُفرض رمضان، فلما فُرض رمضان أخبرهم أن من شاء صام عاشوراء ومن شاء ترك، لما روي عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: "أَنَّ قُرَيْشًا كَانَتْ تَصُومُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، ثُمَّ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِصِيَامِهِ حَتَّى فُرِضَ رَمَضَانُ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ شَاءَ فَلْيَصُمْهُ، وَمَنْ شَاءَ أَفْطَرَ".[3]

---

1. صحيح البخاري، كتاب الصوم ، باب صيام يوم عاشوراء.
2. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب صوم الصبيان.
3. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب وجوب صوم رمضان.

وصوم عاشوراء وإن لم يعد واجباً فهو مما ينبغي الحرص عليه غاية الحرص، وذلك لما يأتي:

1. صوم يوم عاشوراء اتباعاً لسنة سيد الأنبياء محمد ﷺ.

2. صيامه يكفر السنة الماضية: ففي صحيح مسلم أن رجلاً سأل رسول الله عن صيام عاشوراء فقال:" ... وَصِيَامُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ ".[1]

3. تحري الرسولﷺ هذا اليوم، روى ابن عباس قال: "مَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَتَحَرَّى صِيَامَ يَوْمٍ فَضَّلَهُ عَلَى غَيْرِهِ إِلا هَذَا الْيَوْمَ؛ يَوْمَ عَاشُورَاءَ...".[2]

4. وقوع هذا اليوم في شهر الله المحرم الذي يسن صيامه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ شَهْرُ اللَّهِ الْمُحَرَّمُ، وَأَفْضَلُ الصَّلاةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ صَلاةُ اللَّيْلِ".[3]

5. كان الصحابة، رضي الله عنهم، يصومون فيه صبيانهم تعويداً لهم على الفضل، فعن الربيع بنت معوذ قالت أرسل النبي ﷺ غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار: "مَنْ أَصْبَحَ مُفْطِرًا فَلْيُتِمَّ بَقِيَّةَ يَوْمِهِ، وَمَنْ أَصْبَحَ صَائِمًا فَلْيَصُمْ، قَالَتْ: فَكُنَّا نَصُومُهُ بَعْدُ، وَنُصَوِّمُ صِبْيَانَنَا، وَنَجْعَلُ لَهُمْ اللُّعْبَةَ مِنْ الْعِهْنِ، فَإِذَا بَكَى أَحَدُهُمْ عَلَى الطَّعَامِ، أَعْطَيْنَاهُ ذَاكَ، حَتَّى يَكُونَ عِنْدَ الإِفْطَارِ".[4]

6. صيامُ يوم عاشوراء (وغيره من النوافل) من سمات أهل الصيام الأتقياء، الذين وُعدوا بدخول جنات النعيم، وبالمغفرة والأجر العظيم: قال تعالى: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ

1. صحيح مسلم، كتاب الصوم، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والإثنين والخميس.
2. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب صيام يوم عاشوراء.
3. صحيح مسلم، كتاب الصوم، باب فضل صوم المحرم.
4. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب صوم الصبيان.

وَالــصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِــعِينَ وَالْخَاشِــعَاتِ وَالْمُتَــصَدِّقِينَ وَالْمُتَــصَدِّقَاتِ وَالــصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّـهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}.[1]

وفضائل صوم يوم عاشوراء كثيرة لا تحصى نكتفي ببيان هذا القدر منها.

ويسن أن يصوم المسلم يوم التاسع من محرم مع عاشوراء، لما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: "لَئِنْ بَقِيتُ إِلَى قَابِلٍ لأَصُومَنَّ التَّاسِعَ، وَفِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ قَالَ: يَعْنِي يَوْمَ عَاشُورَاءَ"[2]، وأما الحكمة من صيام التاسع مع العاشر فقد اختلف فيها العلماء فقال النووي رحمه الله: "ذكر العلماء من أصحابنا وغيرهم في حكمة استحباب صوم تاسوعاء وجوهاً، منها:

أحدها: أنَّ المراد منه مخالفة اليهود في اقتصارهم على العاشر، وهو مروي عن ابن عباس.

الثاني: أنَّ المراد به وصلُ يوم عاشوراء بصوم، كما نهي أن يصام يوم الجمعة وحده.

الثالث: الاحتياطُ في صوم العاشر خشية نقص الهلال، ووقوع غلطٍ فيكونُ التاسعُ في العدد هو العاشرُ في نفس الأمرِ.

ولعل أقوى هذه الأوجه هو مخالفة أهل الكتاب، ويدل على ذلك ما روي عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: "حِينَ صَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنَّهُ يَوْمٌ تُعَظِّمُهُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَإِذَا كَانَ الْعَامُ الْمُقْبِلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ صُمْنَا الْيَوْمَ التَّاسِعَ، قَالَ: فَلَمْ يَأْتِ الْعَامُ الْمُقْبِلُ حَتَّى تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ".[3]

---

1. الأحزاب: 35.
2. صحيح مسلم، كتاب الصوم، باب صوم يوم عاشوراء.
3. صحيح مسلم، كتاب الصوم، باب صوم يوم عاشوراء.

وإذا لم يتيسر لك أخي المسلم صيام يوم التاسع فصم يوماً بعد عاشوراء، لقوله ﷺ: "صُومُوا يَوْمَ عَاشُورَاءَ، وَخَالِفُوا فِيهِ الْيَهُودَ، صُومُوا قَبْلَهُ يَوْمًا أَوْ بَعْدَهُ يَوْماً".([1])

ولا يشترط لصيام عاشوراء أو غيره من صيام التطوع أن تبيّت النية للصوم من الليل، وإنما تكفي النية من النهار، وقد قالت عائشة، رضي الله عنها: "دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، فَقَالَ: هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ؟ فَقُلْنَا: لا، قَالَ: فَإِنِّي إِذَنْ صَائِمٌ، ثُمَّ أَتَانَا يَوْمًا آخَرَ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أُهْدِيَ لَنَا حَيْسٌ، فَقَالَ: أَرِينِيهِ، فَلَقَدْ أَصْبَحْتُ صَائِمًا، فَأَكَلَ".([2])

فعلينا معاشر المسلمين أن نغتنم هذا الشهر الفضيل في عبادة الله كما يحب ويرضى، ووفق سنة النبي ﷺ، وأن نحتسب ونرغب في صيام عاشوراء، رجاء أن تشملنا رحمة الله ومغفرته، فالحرص الحرص على صوم عاشوراء، والله أسأل أن يتقبل منا صيامنا وأعمالنا، وأن يكفر عنا ذنوبنا، ويحسن ختامنا، وينور صدورنا إنه جواد كريم، وعلى كل شي قدير، وبالإجابة جدير، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

1. مسند أحمد، من مسند بني هاشم، مسند ابن عباس رضي الله عنه، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف.
2. صحيح مسلم، كتاب الصوم، باب جواز صوم النافلة بنية من النهار قبل الزوال وجواز فطر الصائم نفلاً من غير عذر.

الرسول الأسوة ﷺ وشهر شعبان

شهر شعبان شهر من شهور السنة القمرية، ويأتي بين شهري رجب ورمضان، وفي شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة النبوية الشريفة فرضت على المسلمين فريضة الصيام، فاختص هذا الشهر بهذا الفضل الكبير، ومعلوم أن فريضة الصيام هي ركن هام من الأركان التي قام عليها الإسلام، فقد ورد في الحديث الشريف عن الرسول ﷺ: "بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ؛ شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِقَامِ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ الْبَيْتِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ"([1])، وقد ثبتت فريضة الصيام في الكتاب والسنة النبوية الشريفة، وأجمعت الأمة على ذلك، فهذه الفريضة مما علم من الإسلام بالضرورة، ولذلك يؤمن من يعتقدها، ويكفر منكرها.

كما أن هذه الفريضة العظيمة لم تكن بدعا على أمتنا بل هي فريضة الله تعالى على الأمم من قبلنا، فالله جل وعلا يقول:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} ([2])، فما من أمة من الأمم إلا طالبها الله بالصيام، وفرضه عليها، وجعله عبادة لها، وقد أكرم الله أمتنا بهذه الفريضة التي حدد صيامها في شهر رمضان المبارك، فقال الله تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} ([3])، وقد تلقت الأمة الإسلامية هذه الفريضة بالقبول، فصام رسول الله ﷺ ومعه الصحابة الكرام، وصام المسلمون بعد ذلك.

---

1. صحيح مسلم، كتاب الإيمان ، باب بيان أركان الإسلام و دعائمه العظام.
2. البقرة: 183.
3. البقرة: 185.

وقد اختص الله تعالى هذه الفريضة من بين أعمال العباد لنفسه، وأثاب عليها بالجزيل، فقد ورد في الحديث القدسي يقول عز وجل: "كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ، إلا الصِّيَامَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلا يَرْفُثْ يَوْمَئِذٍ، وَلا يَسْخَبْ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ، أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا، إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ بِفِطْرِهِ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ"[1]، كما أن الصيام سبب في تكفير الخطايا والذنوب، فالرسول ﷺ يقول " عَنْ الأَعْمَشِ قَالَ: حَدَّثَنِي شَقِيقٌ: قَالَ سَمِعْتُ حُذَيْفَةَ: قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ يَحْفَظُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْفِتْنَةِ؟ قُلْتُ: أَنَا كَمَا قَالَهُ، قَالَ: إِنَّكَ عَلَيْهِ أَوْ عَلَيْهَا لَجَرِيءٌ، قُلْتُ: فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ تُكَفِّرُهَا الصَّلاةُ وَالصَّوْمُ وَالصَّدَقَةُ وَالأَمْرُ وَالنَّهْيُ، قَالَ: لَيْسَ هَذَا أُرِيدُ، وَلَكِنْ الْفِتْنَةُ الَّتِي تَمُوجُ كَمَا يَمُوجُ الْبَحْرُ، قَالَ: لَيْسَ عَلَيْكَ مِنْهَا بَأْسٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا بَاباً مُغْلَقاً، قَالَ: أَيُكْسَرُ أَمْ يُفْتَحُ؟ قَالَ: يُكْسَرُ، قَالَ: إِذًا لا يُغْلَقَ أَبَداً، قُلْنَا: أَكَانَ عُمَرُ يَعْلَمُ الْبَابَ، قَالَ: نَعَمْ؛ كَمَا أَنَّ دُونَ الْغَدِ اللَّيْلَةَ، إِنِّي حَدَّثْتُهُ بِحَدِيثٍ لَيْسَ بِالأَغَالِيطِ، فَهِبْنَا أَنْ نَسْأَلَ حُذَيْفَةَ، فَأَمَرْنَا مَسْرُوقاً، فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: الْبَابُ عُمَرُ".([2])

وفي الجنة باب يسمى الريان يدخل منه الصائمون يوم القيامة فقد جاء في الحديث: "إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَاباً يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ، يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لا يَدْخُلُ مَعَهُمْ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ، فَيَدْخُلُونَ مِنْهُ، فَإِذَا دَخَلَ آخِرُهُمْ، أُغْلِقَ، فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَد "([3])، ولما للصيام من فضيلة؛ فقد كان رسول الله ﷺ يخص بعض الأيام وبعض الشهور بالصيام، لميزتها وفضلها على غيرها، ومن هذه الشهور شهر شعبان الذي نستظل بأيامه الفاضلة حالياً بانتظار حلول شهر رمضان، شهر الصيام والتراويح، والتسابيح، وشهر المغفرة، والرحمة والرضوان، وقد ورد في فضل الصيام في شهر شعبان أحاديث نبوية كثيرة، منها: ما روي عن أم المؤمنين عائشة، رضي الله

1. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب فضل الصيام.
2. صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلاة كفارة.
3. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب الريان للصائمين.

عنها، قالت: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصُومُ حَتَّى نَقُولَ لا يُفْطِرُ، وَيُفْطِرُ حَتَّى نَقُولَ لا يَصُومُ، وَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اسْتَكْمَلَ صِيَامَ شَهْرٍ قَطُّ إِلا رَمَضَانَ، وَمَا رَأَيْتُهُ فِي شَهْرٍ أَكْثَرَ مِنْهُ صِيَاماً فِي شَعْبَانَ"[1]، وفي حديث آخر أخرجه أحمد في مسنده عن أسامة بن زيد: ".... قُلْتُ: وَلَمْ أَرَكَ تَصُومُ مِنْ شَهْرٍ مِنَ الشُّهُورِ مَا تَصُومُ مِنْ شَعْبَانَ، قَالَ: ذَاكَ شَهْرٌ يَغْفُلُ النَّاسُ عَنْهُ، بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ، وَهُوَ شَهْرٌ يُرْفَعُ فِيهِ الأَعْمَالُ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي، وَأَنَا صَائِمٌ"[2]، وخير ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى بعد الفرائض هي النوافل، فقد جاء في الحديث الشريف: "إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ؛ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ ".[3]

ولقد ذهب بعض العلماء إلى استحباب الصيام في شهر شعبان على سواه، فقالوا: إن صيام شعبان أفضل من الصيام في غيره من الشهور، لأن أفضل التطوع بالصيام، فإن كان قريباً من صيام فرض رمضان قبله أو بعده لأنه يلتحق بصيام رمضان لقربه منه، فيكون لصيام رمضان بمنزلة السنن والرواتب مع الفرائض قبلها وبعدها. فصوم شعبان كالقبلية لرمضان وصيام ست شوال كالبعدية لرمضان، إذ السنن الرواتب أفضل من التطوع المطلق بالنسبة إلى الصلاة فكذلك يكون صيام ما قبل رمضان وما بعده أفضل من الصيام المطلق الذي لا يتصل به، فلهذه المعاني وغيرها كان النبي ﷺ يكثر من الصيام في شهر شعبان، ويغتنم وقت غفلة الناس وهو ﷺ الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ولذلك كان سلفنا الصالح، رضوان الله عليهم، يجدون في شعبان، ويهيئون أنفسهم لشهر رمضان، قال أبو بكر البلخي: شهر رجب شهر الزرع،

1. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب صيام النبي في غير رمضان.
2. مسند أحمد، مسند الأنصار، حديث أسامة بن زيد حب رسول الله، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن.
3. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع.

وشهر شعبان شهر سقي الزرع، وشهر رمضان شهر حصاد الزرع، فلنهيئ أنفسنا إخوة الإيمان في شهر شعبان لسقي مزروعات أعمالنا الخيرة، كي نحصد ثماراً يانعة في شهر رمضان المقبل، شهر الصيام، والقرآن، والعبادة والقيام، شهر الخير، وشهر الرحمة والمغفرة، فهذا حال سلفنا الصالح في شهر شعبان، فعسى أن يكون حالنا مثلهم، ولا نكون غير ذلك، كما قيل:

مضى رجب وما أحسنت فيه وهذا شهر شعبان المبارك
فيا من ضيع الأوقات جهلا بحرمتها أفق واحذر بوارك
فسوف تفارق اللذات قهرا ويخلي الموت قهراً منك دارك
تدارك ما استطعت من الخطايا بتوبة مخلص واجعل مدارك
على طلب السلامة من جحيم فخير ذوي الجرائم من تدارك

وما دام شهر شعبان كما أخبر النبي ﷺ بأنه شهر يغفل الناس عنه، فالإقبال على عمل الخير فيه، ومن ذلك الصيام، فيه ثواب كبير، وتدارك لما فات الإنسان من أعمال الخير، فالعمل في وقت الغفلة أشد على النفس من العمل في وقت اليقظة، حيث انخراط الجميع في الطاعة، والنفس تقتدي في حال النشاط، وتتراجع في حال الغفلة والاسترخاء.

فما دام شهر شعبان شهر يغفل الناس عنه، فلنحرص أيها المؤمنون أن نكون متنبهين إليه، لنستغل أيامه في الصيام وتلاوة القرآن وأعمال الخير، استعداداً لاستقبال شهر رمضان بهمة عالية، وقد تمرنّا على الصيام والطاعات، فندخل إلى رمضان بقوة وحيوية ونشاط، نسأل الله تعالى العون على الطاعات في شعبان، ورمضان، وسائر أيامنا وأشهرنا حتى نلقاه، وهو راضٍ عنا بعفوه وكرمه.

وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأسوة محمد، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم، واتبع سنتهم إلى يوم الدين.

عَنْ ابْنِ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: "فَرَضَ النَّبِيُّ ﷺ صَدَقَةَ الْفِطْرِ، أَوْ قَالَ رَمَضَانَ، عَلَى الذَّكَرِ وَالأُنْثَى، وَالْحُرِّ وَالْمَمْلُوكِ، صَاعاً مِنْ تَمْرٍ، أَوْ صَاعاً مِنْ شَعِيرٍ، فَعَدَلَ النَّاسُ بِهِ نِصْفَ صَاعٍ مِنْ بُرٍّ، فَكَانَ ابْنُ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يُعْطِي التَّمْرَ، فَأَعْوَزَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ مِنْ التَّمْرِ، فَأَعْطَى شَعِيرًا، فَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يُعْطِي عَنْ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ، حَتَّى إِنْ كَانَ لِيُعْطِي عَنْ بَنِيَّ، وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يُعْطِيهَا الَّذِينَ يَقْبَلُونَهَا، وَكَانُوا يُعْطُونَ قَبْلَ الْفِطْرِ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ".([1])

فصدقة الفطر تندرج ضمن الصدقات التي أمر الله بها، وحث على إخراجها، للطهارة والتزكي، والله تعالى يقول: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا...}([2])، ويقول سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}.([3])

ومما ورد في فتح الباري بشرح صحيح البخاري عن صدقة الفطر وأحكامها ضمن كتاب الزكاة، أنها تنسب إلى الفطر لكونها تجب بالفطر من رمضان، وتسمى صدقة الفطر، وزكاة الفطر.

وزكاة الفطر فرض، وهي واجبة دون الفرض عند الحنفية، وهناك من اعتبرها سنة، فنقل المالكية عن أشهب أنها سنة مؤكدة، وهو قول بعض أهل الظاهر وابن اللبان من الشافعية. ([4])

1. صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب صدقة الفطر على الحر والمملوك.
2. التوبة: 103.
3. المجادلة: 12.
4. فتح الباري، ج 3، ص368.

وتجب صدقة الفطر على النفوس، بعكس الزكاة التي تجب على الأموال، سواء أكانت ذهباً وفضة، أم زروعاً وثماراً، أم أنعاماً، أم عروض تجارة.

وهي تجب على الشخص عن نفسه ومن يعول، صغاراً وكباراً، ذكوراً وإناثاً، وهي تجب على المرأة سواء أكان لها زوج أم لا، وبه قال الثوري وأبو حنيفة وابن المنذر، وقال مالك والشافعي والليث وأحمد وإسحاق: تجب على زوجها إلحاقاً بالنفقة.

وبالنسبة إلى وجوبها على الصغير، فتجب في ماله، وإلا فعلى من تلزمه نفقته، وهذا قول الجمهور، وقال محمد بن الحسن: هي على الأب مطلقاً، فإن لم يكن له أب فلا شيء عليه، وعن سعيد بن المسيب والحسن البصري: لا تجب إلا على من صام -زكاة الفطر-، واستدل لهما بحديث ابن عباس مرفوعاً : "زَكَاةَ الْفِطْرِ طُهْرَةً لِلصَّائِمِ مِنْ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ".([1])

وأجيب بأن ذكر التطهير خروج على الغالب، ونقل ابن المنذر الإجماع على أنها لا تجب على الجنين، قال: وكان أحمد يستحبه ولا يوجبه، ونقل بعض الحنابلة رواية عنه بالإيجاب، وبه قال ابن حزم، لكن قيده بمائة وعشرين يوماً من يوم حمل أمه به، وتعقب بأن الحمل غير محقق، وبأنه لا يسمى صغيراً لغةً ولا عرفاً، واستدل بقوله في حديث ابن عباس: "طُهْرَةً لِلصَّائِمِ".

وهي تجب على الفقير كما تجب على الغني، وقد ورد ذلك صريحاً في حديث أبي هريرة عند أحمد، وفي حديث ثعلبة ابن أبي صغير عند الدارقطني، وعند الحنفية لا تجب إلا على من ملك نصاباً، ومقتضاه أنها لا تجب على الفقير على قاعدتهم في الفرق بين الغني والفقير، واستدل لهم بحديث أبي هريرة: "خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى"([2])، واشترط الشافعي ومن تبعه أن يكون ذلك فاضلاً عن قوت يومه ومن تلزمه نفقته. وقال ابن بزيزة: لم يدل دليل على اعتبار النصاب فيها، لأنها زكاة بدنية لا مالية.

---

1. سنن أبي داود، كتاب الزكاة، باب فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث، وحسنه الألباني.
2. صحيح البخاري، كِتَاب الزَّكَاة، بَاب لا صَدَقَةَ إِلا عَنْ ظَهْرِ غِنًى.

وقت وجوبها:

غروب الشمس ليلة الفطر، لأنه وقت الفطر من رمضان، وقيل: وقت وجوبها طلوع الفجر من يوم العيد، لأن الليل ليس محلاً للصوم، وإنما يتبين الفطر الحقيقي بالأكل بعد طلوع الفجر، والأول قول الثوري، وأحمد وإسحاق والشافعي في الجديد وإحدى الروايتين عن مالك، والثاني قول أبي حنيفة والليث والشافعي في القديم، والرواية الثانية عن مالك، ويقويه قوله في حديث الباب: "وأمر بها أن تؤدى قبل خروج الناس إلى الصلاة". قال المازري: قيل إن الخلاف ينبني على أن قوله: "الفطر من رمضان" الفطر المعتاد في سائر الشهر، فيكون الوجوب بالغروب، أو الفطر الطارئ بعد، فيكون بطلوع الفجر، وقال ابن دقيق العيد: الاستدلال بذلك لهذا الحكم ضعيف، لأن الإضافة إلى الفطر لا تدل على وقت الوجوب، بل تقتضي إضافة هذه الزكاة إلى الفطر من رمضان.

وتخرج صدقة الفطر قبل صلاة عيد الفطر، لحديث ابن عمر: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ بِزَكَاةِ الْفِطْرِ أَنْ تُؤَدَّى قبل خُرُوجِ الناس إلى الصَّلَاةِ". ([1])

وحدد الرسول ﷺ الأصناف التي تخرج منها صدقة الفطر، ورد في صحيح البخاري عن ابن عمر، رضي الله عنهما، قوله: (صاعاً من تمر، أو صاعاً من شعير)، ولم تختلف الطرق في الصحيحين عن ابن عمر في الاقتصار على هذين الشيئين، وورد في صحيح مسلم عن أبي سعيد الْخُدْرِيَّ قوله: "كنا نُخْرِجُ زَكَاةَ الْفِطْرِ صَاعًا من طَعَامٍ، أو صَاعًا من شَعِيرٍ، أو صَاعًا من تَمْرٍ، أو صَاعًا من أَقِطٍ، أو صَاعًا من زَبِيبٍ".([2])

وفيه أيضاً عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قال: "كنا نُخْرِجُ - إِذْ كان فِينَا رسول اللَّهِ ﷺ زَكَاةَ الْفِطْرِ عن كل صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ، حُرٍّ أو مَمْلُوكٍ، صَاعًا من طَعَامٍ، أو صَاعًا من أَقِطٍ، أو صَاعًا من شَعِيرٍ، أو صَاعًا من تَمْرٍ، أو صَاعًا من زَبِيبٍ، فلم نَزَلْ نُخْرِجُهُ حتى قَدِمَ عَلَيْنَا مُعَاوِيَةُ بن أبي سُفْيَانَ حَاجًّا أو مُعْتَمِرًا، فَكَلَّمَ الناس على الْمِنْبَرِ، فَكَانَ فِيمَا كَلَّمَ بِهِ الناس أَنْ قال: إني أَرَى أَنَّ مُدَّيْنِ من

1. صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب الأمر بإخراج زكاة الفطر قبل الصلاة.

2. صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر على المسلمين في التمر والشعير.

سَمْرَاءِ الشَّامِ تَعْدِلُ صَاعًا من تَمْرٍ، فَأَخَذَ الناس بِذَلِكَ، قال أبو سَعِيدٍ: فَأَمَّا أنا فلا أَزَالُ أُخْرِجُهُ كما كنت أُخْرِجُهُ أَبَدًا ما عِشْتُ".([1])

ويجدر التنبيه في هذا المقام أنه صدر عن مجلس الإفتاء في فلسطين قبيل البدء بشهر رمضان لهذا العام 1431هـ بيان تضمن تحديد مقدار صدقة الفطر وفدية الصيام، ومقدار نصاب زكاة المال لهذا العام، وأشار البيان إلى أن السنة النبوية الشريفة أوضحت بأن صدقة الفطر بالكيل هي صاع واحد بصاع المدينة المنورة، ويرى جمهور الفقهاء أن مقدارها وزناً: (2176)غم أي (2كغم و 176غم) على الأقل من غالب قوت البلد، كالقمح والخبز والطحين عندنا.

وأجاز الحنفية إخراجها نقداً إذا كان ذلك أيسر للمعطي، وأنفع للآخذ، ولا يشترط لوجوب صدقة الفطر الغنى أو النصاب، بل تجب على الذي يملك ما يزيد عن قوته وقوت عياله يوماً وليلة.

فمن أراد إخراجها نقداً فإن قيمة صدقة الفطر لهذا العام تقدر: بـ(8 شواقل، أو ما يعادلها بالعملات الأخرى)، ومن شاء أن يزيد تطوعاً فهو خير له.

وتجب صدقة الفطر على الشخص المكلف عن نفسه، وعمن تلزمه نفقته من المسلمين كباراً وصغاراً، فقد روى الصحابي عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، أنه قال: "فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَكَاةَ الْفِطْرِ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ، عَلَى الْعَبْدِ وَالْحُرِّ، وَالذَّكَرِ وَالأُنْثَى، وَالصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ، وَأَمَرَ بِهَا أَنْ تُؤَدَّى قَبْلَ خُرُوجِ النَّاسِ إِلَى الصَّلاَةِ".([2])

ويجوز تعجيل صدقة الفطر خلال شهر رمضان المبارك، ليتسنى للفقراء والمساكين سد حاجاتهم الضرورية، ولا يجوز شرعاً تأخيرها إلى ما بعد أداء صلاة عيد الفطر، فمن لم يخرجها في الوقت المشار إليه، فإنها تبقى في ذمته، وعليه إخراجها بعد ذلك، وتعتبر صدقة من الصدقات، والذي يؤخرها إلى ما بعد صلاة العيد دون عذر يأثم، ومن ثمرات صدقة الفطر أنها طهرة للصائم، وإسعادٌ للفقراء في يوم العيد.

---

1. صحيح مسلم، كتاب الزكاة عن رسول الله، باب ما جاء في صدقة الفطر.
2. صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب فرض صدقة الفطر.

مقدار فدية الصوم

يتوجب على المريض مرضاً مزمناً -لا يرجى برؤه-، أو الشخص الطاعن في السن، الذي لا يقوى على الصوم إخراج فدية الصوم، ومقدارها : (إطعام مسكين وجبتين) عن كل يوم يفطر فيه، مع مراعاة مستوى ما ينفق على طعام العائلة التي تخرج الفدية، على أن لا تقل قيمة الفدية عن قيمة صدقة الفطر، لقوله تعالى: {فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ، وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ، فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ، وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ }.[1]

نصاب زكاة المال

يقدر نصاب زكاة المال بالذهب والفضة، ووزن نصاب الذهب عشرون مثقالاً، ونصاب الفضة مئتا درهم، وكان الصحابة، رضوان الله عليهم، يستعملون لفظ المثقال أو الدينار للذهب، ويستعملون لفظ الدرهم للفضة، ولما كانت العملات المتداولة في العالم هذه الأيام هي عملات ورقية مدعمة بالذهب غالباً، فإن مجلس الإفتاء الأعلى يرى أن يعتمد نصاب الذهب، وبما أن المثقال -أي الدينار الذهبي- الواحد يساوي أربعة غرامات وربع الغرام (4.25غم) على رأي جمهور الفقهاء، أخذاً بمثقال المدينة المنورة، فيكون نصاب الذهب خمسة وثمانين غراماً أي (20 × 4.25 = 85غم).

وبناء عليه؛ وفي ضوء سعر الذهب في الأسواق المحلية، عند إصدار هذه الفتوى، فإن مقدار نصاب الزكاة يقدر بـ (2200) دينار أردني أو ما يعادلها من العملات الأخرى، ويخضع هذا التقدير للتعديل تبعاً لما يطرأ على سعر الذهب من ارتفاع أو انخفاض عند إخراج الزكاة في فترات أخرى.

وتقبل الله منا صالح الأعمال وحسن الطاعة والعبادة والصيام والصدقة، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الكرام، وصحبه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. البقرة: 184.

عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، أنه قال: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْرُجُ يَوْمَ الْفِطْرِ وَالأَضْحَى إِلَى الْمُصَلَّى، فَأَوَّلُ شَيْءٍ يَبْدَأُ بِهِ الصَّلاَةُ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَيَقُومُ مُقَابِلَ النَّاسِ، وَالنَّاسُ جُلُوسٌ عَلَى صُفُوفِهِمْ، فَيَعِظُهُمْ، وَيُوصِيهِمْ، وَيَأْمُرُهُمْ، فَإِنْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَقْطَعَ بَعْثًا قَطَعَهُ، أَوْ يَأْمُرَ بِشَيْءٍ أَمَرَ بِهِ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ".([1])

يحتفل المسلمون بعيد الفطر السعيد، بعد أن انتهوا من صيام شهر رمضان المبارك، وبعد أن تأسوا برسولهم ﷺ في أداء صلاة العيد على الوجه المشروع، وهم في العيد يعيشون فرحة التمكن من أداء فرض الصيام، وفرحة الفوز بالجائزة التي أعدها الله لعباده الصائمين، فقد ورد في الحديث الصحيح عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: "لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا؛ إذا أَفْطَرَ فَرِحَ، وإذا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ".([2])

فهنيئاً لمن وفقه الله لصيام رمضان، ونيل جائزة الرحمن، يوم تعرض أعمال العباد، ويتميز الصائمون بما خصهم الله به من ثواب، وهم قبل ذلك يفرحون بفطرهم؛ بعد أن يسر الله لهم الصيام، فيصبحون يوم عيدهم مبتهجين، يكبرون الله، ويشكرونه، ويزورون الأقارب والأرحام، يتبادلون وإياهم التهاني بالعيد، والدعاء بقبول الطاعة، فتلك عادات حسنة، وبعضها يصل حكم فعله حد الوجوب، فينبغي صلة الرحم في مثل هذا اليوم المبارك، والمسلمون يراعون هذه الصلة في عاداتهم الحسنة، التي ترد في سياق الاستجابة للحث العام على صلة الرحم المتضمن

1. صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب الخروج إلى المصلى بغير منبر.
2. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب هل يقول إني صائم إذا شتم.

في نصوص الشرع الحنيف وأحكامه، فعن أَنَسِ بن مَالِكٍ، رضي الله عنه، قال: "سمعت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: "من سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ له في رِزْقِهِ، أو يُنْسَأَ [1] له في أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ".[2]

والله سبحانه ينكر على من يقطعون الأرحام، فيقول سبحانه في محكم كتابه العزيز: {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ}.[3]

وعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَقُولُ: مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللَّهُ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللَّهُ".[4]

ومفهوم الرحم المطلوب من المسلم صلتها والإحسان إليها، يشمل رحم عامة؛ ورحم الدين، ورحم خاصة؛ وهم الأقارب، ورحم القريب غير المسلم، ويفصل الدكتور أحمد عمر هاشم -أستاذ السنة النبوية والرئيس السابق لجامعة الأزهر- في بيان هذه الأنواع والواجب نحوها، ووجوه صلتها، فيقول: فأما الرحم العامة؛ فتجب صلتها بالتواد والتناصح، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وما إلى ذلك من الحقوق الواجبة والمندوبة.

وأما الرحم الخاصة؛ وهي التي كثرت التوجيهات النبوية حولها، ومن بينها الأحاديث السابقة، فتكون صلتها بزيادة النفقة على الأقارب، وتفقد أحوالهم، والتسامح معهم، وقضاء حوائجهم، وكل ما فيه نفع ديني أو دنيوي يعود عليهم.

---

1. من النسأ، بفتح النون، وسكون السين المهملة، وبالهمزة في آخره، وهو التأخير، أي يؤخر له في أثره، أي في أجله، وأثر الشيء: هو ما يدل على وجوده ويتبعه، والمراد به ههنا الأجل، وسمي به لأنه يتبع العمر، فإن قلت: الآجال مقدرة، وكذا الأرزاق، لا تزيد ولا تنقص، {فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون} قلت: أجيب عن هذا بوجهين؛ أحدهما أن هذه الزيادة بالبركة في العمر بسبب التوفيق في الطاعات، وصيانته عن الضياع، وحاصله أنها بحسب الكيف لا الكم، والثاني: أن الزيادة على حقيقتها، وذلك بالنسبة إلى علم الملك الموكل بالعمر، وإلى ما يظهر له في اللوح المحفوظ بالمحو والإثبات فيه، يمحو الله ما يشاء ويثبت، كما أن عمر فلان ستون سنة إلا أن يصل رحمه، فإنه يزاد عليه عشرة وهو سبعون، وقد علم الله عز وجل بما سيقع له من ذلك، فبالنسبة إلى الله تعالى لا زيادة ولا نقصان، ويقال له: القضاء المبرم، وإنما يتصور الزيادة بالنسبة إليهم، ويسمى مثله بالقضاء المعلق، ويقال: المراد بقاء ذكره الجميل بعده، فكأنه لم يمت، وهو إما بالعلم الذي ينتفع به، أو الصدقة الجارية، أو الخلف الصالح. (عمدة القاري، ج22، ص91).

2. صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب من أحب البسط في الرزق.

3. محمد: 22.

4. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها.

وأما القريب غير المسلم، فقد أجاز الإسلام صلته والإحسان إليه، للرحم التي يرتبط الإنسان بها معه.

قال عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ: "سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ جِهَاراً غَيْرَ سِرٍّ يَقُولُ: إِنَّ آلَ أَبِي لَيْسُوا بِأَوْلِيَائِي، إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللَّهُ، وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَكِنْ لَهُمْ رَحِمٌ أَبُلُّهَا بِبَلاهَا، يَعْنِي أَصِلُهَا بِصِلَتِهَا".([1])

ويستطرد الدكتور هاشم في بيان وجوه صلة الرحم، فبين أن منها ما يكون بالمال، ومنها ما يكون بتفقد أحوالهم وقضاء مصالحهم، وهي ليست خاصة بمن يصلون المودة، بل إن المسلم مطالب بأن يصل جميع رحمه، سواء أحسنوا إليه أم أساؤوا.. فقد قال صلوات الله وسلامه عليه: "لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ، وَلَكِنْ الْوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا"([2])، وروي عن أبي هريرة، رضي الله عنه، "أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ، وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ، فَقَالَ: لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ، فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمْ الْمَلَّ، وَلا يَزَالُ مَعَكَ مِنْ اللَّهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ".([3])

والمعنى الشامل لوجوه الصلة هو إيصال ما يمكن من الخير، ودفع ما يمكن من الشر، ويختلف ذلك باختلاف القدرة والحاجة، فمنها ما هو واجب، ومنها ما هو مستحب، فمن وصل بعض الصلة ولم يصل غايتها لا يسمى قاطعاً، ولو قصر عما يقدر وينبغي له؛ لا يسمى واصلاً... وقد قال بعض العلماء: "إن صلة الرحم تكون بالمال والعون على الحاجة، وبدفع الضرر، وبطلاقة الوجه وبالدعاء.. ويشمل الجميع إيصال كل خير، ودفع كل شر حسب الطاقة".([4])

والأفضل أن لا يقتصر التزاور في العيد على ذي الرحم، ليشمل الأقارب والأصدقاء والجيران، فذلك مما يشيع المحبة بين الناس، ويوطد العلاقات الطيبة، وهو من وسائل مكافحة داء الشحناء والبغضاء، الذي ابتلي به كثير من الناس، ويصل الأمر بهم إلى الإصرار على التلبس بهذا الداء البغيض، دون رادع من مناسبة تستدعي التواصل ونبذ التدابر، ورَسُولَ اللَّهِ ﷺ

1. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب تبل الرحم ببلاها.
2. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ليس الواصل بالمكافئ.
3. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها.
4. http://www.shamsqatar.com/vb/f2/t82775.html

يقول: "لا تَبَاغَضُوا، وَلا تَحَاسَدُوا، وَلا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَلا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ".[1]

وحذر الرسول ﷺ من عواقب المشاحنة والخصام بين المؤمنين، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:"تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الإِثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا، إِلا رَجُلاً كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا ...".[2]

والعيد يهتف بنا أن نوحد الصف، ونلم الشعث، ونحسن إلى الأيتام والأرامل والمساكين، ونتفقد أبناء الشهداء والأسرى والمعتقلين، ونمسح بيد الرحمة الحزن عن وجه طفل فقد أباه، ونواسي معوزاً بمد يد العون لمساعدته وإغاثته، ونشيع المحبة بين أبناء المجتمع، وبيّن، عليه الصلاة والسلام، فضل الذي يمد يد العون لهذه الشريحة من الناس، ومقامه عند الله عز وجل، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ، كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ الْقَائِمِ اللَّيْلَ، الصَّائِمِ النَّهَارَ".[3]

وعَنْ سَهْلٍ قَالَ: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا، وَقَالَ: بِإِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى".[4]

وعن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَلَسَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى الْمِنْبَرِ، وَجَلَس الصحابة حَوْلَهُ، فكان مما قَالَه لهم: "... وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَنِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ مَا أَعْطَى مِنْهُ الْمِسْكِينَ وَالْيَتِيمَ وَابْنَ السَّبِيلِ، أَوْ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، وَإِنَّهُ مَنْ يَأْخُذْهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ؛ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلا يَشْبَعُ، وَيَكُونُ شَهِيدًا عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ".[5]

---

1. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر.
2. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن الشحناء والتهاجر.
3. صحيح البخاري، كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل.
4. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من يعول يتيماً.
5. صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الصدقة على اليتامى.

وإذا حرصنا على صلة الرحم والأقارب والإحسان إلى المحتاجين، إلى جانب أداء شعائر يوم العيد كنا محتفين بحق وحقيقة بيوم عيد الفطر، الذي نسأل الله تعالى أن يعيده على أبناء شعبنا الفلسطيني، وعلى أبناء أمتنا الإسلامية بعز المسلمين ونصرهم، وما ذلك على الله بعزيز، إن نحن اتبعنا هدي رسولنا الأسوة ﷺ.

وينطلق كثير ممن صاموا رمضان واحتفلوا بعيد الفطر إلى متابعة الصيام بعده لتحصيل ثواب صيام الدهر وفضله، حيث شرع الرسول ﷺ لمن صام رمضان أن يصوم ستة أيام من شوال، ليحظى بأجر صيام الدهر، فقد روى أبو أيوب، رضي الله عنه: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: مَنْ صَامَ رَمَضَانَ، ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ، كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ".([1])

وصيام الستة يجوز أن يبدأ به مباشرة بعد انقضاء يوم عيد الفطر، أو على التراخي من ذلك، فيبدأ به في اليوم الثالث أو الرابع أو بعد ذلك من أيام الشهر، ويجوز أن يصومها على التوالي أو متقطعات، والذي فاته صيام من رمضان، فالأفضل أن يبدأ بقضائه، ثم يصوم الستة من شوال إلا إذا لم يبق متسع لذلك، فيجوز له حينها تقديم صيام الستة على القضاء خوفاً من أن يفوته فضل صيامها وثوابه.

ويتساءل بعض الصائمين عن أكلهم أو شربهم حالة النسيان خلال صوم يوم التطوع، وجواب ذلك أن لا فرق في العفو عمن أكل ناسياً خلال صومه؛ سواء أكان يصوم فرضاً أم تطوعاً، فكلهم مشمولون في قوله ﷺ: "مَنْ أَكَلَ نَاسِيًا وَهُوَ صَائِمٌ، فَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ، إِنَّمَا أَطْعَمَهُ اللَّهُ وَسَقَاهُ". ([2])

فما أحرانا، ونحن نحتفل بعيد الفطر، أن نتحرى هدي المصطفى ﷺ في يوم العيد، ليكون هذا اليوم تتويجاً لطاعة الصيام، واستزادة في طلب الثواب، الذي يحصل من خلال الاقتداء بسنة المصطفى، عليه أفضل الصلاة والسلام.

---

1. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب استحباب صوم ستة أيام من شوال إتباعاً لرمضان.
2. صحيح البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنث ناسياً في الأيمان.

وفي المقابل يجدر التنبيه إلى ضرورة نبذ العادات السيئة التي ترافق الاحتفال بيوم العيد، كقضاء يوم العيد في اللهو بالحرام، واقتراف المنكرات والمنهيات، واللعب بالمفرقعات المؤذية لمن يلعب بها، ومن يحيطون به، وهي جديرة بالمقاطعة، حيث نشر أن معظمها يصنع في المستوطنات التي يجب مقاطعة مصنوعاتها وطنياً ودينياً.

وبالنسبة إلى زيارة القبور يوم العيد؛ فتلك عادة غير محمودة، فالعيد للبهجة والسرور، والتوسعة على العيال، وليس لفتح ملفات الأحزان، وتجديد الصلة بأيام العزاء التي فات وقتها، ومن غايات زيارة القبور الدعاء للأموات، والاتعاظ من حالهم، لأنهم كانوا قبل وفاتهم أحياء، ونحن سنصبح بعد حين مثلهم أمواتاً، والرسول ﷺ أذن بزيارة القبور دون أن يربط ذلك بمناسبات معينة، فعَنْ ابْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا...".([1])

والذي ورد عن الرسول ﷺ أنه كان إذا زار القبور سلم على أهلها، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى الْمَقْبُرَةَ، فَقَالَ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ دَارَ ([2]) قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لاحِقُونَ...".([3])

وأخيراً، ندعو الله عز وجل أن يتقبل منا الطاعة، وأن يثبتنا على الحق والصراط المستقيم، وأن يشملنا برحمته وعفوه وإحسانه وبشائر نصره، إنه سبحانه للدعاء سميع مجيب.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد الأسوة، وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن اقتدى واهتدى بهداه إلى يوم الدين.

---

1. صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ربه عز وجل في زيارة قبر أمه.
2. الجماعة أو أهل الدار.
3. صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء.

الرسول الأسوة محمد ﷺ هديه في الأيام العشر من ذي الحجة

من نعم الله تعالى على هذه الأمة الكريمة اختصاصها بمواسم الخير والفضل، حيث الأجور المضاعفة والثواب العظيم من الله عز وجل لمن التزم بالطاعة في هذه المواسم، واستغل أيامها ولياليها في العبادة والذكر والتلاوة وأداء ما افترض الله عليه من عبادات وطاعات، ومن هذه المواسم الأيام العشر الأولى من شهر ذي الحجة.

فقد ورد ذكر هذه الأيام ولياليها في كتاب الله تعالى، وما ذلك إلا لفضلها وبركتها، وفضل الأعمال الصالحة فيها لمن وفقه الله جل وعلا لطاعته، وهداه لخيره وفضله.

وقد أقسم الله بها في قوله تعالى: {وَالْفَجْرِ* وَلَيَالٍ عَشْرٍ* وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ} [1]، قال ابن كثير، رحمه الله، : المراد بها عشر ذي الحجة.

وفي قوله تعالى: {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ} [2]، قال ابن عباس، رضي الله عنهما: "أيام العشر".

كما أشار الرسول ﷺ إلى فضل هذه الأيام في أحاديثه الشريفة، منها قوله ﷺ: "مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الأَيَّامِ (يَعْنِي أَيَّامَ الْعَشْرِ)، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ وَلا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: وَلا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ"[3]، وفي الحديث دلالة على أن العمل في هذه الأيام العشر أحب إلى الله تعالى من العمل في أيام الدنيا كلها، من غير استثناء شيء منها، وإذا كان أحب إلى الله فهو أفضل عنده.

---

1. الفجر: 1-3.
2. الحج: 28.
3. سنن أبي داود، كتاب الصوم، باب في صوم العشر، وصححه الألباني.

وفي فضل العمل، ومضاعفة ثوابه، ما ورد عن النبي ﷺ: "... الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ"[1]، وفي القرآن الكريم شاهد بذلك، {مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}.[2]

قال أنس بن مالك: "كان يقال في أيام العشر: بكل يوم ألف يوم، ويوم عرفة عشرة آلاف"، قال الحافظ ابن حجر في الفتح: "والذي يظهر أن السبب في امتياز العشر من ذي الحجة لمكان اجتماع أمهات العبادة فيه؛ وهي الصلاة والصيام والصدقة والحج، ولا يتأتى ذلك في غيره".

ويوم عرفة من هذه الأيام المباركة، أقسم الله عز وجل به في كتابه الكريم، فقال: {وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ}، وهو المشهود لقوله ﷺ: "الشَّاهِدُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَالْمَشْهُودُ يَوْمَ عَرَفَةَ، وَالْمَوْعُودُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ".[3]

كما أنه يوم المغفرة والتجاوز عن الذنوب والعتق من النار، لقوله، عليه الصلاة والسلام: "مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتِقَ اللَّهُ فِيهِ عَبْدًا مِنْ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَإِنَّهُ لَيَدْنُو، ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمْ الْمَلَائِكَةَ، فَيَقُولُ: مَا أَرَادَ هَؤُلَاءِ".[4]

إذا علم هذا الفضل لهذه الأيام العشر، فعلى كل عاقل حريص على الفوز في دنياه وآخرته أن يتاجر مع ربه ومولاه بالتجارة الرابحة من الأعمال الصالحة، وأن يستغل شرف الزمان بمضاعفة أجوره قبل فوات الأوان، كي لا يندم في ساعة لا ينفع فيها الندم.

---

1. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب حسن إسلام المرء.
2. البقرة: 261.
3. مسند أحمد، باقي مسند المكثرين، مسند أبي هريرة، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.
4. صحيح مسلم، كتاب الحج، باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة.

ومن هدي النبي ﷺ في هذه الأيام أنه كان يصومها، فقد روت حفصة أم المؤمنين، رضي الله عنها، أن "رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَصُومُ تِسْعَ ذِي الْحِجَّةِ، وَيَوْمَ عَاشُورَاءَ وَثَلاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، أَوَّلَ اثْنَيْنِ مِنْ الشَّهْرِ وَالْخَمِيسَ"[1]، وكان ابن عمر، رضي الله عنهما، ممن يصومها.

ومن الأيام العشر يوم عرفة؛ الذي ورد في فضل صيامه قول الرسول ﷺ: "صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ، أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ، وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ"[2]، ومن الأعمال الفاضلة في هذه العشر الإكثار من الذكر والدعاء، دل على ذلك قول الله تعالى: {وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ}[3]، وعن ابن عمر، رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: "مَا مِنْ أَيَّامٍ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ، وَلا أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ الْعَمَلِ فِيهِنَّ مِنْ هَذِهِ الأَيَّامِ الْعَشْرِ، فَأَكْثِرُوا فِيهِنَّ مِنْ التَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ وَالتَّحْمِيدِ".[4]

وصفة التكبير"الله أكبر، الله أكبر، لا إله الا الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد".

وهو من السنن التي ينبغي إحياؤها في هذه الأيام المباركة، "فقد كَانَ ابْنُ عُمَرَ وَأَبُو هُرَيْرَةَ يَخْرُجَانِ إِلَى السُّوقِ فِي أَيَّامِ الْعَشْرِ، يُكَبِّرَانِ، وَيُكَبِّرُ النَّاسُ بِتَكْبِيرِهِمَا، وَكَبَّرَ مُحَمَّدُ ابْنُ عَلِيٍّ خَلْفَ النَّافِلَةِ".[5]

كما علينا أن نجتهد بالدعاء في هذه الأيام، وبخاصة يوم عرفة، فقد ورد عن النبي ﷺ قوله: "خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ".[6]

---

1. سنن أبي داود، كتاب الصوم، باب في صوم العشر، وصححه الألباني.
2. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والإثنين والخميس.
3. الحج: 28.
4. مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب، وصححه شعيب الأرناؤوط.
5. صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب فضل العمل في أيام التشريق.
6. سنن الترمذي، كتاب الدعوات عن رسول الله، باب في دعاء يوم عرفة، وحسنه الألباني.

فهذا شهر ذي الحجة قد أظلنا زمانه، فعلينا أن نستغل هذا الموسم بالطاعة والتوبة الصادقة النصوح، ونقلع عن الذنوب والمعاصي، ونقبل على الله بالطاعة والعزم الصادق على المواظبة عليها، فمن يدري منا أنه يدرك هذه الأيام في السنوات القادمة أم يكون تحت التراب.

ولنكن في هذه الأيام المباركة مشاركين لحجاج بيت الله الحرام في الذكر والدعاء والاستغفار، وقد وفقوا للوقوف بعرفة، خاشعين، متذللين، ضارعين لله، يسألونه المغفرة، فيباهي بهم الملائكة، ونعوض الموقف بصيام يوم عرفة، فقد ورد عن النبي ﷺ قوله: "صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ؛ أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ، وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ".([1])

أخي المسلم؛ هذا هو هدي النبي ﷺ في العشر الأوائل من ذي الحجة، فهلا اقتفينا أثره، واتبعنا نهجه، لنكون من الفائزين -إن شاء الله- برضوان الله في الدنيا والآخرة، وذلك هو الفوز العظيم، وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأسوة، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

1. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والإثنين والخميس.

عيد الأضحى المبارك من أيام الله الغراء، يحتفل فيه المسلمون بتوفيق الله لهم بأداء حجيجهم فريضة الحج، كما يتقرب فيه بقية المسلمين إلى الله بالأضاحي اتباعاً لسنة النبي ﷺ، وإحياءً لسنة سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل، عليهما السلام.

إذ لما "قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، وَلَهُمْ يَوْمَانِ يَلْعَبُونَ فِيهِمَا، فَقَالَ: مَا هَذَانِ الْيَوْمَانِ؟ قَالُوا: كُنَّا نَلْعَبُ فِيهِمَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَبْدَلَكُمْ بِهِمَا خَيْرًا مِنْهُمَا يَوْمَ الأَضْحَى وَيَوْمَ الْفِطْرِ".[1]

والناظر، أخي المسلم، إلى هذين اليومين العظيمين من أيام الله في حياة المسلمين، يجد أن كلاً منهما جاء في ختام فريضة من فرائض الله، وأداء ركن عظيم من أركان الإسلام.

فعيد الفطر يتوج عبادة الصيام، ويأتي في اليوم الأول من شهر شوال، بعد إتمام المسلمين لصيام شهر رمضان الذي فرض الله صيامه على المسلمين، كما فرضه على الأمم السابقة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}.[2]

وعيد الأضحى المبارك يأتي في ختام العشر الأوائل من شهر ذي الحجة، وهي أيام مباركة، جعل الله ثواب العمل فيها جزيلاً، وأقسم بها في كتابه الكريم، فقال تعالى: {وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ}.[3]

ومن هذه الأيام يوم عرفة، وهو اليوم التاسع من هذه الأيام، وفيه يقف الحجيج على صعيد عرفات، ليؤدوا أهم ركن من أركان الحج، إذ من فاته الوقوف بعرفة، فقد فاته الحج، لقول النبي ﷺ: "الْحَجُّ عَرَفَةُ".[4]

---

1. سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب صلاة العيدين، وصححه الألباني.
2. البقرة: 183.
3. الفجر: 1 – 3.
4. سنن الترمذي، كتاب الحج عن رسول الله، باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج، وصححه الألباني.

وفي هذا اليوم المبارك وقف النبي ﷺ في عرفة، في جبل الرحمة، في العام العاشر من الهجرة النبوية الشريفة، وأدى فريضة الحج ومعه الصحابة الكرام، وخطب خطبة الوداع المشهورة، التي بين فيها كثيراً من الأحكام التي تهم المسلمين في حياتهم، فبين حرمة الدماء والأموال والأعراض، وحرمة الربا كما حث على الإحسان إلى النساء، وحذر من الفتن بين المسلمين، فقال: "لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ"[1]، وبين لهم بأن عصمتهم في كتاب الله تعالى واتباع سنته ﷺ، فيوم الأضحى يتوج عبادة الحج بنحر الهدي في منى ورمي الجمار، وإتمام مناسك الحج بالطواف بالبيت العتيق، إذ هو البيت الذي بناه سيدنا آدم عليه السلام مروراً بعهد سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل، عليهما السلام، اللذين أعادا رفع البيت على قواعده الأصلية، كما قال الله تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}.[2]

ويسبق يوم النحر التكبير الذي يبدأ من صبيحة يوم عرفة، ويستمر إلى عصر اليوم الثالث من أيام التشريق، كما ورد من هدي النبي ﷺ، وصيغة هذا التكبير "الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد"، ويجهر الرجال بالتكبير في الطرقات والمساجد عقب الصلوات المفروضة إظهاراً لطاعة الله، وابتهاجاً بالعيد، واتباعاً لهدي النبي ﷺ.

وفي يوم العيد يكبر المسلمون وهم في طريقهم لأداء صلاة العيد في المسجد، أو في مصليات العيد في الفلاة، ثم تقام صلاة العيد وبعدها خطبة العيد، التي يعلم فيها الخطيب المسلمين أحكام الأضاحي ووقت نحرها، فقد ورد عن النبي ﷺ قوله: "إِنَّ أَوَّلَ مَا نَبْدَأُ بِهِ فِي يَوْمِنَا هَذَا أَنْ نُصَلِّيَ، ثُمَّ نَرْجِعَ فَنَنْحَرَ، مَنْ فَعَلَهُ فَقَدْ أَصَابَ سُنَّتَنَا، وَمَنْ ذَبَحَ قَبْلُ فَإِنَّمَا هُوَ لَحْمٌ قَدَّمَهُ لأَهْلِهِ، لَيْسَ مِنْ النُّسُكِ فِي شَيْءٍ، فَقَامَ أَبُو بُرْدَةَ بْنُ نِيَارٍ، وَقَدْ ذَبَحَ، فَقَالَ: إِنَّ عِنْدِي جَذَعَةً؟ فَقَالَ: ادْبَحْهَا، وَلَنْ تَجْزِيَ عَنْ أَحَدٍ بَعْدَكَ".[3]

---

1. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما جاء في قول الرجل ويلك.
2. البقرة: 127.
3. صحيح البخاري، كتاب الأضاحي، باب سنة الأضحية.

كما أن الأضحية تنحصر في الأنعام من الإبل والبقر والغنم، ولا يجزئ غيرها، ويجب أن تكون سليمة من العيوب والأمراض، وفق سن محددة، تعظيماً لشعائر الله {ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ}.[1]

ومن هدي النبي ﷺ في يوم العيد الاغتسال والتطيب ولبس الثياب الجديدة أو النظيفة، فقد كان له، عليه الصلاة والسلام، حلة يلبسها للجمعة والعيد.

أما النساء إذا خرجن ليشهدن صلاة العيد، فعليهن أن يخرجن محتشمات غير متبرجات، إذ إن الابتهاج بالعيد طاعة، فلا يجوز إفسادها بالمعصية.

ومن هدي النبي ﷺ في يوم الأضحى أنه كان لا يأكل طعاماً حتى يأكل من أضحيته، وهذه هي سنة عيد الأضحى، لمن كان قادراً على الأضحية.

ومن هدي النبي ﷺ في العيد الصلاة مع المسلمين جماعة، فيوم العيد هو يوم اجتماع المسلمين وبهجتهم وفرحتهم بالعيد، والاجتماع من غايات العيد، لما فيه من التآلف والتعارف والمودة بين المسلمين، إذ يسلِّمون على بعضهم بعضاً، ويهنئون بعضهم بعضاً بالعيد الذي هو من شعائر الإسلام، ومن مظاهر اجتماع المسلمين ووحدتهم.

ومن هدي النبي ﷺ في العيد أنه كان يأتي المصلى ماشياً، ويعود من طريق أخرى، لما في ذلك من تفقد لشؤون المسلمين ومشاركة أكبر عدد منهم في بهجة العيد، وإظهار عزة الإسلام ووحدة المسلمين.

فالحمد لله على نعمه التي لا تحصى، وعلى فضله الذي لا يستقصى، فاجعلوا أيها المسلمون من هذا العيد حافزاً لعمل الطاعات، والاستزادة من العبادات والصدقات والقربات، واجتنبوا كل ما من شأنه أن ينغص فرحة العيد وبهجته من المنكرات، ولا تسرفوا {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}.[2]

---

1. الحج: 32.
2. الأعراف: 31.

وتذكروا إخوة الإيمان أن يوم العيد هو بر بالأرحام والفقراء والمساكين، فصلة الأرحام واجبة، وقد جعل الله "الرَّحِمَ شَجْنَةٌ مِنْ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ اللَّهُ: مَنْ وَصَلَكِ وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَكِ قَطَعْتُهُ".([1])

فاعملوا على صلة الأرحام، وفرجوا كرب الفقراء والمساكين والمحتاجين، وتفقدوا بيوت الأرامل وأسر الشهداء والمسجونين، وافعلوا الخير لعلكم ترحمون.

{وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}.([2])

فاغرسوا البسمة على وجه الفقير، وامسحوا ألم طفل فقد أباه، أو ثكلى فقدت زوجها شهيداً، وبقيت ترعى أبناءها وفاءً للشهادة.

واعملوا على إعادة الوحدة بين أبناء هذا الوطن من خلال مصالحة تطوي كل آلام الفرقة، وتعيد اللحمة بين أجزاء الوطن، واجعلوا من العيد انطلاقة نحو تحقيق أهداف شعبكم وأمتكم، لتكونوا الجديرين بوسام الرباط في هذه الديار المباركة، وأهلاً لحراسة مقدساتها وسدانتها، إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً، واعملوا وفق هدي نبيكم، عليه الصلاة والسلام، حتى تفوزوا برضوان الله تعالى، وتكونوا الجديرين باتباع هدي رسولنا الأسوة في العيد وسائر أيامكم.

أعاد الله علينا وعلى أمة المسلمين هذا العيد بالخير واليمن والبركات وعزة الإسلام والمسلمين، وقد تحررت ديار الإسراء والمعراج من ظلم الاحتلال، وغدت مشرعة لأهل الإيمان في ظل سماحة الإسلام وحلاوة الإيمان.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من وصل وصله الله.
2. البقرة: 110.

الفصل الرابع
جهاد وأسرى

26.	يقود جمع المسلمين إلى النصر في بدر الكبرى	122
27.	يحث على الانتصار للمحاصرين ظلماً وعدواناً	128
28.	الرسول الأسوة ﷺ ومعاملة الأسرى	135
29.	ينتصر للأسرى	140

الرسول الأسوة ﷺ يقود جمع المسلمين إلى النصر في بدر الكبرى

ورد في الحديث الصحيح أن الرسول ﷺ قال لعمر بن الخطاب –حين طلب إنزال عقوبة القتل بحق الصحابي حاطب بن أبي بلتعة بسبب محاولته تسريب خبر تجهز المسلمين لفتح مكة–: "إِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ؟! فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ". [1]

فلغزوة بدر مكانة عظيمة في الإسلام، فهي تمثل أول لقاء حربي بين جيش المسلمين بقيادة الرسول ﷺ، وبين كفار قريش الذين أخرجوا الرسول والمسلمين من ديارهم بغير حق، واضطهدوهم وألحقوا بهم الأذى، لا لشيء سوى أنهم اختاروا التوحيد عقيدة والإسلام ديناً، وشكلت هذه الغزوة منطلقاً نوعياً للدعوة الإسلامية، وكانت بمثابة فاصل حقيقي بين الحق والباطل، وقد أطلق الله عليها وصف الفرقان، فقال تعالى: {وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.[2]

وأحداث هذه الغزوة بدأت حين أمر الرسول ﷺ بالتعرض لقافلة قريش التجارية القادمة من الشام، في محاولة لضرب اقتصاد العدو الذي بدأ المسلمين بالعداوة، واضطرهم للهجرة من بيوتهم وديارهم، وحاول وأد دعوتهم لله في مهدها، ولم تنفع معه علاقات القربى والجوار، مما اضطر الرسول ﷺ والصحابة الكرام للهجرة مرات، هرباً بالدين من الاضطهاد، حتى استقر بهم المقام في المدينة المنورة، فكوَّنوا فيها معقلاً سياسياً وكياناً مستقلاً، وعيونهم ترنو للكعبة المشرفة، موطن أبيهم إبراهيم، عليه السلام، وهي معقل ديار المهاجرين

1. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء.
2. الأنفال: 41.

وبيوتهم وأموالهم، وذكريات وجودهم، وحين لاحت الفرصة للتحرش بالمعتدي الظالم، لم يفوتها الرسول ﷺ وصحابته الأخيار، ولما أحس أبو سفيان قائد قافلة قريش بما فعله المسلمون أرسل ضمضم بن عمرو الغفاري إلى أهل مكة يطلب نجدتهم. ولما وصل ضمضم إلى أهل قريش صرخ فيهم قائلاً: "يا معشر قريش، أموالكم مع أبي سفيان عرض لها محمد وأصحابه، لا أرى أن تدركوها". فثار المشركون ثورة عنيفة، وتجهزوا بتسعمائة وخمسين رجلاً معهم مائة فرس، وسبعمائة بعير.

لكن قافلة قريش نجت، فأرسل أبو سفيان لأهل مكة بأن الله قد نجى قافلته، وأنه لا حاجة إلى المساعدة. فقال أبو جهل: "والله لا نرجع حتى نرد بدراً"، وصارت المواجهة العسكرية أمراً لا مفر منه، ووصف الله موقف المسلمين من هذه المواجهة، فقال تعالى: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ}. ([1])

وحين استشار الرسول ﷺ المسلمين في الأمر، قام المقداد بن الأسود، وقال: " امض يا رسول الله لما أمرك ربك، فو الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: {قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} ([2]) ولكن نقول لك: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون(3). فاستبشر الرسول، عليه الصلاة والسلام، خيراً.

وقد حرص الرسول ﷺ على سماع رأي الأنصار في المشاركة في المعركة، فالعهد ببيعة العقبة قريب، وهي أول اختبار للنوايا والمواقف، فقال: "أشيروا علي أيها الناس –يريد الأنصار–" فقام سعد بن معاذ وقال: "فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا ان ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما

1. الأنفال: 7.

2. المائدة: 24.

3. السيرة النبوية، لابن هشام، ج3، ص162.

أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد... ، فقال الرسول ﷺ: "سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم".([1])

فالتقى الجيشان في السابع عشر من رمضان، من السنة الثانية للهجرة، وورد في الحديث الصحيح تسجيل لبعض مجريات هذه الغزوة، فعن عُمَر بْن الْخَطَّابِ، قَالَ: "لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثَلاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلاً، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ، اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلامِ لا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنْ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ} ([2]) فَأَمَدَّهُ اللَّهُ بِالْمَلائِكَةِ.

قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ فَحَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنْ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ، إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ، وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ: أَقْدِمْ حَيْزُومُ، فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ، وَشُقَّ وَجْهُهُ، كَضَرْبَةِ السَّوْطِ، فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ، فَجَاءَ الأَنْصَارِيُّ فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: صَدَقْتَ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ، وَأَسَرُوا سَبْعِينَ.

قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ([3]): قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَلَمَّا أَسَرُوا الأُسَارَى قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلاءِ الأُسَارَى؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ، أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً، فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ، فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلإِسْلامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

1. السيرة النبوية، ابن هشام، ج2، ص171.

2. الأنفال: 9.

3. أبو زميل: هو التابعي سماك بن الوليد، من الكوفة، وهو حنفي يمامي.

مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ قُلْتُ: لا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، فَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وَتُمَكِّنِّي مِنْ فُلانٍ – نَسِيباً لِعُمَرَ– فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَإِنَّ هَؤُلاءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا. فَهَوِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ، وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ؟ فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ، وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمْ الْفِدَاءَ، لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ –شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ– وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ... إِلَى قَوْلِهِ: فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّبًا} [1] فَأَحَلَّ اللَّهُ الْغَنِيمَةَ لَهُمْ".[2]

وتطرق القرآن الكريم لذكر غزوة بدر في مواضع عدة، ففيه مَنّ الله على المسلمين أن نصرهم فيها على عدوهم، فقال تعالى: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}.[3]

وذكر القرآن الكريم بعض جند الله الذين ساندوا المسلمين في غزوة بدر، حيث تضمن حديث عمر بن الخطاب سالف الذكر الاستشهاد بقوله تعالى: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ} [4]، في دلالة واضحة على إمداد المسلمين بالملائكة تقاتل معهم في تلك الغزوة، وأشار القرآن الكريم إلى النعاس الذي أصاب به الله المسلمين لخدمة جانب الطمأنينة والاستقرار النفسي لديهم في هذه المعركة الفاصلة، إضافة إلى ماء السماء الذي أنزله الله عليهم ليتطهروا به، فقال تعالى: {إِذْ يُغَشِّيكُمُ

1. الأنفال: 69.

2. صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم.

3. آل عمران: 123.

4. الأنفال: 9.

النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ}.[1]

وينصح في هذا المقام الرجوع إلى سورة الأنفال لتدبر تفصيلها لكثير من حيثيات هذه الغزوة.

ومن المواقف التي ينبغي استنتاج العبر والدروس منها في هذه الغزوة، ما حدث بين الرسول ﷺ وهو يمارس قيادة الجيش، والصحابي سواد بن غزية بصفته أحد جنده، فورد "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَدَّلَ صُفُوفَ أَصْحَابِهِ يَوْمَ بَدْرٍ، وَفِي يَدِهِ قِدْحٌ يُعَدِّلُ بِهِ الْقَوْمَ، فَمَرَّ بِسَوَادِ بْنِ غَزِيَّةَ، حَلِيفِ بَنِي عَدِيِّ بْنِ النَّجَّارِ - وَهُوَ مُسْتَنْتِلٌ [2] مِنْ الصَّفِّ، فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ بِالْقِدْحِ، وَقَالَ: اسْتَوِ يَا سَوَّادُ. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْجَعْتَنِي، وَقَدْ بَعَثَكَ اللَّهُ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ، قَالَ: فَأَقِدْنِي. فَكَشَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ بَطْنِهِ، وَقَالَ: اسْتَقِدْ، قَالَ: فَاعْتَنَقَهُ فَقَبَّلَ بَطْنَهُ: فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا يَا سَوَّادُ؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَضَرَ مَا تَرَى، فَأَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ آخِرُ الْعَهْدِ بِكَ أَنْ يَمَسَّ جِلْدِي جِلْدَكَ. فَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِخَيْرٍ".[3]

ومن تلك المواقف، قبول المشورة الخاصة بمكان تمركز جيش المسلمين، فورد "أَنَّ الْحُبَابَ ابْنَ الْمُنْذِرِ بْنِ الْجَمُوحِ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ هَذَا الْمَنْزِلَ، أَمَنْزِلاً أَنْزَلَكَهُ اللَّهُ لَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَقَدَّمَهُ، وَلا نَتَأَخَّرَ عَنْهُ، أَمْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ؟ قَالَ: بَلْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ بِمَنْزِلٍ، فَانْهَضْ بِالنَّاسِ حَتَّى نَأْتِيَ أَدْنَى مَاءٍ مِنْ الْقَوْمِ، فَنَنْزِلَهُ، ثُمَّ نُغَوِّرُ مَا وَرَاءَهُ مِنْ الْقُلُبِ، ثُمَّ نَبْنِي عَلَيْهِ حَوْضاً فَنَمْلَؤُهُ مَاءً، ثُمَّ نُقَاتِلُ الْقَوْمَ، فَنَشْرَبُ وَلا يَشْرَبُونَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَقَدْ أَشَرْتَ بِالرَّأْيِ. فَنَهَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَنْ

1. الأنفال: 11.

2. قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَيُقَالُ: مُسْتَنْصِلٌ مِنْ الصَّفِّ.

3. السيرة النبوية لابن هشام، غزوة بدر الكبرى، ابن غزية وضرب الرسول له في بطنه بالقدح، ج3، ص174.

مَعَهُ مِنْ النَّاسِ، فَسَارَ حَتَّى إِذَا أَتَى أَدْنَى مَاءٍ مِنْ الْقَوْمِ نَزَلَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَمَرَ بِالْقُلُبِ فَغُوِّرَتْ، وَبَنَى حَوْضًا عَلَى الْقَلِيبِ الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ، فَمُلِئَ مَاءً، ثُمَّ قَذَفُوا فِيهِ الآنِيَةَ".([1])

وهكذا تجلت في هذه المعركة الفاصلة حنكة الرسول ﷺ وكياسته، وحكمته وبراعة قيادته، إضافة إلى أسوته ﷺ في المشورة والحزم والتواضع في المواقف، والرحمة بالأتباع، كما برزت فيها مؤشرات ناصعة على عمق إيمان الرسول ﷺ بالله وثقته بنصره، وحرصه على مناجاة ربه بالدعاء والإلحاح في طلب العون من الله، والعزم في طلب النصر والمدد منه سبحانه، حتى تحقق له ما يصبو إليه من العزة والمنعة والنصر، ولم تغب حقوق جنده البواسل عن باله ﷺ واعتباراته، فحفظ لهم مكانتهم ومنازلهم حتى وهم يخطئون، فقبل شفاعة جهادهم لهم.

ومن ناحية أخرى؛ فإن الرسول الأسوة ﷺ، كان قدوة للمسلمين في كل زمان ومكان وهو يرسم لهم منهج الإسلام الذي أرساه بقوله، "اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ" ([2])، حيث أخذ بأسباب النصر المادية بالإعداد وحسن التخطيط، جنباً إلى جنب مع الدعاء والاعتماد على الإيمان، وطلب المدد والعون من الله، حتى قاد ثلة المسلمين الأولى إلى نصر قلب موازين القوة والهيبة في منطقة الجزيرة العربية على أقل تقدير، سائلين الله العلي القدير أن يهيئ للمسلمين في هذا الزمان الأسباب ليعود لهم مجدهم التليد، وترفع رايات نصرهم في العالمين.

وصلى الله على رسولنا محمد، وعلى آله وصحبه وأتباعه، ومن والاه بإحسان إلى يوم الدين.

1. السيرة النبوية لابن هشام، غزوة بدر الكبرى، مشورة الحباب على رسول الله ﷺ، ج3، ص168.

2. سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، وحسنه الألباني.

عَنْ الْبَرَاءِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "أَمَرَنَا النَّبِيُّ ﷺ بِسَبْعٍ، وَنَهَانَا عَنْ سَبْعٍ، أَمَرَنَا بِعِيَادَةِ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعِ الْجِنَازَةِ، وَتَشْمِيتِ الْعَاطِسِ، وَإِجَابَةِ الدَّاعِي، وَرَدِّ السَّلامِ، وَنَصْرِ الْمَظْلُومِ، وَإِبْرَارِ الْمُقْسِمِ، وَنَهَانَا عَنْ سَبْعٍ؛ عَنْ خَاتَمِ الذَّهَبِ، أَوْ قَالَ حَلْقَةِ الذَّهَبِ، وَعَنْ لُبْسِ الْحَرِيرِ، وَالدِّيبَاجِ، وَالسُّنْدُسِ، وَالْمَيَاثِرِ".([1])

فمن آثار انتماء الشخص للإسلام أن تكون له حقوق على المسلمين، وعليه واجبات تجاههم، وقد عني رسولنا الأسوة ﷺ على تربية المسلمين أفراداً وأمةً على استيعاب هذا الأثر، وممارسة السلوك الذي ينسجم معه ويتوافق، وفي هذا الحديث النبوي الشريف يرد الأمر بنصر المظلوم ضمن سبعة أوامر أصدرها النبي ﷺ للمسلمين، وفي ذلك من الدلالة على أهمية هذا الأمر ما لا يخفى، والنَّصْرُ عِنْدَ الْعَرَبِ الإِعَانَة، كما يذكر ابن حجر العسقلاني في فتح الباري من قول ابن بطال، عند شرح هذا الحديث الشريف.([2])

ومن يوفق من المسلمين لاستذكار توجيهات الرسول الأسوة ﷺ التي تلزم بأداء الواجب نحو المستضعف المظلوم، يجد ضالته وهداه، نسوق هذا بمناسبتين لهما صلة وثيقة بحيثيات هذا الواجب، تتعلق المناسبة الأولى بذكرى الخامس من حزيران، الذي وقع فيه جزء من أرض الأمة ومقدساتها وشعوبها في قبضة المحتل الغاشم وأسره، فغداً يوافق مرور ثلاثة وأربعين عاماً على هذا الحدث الجلل، وما زال المحتل يعيث فساداً في الأرض المباركة التي اغتصبها؛ يدنس مقدساتها، ويقهر أهلها، ويقطع شجرها، ويدمر عمرانها، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

1. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب تشميت العاطس إذا حمد الله.

2. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، ج5، ص98 .

أما المناسبة الثانية فتتعلق بما حدث قبل أيام من اعتداء على أسطول الحرية الذي جاء محملاً بالتضامنين، والمساعدات الإنسانية للمحاصرين في غزة هاشم، لكن يد الغطرسة حالت دون وصولهم، فاعترضت السفن في عرض البحر، وارتقى بعض المناصرين المتضامنين إلى ربهم شهداء، بإذن الله، وأصيب بعضهم بالجراح، واعتقل الآخرون، وخضعوا للتحقيق المهين، والمضايقة الشرسة، ووضعت اليد على السفن وما تحمل، وعبر المحتل بما اقترف عن استهتاره بالقيم والقوانين الدولية والأعراف المجتمعية، أما المتضامنون ومن يقف خلفهم من أبناء الأمة وأحرار العالم، فقد عبروا في مبادرتهم وبسالتهم عن القيم النبيلة التي تستدعي الانتصار للمظلوم من الظالم، وهي قيم أرسى دعائمها رسولنا الأسوة ﷺ، الذي حث على نصرة المظلوم، في وصايا عدة، منها ما ورد في الحديث الصحيح عَنْ أَنَسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قَالَ: تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ".([1])

وطبيعي أن يتقبل الصحابة الأمر النبوي بنصرة المظلوم، فذلك ينسجم مع مبادئ الإسلام وقيمه، لكنهم استغربوا الدعوة لنصرة الأخ الظالم، وحق لهم الاستغراب، لأن نصرة القريب ظالماً ومظلوماً من قيم الجاهلية التي جاء الإسلام لينبذ شرها، وقد أورد ابن حجر العسقلاني في فتح الباري قول الْمُفَضَّل الضَّبِّيّ فِي كِتَابِهِ "الْفَاخِر" أَنَّ أَوَّلَ مَنْ قَالَ: "انْصُرْ أَخَاك ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا " جُنْدُب بْن الْعَنْبَر بْن عَمْرو بْن تَمِيم، وَأَرَادَ بِذَلِكَ ظَاهِرَهُ، وَهُوَ مَا اِعْتَادُوهُ مِنْ حَمِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ شَاعِرهمْ:

إِذَا أَنَا لَمْ أَنْصُرْ أَخِي وَهْوَ ظَالِمٌ عَلَى الْقَوْمِ لَمْ أَنْصُرْ أَخِي حِينَ يُظْلَمُ.([2])

إلا أن الرسول ﷺ أزال عن الصحابة والناس من بعدهم، وجه الاستغراب، حين وضح لهم كيفية نصر الأخ الظالم، في لفتة كريمة يجدر بالبشرية أن تتعلم منها الكثير، وبخاصة مع استفحال التبجح بالتعصب للحليف الظالم، وتبرير شناعاته، وتسويغ جناياته، حيث بيّن، عليه الصلاة

1. صحيح البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً.

2. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، ج5، ص98.

والسلام، أن نصرة القريب أو المقرب الظالم تكون بردعه عن ظلمه، وورد التعبير عن ذلك في عبارات وصيغ عدة، منها ما نصت عليه الرواية التي بين أيدينا، حيث قال ﷺ: "تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ" وَهُوَ كِنَايَة عَنْ الْمَنْع، قال ذلك رداً على من سأله: فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ وفي روايات صحيحة أخرى، ورد التعبير عن هذا المعنى بعبارات معبرة عن هذه الإجابة، منها قوله: "تَحْجُزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنْ الظُّلْمِ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ". ([1])

وَتَفْسِيره لِنَصْرِ الظَّالِمِ بِمَنْعِهِ مِنْ الظُّلْمِ، مِنْ تَسْمِيَةِ الشَّيْءِ بِمَا يَئُولُ إِلَيْهِ، وَهُوَ مِنْ وَجِيز الْبَلاغَة، كما ورد في فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني.([2])

فما قام به المتضامنون الذين ركبوا البحر في مظاهرة جدية وشجاعة للتذكير بالحصار الذي يخنق غزة وأهلها، إنما يعبرون عن شعورهم وإيمانهم بالواجب المطلوب في مثل هذا الظرف نحو هذا الحصار الظالم، الذي يتم تحت نظر العالم وسمعه.

وإذا كان الواجب يقتضي تقديم الشكر والتقدير لهؤلاء الأبطال، والاعتزاز والافتخار بهم، وبمن ساندهم من مؤسسات وجماعات ومسؤولين من أحرار العالم وصادقي الانتماء من أبناء أمتنا، فإن الواجب يقتضي أيضاً تأصيل هذا الموقف في ضوء المبادئ والقيم النبيلة التي جاء بها رسولنا الأسوة ﷺ للعالمين هادياً ومبشراً ونذيراً، فهذه المبادرة المباركة تتوافق مع حث الرسول ﷺ على الانتصار للمظلوم، وهي تنسجم أيضاً مع التوجيه القرآني الوارد في قوله تعالى: {وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً} ([3])، فالله جلت قدرته وعظم شأنه ينكر على الأقوياء الذين تتوفر لديهم الإمكانية والقدرة على رفع الظلم عن المستضعفين أو المساهمة به، ثم يقصرون بعد ذلك في تلبية نداء

1. صحيح البخاري، كتاب الإكراه، باب يمين الرجل لصاحبه إنه أخوه إذا خاف عليه القتل.
2. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، ج5، ص98.
3. النساء: 75.

الواجب، ويقفون يشاهدون ظلم الظالم، ويسمعون استغاثة المستضعف المظلوم، دون أن يحركوا ساكناً، وكأنهم أموات في صورة أحياء، يقول حالهم لا حياة لمن تنادي.

والحصار الظالم يندرج ضمن العدوان الذي نهى الله عن ارتكابه، حتى في الحرب وقتال الأعداء، فقال تعالى: {وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ}.[1]

وفي مقابل التحذير من ممارسة العدوان، أوجب الله على المؤمنين أن يتعاونوا على رفع العدوان عمن يقع عليه، وذلك في إطار البر والتقوى، فقال تعالى: {... وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}.[2]

ورسولنا ﷺ يربأ بنا أن نخذل المظلوم وبخاصة المستغيث، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لا تَحَاسَدُوا، وَلا تَنَاجَشُوا، وَلا تَبَاغَضُوا، وَلا تَدَابَرُوا، وَلا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ، وَلا يَخْذُلُهُ، وَلا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنْ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ؛ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ".[3]

وقد مارس الرسول ﷺ القيام بواجب نصر المظلوم، في مواقف كثيرة، منها ما ذكر في السيرة النبوية من انتصاره لقبيلة خزاعة التي اعتدي عليها، من قبيلة بكر، وانتهى أمر هذه المناصرة إلى فتح مكة، فقد كان في صلح الحديبية أنه من شاء أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل، ومن شاء أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل، فتواثبت خزاعة وقالوا: نحن في عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر، وقالوا: نحن ندخل في عقد قريش وعهدهم، فمكثوا في تلك الهدنة نحو السبعة أو الثمانية عشر شهراً. ثم إن بني بكر وثبوا على خزاعة ليلاً بماء يقال له الوتير، وهو

1. البقرة: 190.

2. المائدة: 2.

3. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله.

قريب من مكة. وقالت قريش: ما يعلم بنا محمد وهذا الليل، وما يرانا من أحد، فأعانوهم عليهم بالكراع والسلاح، وقاتلوهم معهم للضغن على رسول الله، وأن عمرو بن سالم ركب عندما كان من أمر خزاعة وبني بكر بالوتير، حتى قدم على رسول الله يخبر الخبر. وقد قال أبيات شعر، فلما قدم على رسول الله أنشدها إياه:

يا رب إني ناشد محمـــــدا	حلف أبيه وأبينا الأتلــدا
قد كنتموا ولدا وكنا والدا	ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر رسول الله نصرا أبدا	وادع عباد الله يأتوا مـــددا
فيهم رسول الله قـد تجـــردا	إن سيم خسفا وجهه تربدا
في فيلق كالبحر يجري مزبدا	إن قريشا أخلفوك الموعـدا
ونقضوا ميثاقــك المؤكـــــدا	وجعلوا لي في كداء رصدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا	فهـم أذل وأقـل عـــــددا
هم بيتونا بالوتير هجـــــدا	وقتلونا ركعا وسجـــــــدا

فقال رسول الله: «نصرت يا عمرو بن سالم» فما برح حتى مرت بنا عنانة في السماء، فقال رسول الله: «إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب».

وأمر رسول الله الناس بالجهاز وكتمهم مخرجه، وسأل الله أن يعمي على قريش خبره حتى يبغتهم في بلادهم.[1]

وقد أثنى الله تعالى على المؤمنين الذين بايعوا الرسول ﷺ على أن لا يفروا خوفاً من الموت، بعد وقوع اعتداء على بعض منهم، فانتصروا للمعتدى عليه، حتى هيأ الله لهم الفتح الأعظم، فقال تعالى: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً}.[2]

1. البداية والنهاية، ابن كثير، ج 4، غزوة الفتح الأعظم، ص645-646.
2. الفتح: 18.

وفي هذا المجال يرد في السيرة النبوية ثناء الرسول ﷺ على حلف الفضول الذي شهده في مقتبل عمره مع عشيرته، فقد تَدَاعَتْ قَبَائِلُ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَيه، فَاجْتَمَعُوا لَهُ فِي دَارِ عَبْدِ اللّهِ ابْنِ جُدْعَانَ، فَتَعَاقَدُوا وَتَعَاهَدُوا عَلَى أَنْ لا يَجِدُوا بِمَكّةَ مَظْلُوماً مِن أَهْلِهَا وَغَيْرِهِمْ مِمّنْ دَخَلَهَا مِنْ سَائِرِ النّاسِ، إلا قَامُوا مَعَهُ، وَكَانُوا عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ حَتّى تُرَدّ عَلَيْهِ مَظْلِمَتُهُ، حيث قال رسول الله ﷺ فيه: "لَقَدْ شَهِدْت فِي دَارِ عَبْدِ اللّهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبّ أَنّ لِي بِهِ حُمْرَ النّعَمِ، وَلَوْ أُدْعَى بِهِ فِي الإِسْلامِ، لأَجَبْت". وكانت قريش تظلم في الحرم الغريب، ومن لا عشيرة له، واتفقت في هذا الحلف أن لا يجدوا في مكة ظالماً إلا ردعوه عن ظلمه، ولا مظلوماً إلا أعادوا إليه مظلمته".([1])

ومن المدرسة القرآنية النبوية تخرَّج السلف الصالح الذين سطَّروا المواقف المشرفة في مقاومة العدوان الغاشم، والانتصار للضعيف أو المستضعف، فهذا الخليفة الأول، أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، يذكر في خطاب تولي الخلافة، قضية الانتصار هذه، فيقول: "الضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه".

فهل يفقه سادة العالم اليوم هذا المنطق، وهذه العدالة، وهم يسوسون العالم بقوتهم وبطشهم وقرارهم، فيتخذون الحق معياراً عند تعاطيهم مع قضايا عدوان الظالمين على المستضعفين، أم سيبقون في غيهم يحتكمون إلى المصالح والمآرب الشخصية، يدورون معها حيث دارت، بغض النظر عن أناة المضطهدين في الأرض وجراحهم وعذاباتهم.

ومن نفس المدرسة التي تخرج منها أبو بكر الصديق، تخرج صالح السلف والخلف من قادة الأمة، ومنهم الخليفة المعتصم، الذي حرك الجيش الجرار انتصاراً لاستغاثة امرأة، فمنذ أن تناهى إلى سمعه قولها: وا معتصماه، أجابها: لبيك، وكان منه ما كان.

فهذا هو الإسلام في نصوصه ومبادئه وقيمه وتطبيقاته السليمة، يتجاوب مع الانتصار للمستضعفين، بغض النظر عن الجنس واللون واللغة والبعد الجغرافي والزماني، وقافلة التضامن مع الشعب الفلسطيني المحاصر، تأتي في السياق الصحيح، الذي يتناغم مع ما جاء به

1. السيرة النبوية، ابن هشام، ج1، ص 265.

إسلامنا الحنيف، وهي دليل واضح على أن في العالم أحراراً، وفي الناس خيراً، مهما تعالى الدخن، واشتد الظلام، ففي الأفق نور، نسأل الله أن يهيئ له سبل الانتشار، وأن يعم خيره العالمين، وبخاصة المستضعفين منهم، وندعوه سبحانه أن يتقبل عمل من انتفضوا لنصرة فلسطين وشعبها المحاصر، وأن يجعله في ميزان حسناتهم، وهو القائل :{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً}.[1]

وقبل الختام؛ لا بد من طمأنة المحاصرين والمتضامين معهم، بما ستؤول إليه الأمور عاجلاً أو آجلاً، بإذن الله ووفاء لعهده ووعده سبحانه، فإنه وإن تمكنت يد الظالم من أن تنال بعض الحظوظ ببطشها وغطرستها، فإن المؤمن على يقين بأن الله سينتصر للحق وأهله، مصداقاً لوعده سبحانه، في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ * أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ* الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ }.[2]

والرسول ﷺ بشر المؤمنين بأن سوادهم قائم، مهما تفنن الأعداء في استهداف بيضتهم، فعَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ".[3]

جعلنا الله ممن ينتصر للضعيف والمظلوم، وهيأ الله لشعبنا المحاصر بمن يؤازره في رفع الظلم عنه، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله الكرام، وصحابته الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. الكهف: 30.
2. الحج: 38-40.
3. صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين.

الرسول الأسوة محمد ﷺ ومعاملة الأسرى

إن ديننا الإسلامي الذي بعث به رسول الله ﷺ، هو دين الرحمة للبشرية جمعاء، كما أن رسول الله، عليه الصلاة والسلام، هو الرحمة العامة لهذه الإنسانية، مصداقاً لقول الله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}[1]، ولم تغفل شريعتنا الغراء أحكام الأسرى، بل بينتها وفصلتها استناداً إلى ما ورد في كتاب الله تعالى من آيات تبين أحكام الأسرى، وكذلك ما ورد في السنة النبوية الشريفة والسيرة العطرة من أقوال رسول الله ﷺ وأفعاله، التي بين فيها معاملة الأسرى، بما لا يدع مجالاً للشك أو التشكيك بأن الإسلام الحنيف قد سبق كل القوانين الإنسانية والمعاهدات والاتفاقات الدولية المتعلقة بمعاملة الأسرى، كاتفاقات جنيف عام 1929هـ، وعام 1949م، واتفاقات لاهاي لحقوق الإنسان ومعاملة الأسرى وغيرها.

وقد بيّن الإسلام حقوق الأسرى وحسن معاملتهم في نصوص واضحة بينها رسول الله ﷺ، وطبقها الصحابة الكرام دائماً مع الأسرى الذين وقعوا في أيدي المسلمين جراء المعارك التي نشبت بين المسلمين وأعدائهم.

والناظر إلى هذه الحقوق يجدها تتفق مع المبادئ العامة التي نص عليها قوله تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً* إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلا شُكُوراً}.[2]

كما وجه رسول الله ﷺ، المسلمين إلى حسن رعاية الأسرى في هدي نبوي شريف،

1. الأنبياء: 107.
2. الإنسان: 8-9.

"استوصوا بالأسارى خيراً"[1]، ولتفعيل حقوق الأسير في الإسلام الذي حرص على كرامة الإنسان، بغض النظر عن دينه أو جنسه أو لونه، لا بدَّ من الإشارة إلى الحقوق التي بينها الإسلام للأسير، وهي واقعة في مجال الخيرية التي أوصى بها النبي ﷺ، وفي مجال النية الصالحة بالإحسان إلى الأسير، ابتغاء وجه الله ورضوانه، كما أشارت الآية الكريمة، {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلا شُكُوراً}[2]، وإنما تتم المعاملة الحسنة من قبل المسلمين للأسرى طمعاً في أن تكون هذه المعاملة من الأعمال الخيرة، التي يفوز بها المسلم يوم القيامة، يوم لقاء الله تعالى في يوم الحساب، الذي يطمع كل مسلم أن يفوز فيه برضوان الله ثواباً من الله تعالى على أعماله الصالحة ونواياه الخالصة لله تعالى.

وإذا ما أردنا التحديد لحقوق الأسرى، فلا بدَّ من شيء من التفصيل لبيان معالم هذه المعاملة الطيبة والخيرة للأسرى، فنقول وبالله التوفيق:

* إطعام الأسير: فتأمين الطعام والشراب من أولويات حقوق الأسير، إذ الطعام والشراب من الضرورات التي لا تقوم الحياة دونها، فقد وفر المسلمون هذه الضرورة لأسراهم، لا بل آثروا الأسرى على أنفسهم، رغم ضيق العيش، وقلة ذات اليد التي كانوا يعانونها، إلا أنهم انطلاقاً من تعاليم دينهم التي جعلت من إطعام الأسير عن طيب نفس، محققين بذلك الجانب الإنساني بالإحسان إلى الإنسان، حتى ولو كان أسيراً يدين بغير دينهم، ومحققين كذلك الجانب التعبدي ابتغاء وجه الله، الذي أشارت إليه الآية الكريمة بوضوح لا لبس فيه، {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً* إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلا شُكُوراً}.[3]

1. المعجم الكبير للطبراني، مسند من يعرف بالكنى من أصحاب رسول الله ﷺ، أبو عزيز بن عمير بن هاشم، وقال الألباني في ضعيف الجامع: ضعيف.
2. الإنسان: 9.
3. الإنسان: 8-9.

فرغم أن إطعام الأسير معاملة إنسانية محضة، إلا أن الإسلام الذي يجعل العادة عبادة بالنية، أضفى على هذه الحاجة الإنسانية صفة العبادة والقربة، فهي طاعة لله ولرسوله، والمسلم حريص على ذلك.

* كسوة الأسير: لقد كفل الإسلام حق الأسير في الكساء، كما ضمن حقه في الغذاء، فالإنسان بحاجة إلى كساء يستر عورته، ويقيه البرد والحر، ويحافظ على كرامته الإنسانية، فقد روى جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما، قال: "لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ، أُتِيَ بِأُسَارَى، وَأُتِيَ بِالْعَبَّاسِ، وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ ثَوْبٌ، فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ لَهُ قَمِيصًا، فَوَجَدُوا قَمِيصَ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ أُبَيٍّ، يَقْدُرُ عَلَيْهِ[1]، فَكَسَاهُ النَّبِيُّ ﷺ إِيَّاهُ، فَلِذَلِكَ نَزَعَ النَّبِيُّ ﷺ قَمِيصَهُ الَّذِي أَلْبَسَهُ"[2]، وهذا واضح في أن الكسوة يجب أن تفي بحاجة الأسير، من حيث ستر جسمه، وأن تكون وفق مقاسه.

* توفير المأوى للأسير: إذ المأوى من ضرورات الحياة، فلا يجوز أن يترك الأسير في الخلاء بلا مأوى يقيه حر الشمس وقر البرد، بل وفر الإسلام للأسير المأوى في مكان يحفظ كرامته وحياته، ضمن المسكن الصحي اللائق بكرامة الإنسان، وقد كان مسكن الأسير في العهد النبوي، إما المسجد، وإما في أحد بيوت الصحابة، رضوان الله عليهم.

وهكذا نرى أن تأمين مسكن الأسير كان موزعاً بين المسجد وبيوت الصحابة، وهما أكرم مكانين عند المسلمين وقتئذ.

* عدم تعذيب الأسير أو إكراهه: فقد حظرت الشريعة الإسلامية تعذيب البشر وإكراههم، فالإنسان له حرمة محفوظة في شرعنا من الأذى.

والإسلام الذي حث على إطعام الأسير والإحسان إليه، بتأمين كسائه ومأواه لا يسمح بانتهاك حرمته بالتعذيب أو الإكراه، وقد أمر النبي ﷺ بالإحسان إلى أسرى بني قريظة،

1. ومعنى يقدر عليه: أي يكون وفق قياسه وجسمه.
2. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الكسوة للأسارى.

فقال للصحابة، رضوان الله عليهم: "لا تجمعوا عليهم حر السيف والعطش، فسقوا، ثم قتلوا".[1]

وتحريم تعذيب الأسير يشمل من باب أولى عدم تعذيب الجرحى من الأسرى، بل يحسن إليهم ويعالجون، حتى يتم فداؤهم أو المن عليهم.

كما منعت الشريعة الإسلامية إكراه الأسير أو تعذيبه، ليدلي بمعلومات عن قومه، وقد سأل مالك -رحمه الله- أيعذب الأسير إن رجي أن يدل على عورة العدو؟ قال: ما سمعت بذلك.

وقد ذهب الإسلام بعيداً في ملاطفة الأسرى، وإحسان معاملتهم بالرد على أسئلتهم أو استفساراتهم في حدود سياسة الدولة، فلا يهمل الأسير لأن في ذلك إهانة لكرامته، وإهداراً لها، وقد نهى الإسلام عن ذلك، أما حق البت في مصير الأسرى، فهو متروك لإمام المسلمين وحاكمهم، وليس لأحد غيره أن يقرر مصير الأسرى.

* إعادة الأسير: تظل رعاية الأسير قائمة ما دام في أيدي المسلمين، فيجب إطعامه وإسقاؤه وكسوته وتوفير المأوى له، ومعاملته المعاملة الحسنة حتى يعود إلى قومه، إما بالمن عليه بالحرية، أو بفدائه بمال، أو بمبادلته بأسرى المسلمين، وذلك انطلاقاً من قول الله تعالى: {فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا}.[2]

وقد منَّ الرسول ﷺ في كثير من غزواته على الأسرى بإطلاق سراحهم، وهذه هي شيمة سيد الخلق ﷺ، وقد بادلهم بأسرى المسلمين، كما فداهم بالمال، أو أطلق سراحهم مقابل تعليم أبناء المسلمين.

لقد ظهرت أحكام الإسلام بمعاملة الأسرى واضحة في نصوصه وتطبيقاته، التي فاقت كل ما توصلت إليه البشرية من اتفاقات تتعلق بحقوق الإنسان، ومنها حقوق الأسرى

1. المغازي للواقدي، ج2، ص17.
2. محمد: 4.

التي بقيت رهينة الورق الذي كتبت عليه، أما التطبيق فقد نزل بإنسانية الإنسان إلى أدنى ما يتصوره المرء في معاملة الإنسان لبني جنسه، ولعل ما جرى في سجون العراق؛ في "أبو غريب"، وما يجري في "غوانتنامو"، وما يجري في سجون الاحتلال الإسرائيلي، أكبر شاهد على ما وصلت إليه معاملة الأسرى من سوء في القرن الحادي والعشرين، الذي تنادي فيه دول ما يسمى بالعالم الحر بحرية الإنسان والمحافظة على حقوقه، في شعارات لا تجد تطبيقاً لها على أرض الواقع.

فما أحوج البشرية إلى تعاليم هذا الدين الحنيف، وهدي نبيه الأسوة ﷺ، الذي حافظ على كرامة الإنسان حياً وميتاً وأسيراً، وما دمنا نتحدث عن معاملة الأسرى، فإننا لا ننسى أن نتوجه بتحية الإكبار والاعتزاز لأسرانا البواسل في سجون الاحتلال الإسرائيلي، داعين المولى عز وجل أن يحسن خلاصهم، ويمن عليهم بالحرية، ليعودوا إلى ذويهم وأبناء وطنهم في هذه الأرض الطيبة المباركة، وما ذلك على الله بعزيز.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

الرسول الأسوة محمد ﷺ ينتصر للأسرى

يروي الصحابي عبد الله بن عمر بن الخطاب "أن النَّبِيّ ﷺ بَعَثَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى بَنِي جَذِيمَةَ، فَلَمْ يُحْسِنُوا أَنْ يَقُولُوا أَسْلَمْنَا، فَقَالُوا: صَبَأْنَا، صَبَأْنَا، فَجَعَلَ خَالِدٌ يَقْتُلُ وَيَأْسِرُ، وَدَفَعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنَّا أَسِيرَهُ، فَأَمَرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنَّا أَنْ يَقْتُلَ أَسِيرَهُ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لا أَقْتُلُ أَسِيرِي، وَلا يَقْتُلُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِي أَسِيرَهُ، فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ مَرَّتَيْنِ".[1]

تشهد هذه الحادثة على أن النبي ﷺ كان ينتصر للحق من جانب، وللأسرى على وجه الخصوص من جانب آخر، فخالد بن الوليد اجتهد في فهم موقف، لم يقره عليه النبي ﷺ، بل شجبه بشدة، بإعلانه البراءة من ذاك الفعل، الذي تمخض عن قتل بعض الأسرى باجتهاد غير موفق، ولو أراد، عليه الصلاة والسلام، التصرف كما يصنع المبررون لجندهم وقادتهم العسكريين، لأخفى موقفه على أقل تقدير، لكنه، عليه الصلاة والسلام، وهو الأسوة والنبراس الذي يهتدي به الخلق، أعلنها براءة مدوية من صنيع أميره المرسل في مهمة من قبله، مردداً: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ".

فكيف بمن يحتجزون الأسرى ظلماً وعدواناً، ويمارسون ضدهم صنوف القمع والاضطهاد، غير آبهين بالقيم الإنسانية، ولا القوانين والمواثيق الدولية؟!! حتى إن أهالي الأسرى لا يسلمون من الامتهان والقهر، ومحاولات المس بكرامتهم وإجبارهم على التعري بحجة الفحص الأمني، دون تمييز بين صغار وكبار، رجال أو نساء، فلا تراعى الاعتبارات الخاصة بالنساء أو الشيخوخة أو الطفولة، والعالم يسمع أخبار ذلك، ويرى

1. صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب إذا قضى الحاكم بجور أو خلاف أهل العلم فهو رد.

مشاهده دون أن يحرك ساكناً يرجى منه خير أو تأثير جاد في وضع حد لهذه الاختراقات للحقوق الإنسانية.

والانتصار للأسرى قضية يلزمها التفعيل على الأصعدة جميعها ومستويات العمل الفاعلة، محلياً وعربياً وإسلامياً وعالمياً، حتى نفي هؤلاء الأبطال بعض حقهم علينا، وقد بذلوا حريتهم وحياتهم ثمناً لحريتنا، فهم الذين يكبلهم قيد المحتل عن العيش بين أهلهم، وعن رؤية فلذات أكبادهم، وعن توفير الرفد المالي لعائلاتهم، وعن إكمال دراستهم، وعن تنفس هواء بلادهم...إلخ، فلهم حق على أمتهم وشعبهم كبير، ونحن أولى من غيرنا بمعرفة هذا الحق، ومن المحزن المؤسف أن نجد غيرنا يثير قضية أسير لهم واحد في كل لقاءاتهم، من أعلى المستويات إلى أدناها، وعلى الأصعدة كلها، ولا يتركون فرصة علنية أو خفية إلا انتهزوها لإثارة قضيته، حتى صار العالم بأسره يحكي فيها ويتدخل لأجلها، أما أسرانا البواسل فلا بواكي لهم، وهم ألوف، وخلفهم عشرات الألوف من الآباء والأمهات والزوجات والأبناء والأهل، ومع كل التقدير لكل المخلصين الذين يحملون هموم الأسرى وقضيتهم، فإن المشاهد والملموس أن الأسرى وذويهم يعانون الشدائد والهموم، فها هم في يومهم السنوي الذي يوافق17 من نيسان يُذَكِّرون العالم بمحنتهم، معلنين الإضراب في قلاعهم، احتجاجاً على ظروف اعتقالهم، وتنديداً بالمس المتواصل بحقوقهم، ومساندة لذويهم الذين يتعرضون للمضايقات المتواصلة والمتنوعة، وبخاصة خلال زيارتهم، والتي لم تقتصر على عناء السفر الطويل، والشروع به قبل بزوغ الفجر، والانتهاء منه في ظلمات الليل، من أجل زيارة قد لا تستغرق نصف ساعة من الوقت، في جو يذكر كل إجراء فيه بقسوة السجَّان، وتلذذه بمعاناة الآخرين، وامتهانه اللؤم والغدر، حتى أضحى لديه منهجاً وديدناً.

وللغدر بالأسرى تاريخ حافل بالظلمات والعار، ومن شواهده ما حصل مع ثلاثة من الصحابة، كانوا برفقة مجموعة مكونة من عشرة أشخاص، مبعوثين من الرسول ﷺ، بقيادة عاصم بن ثَابِتٍ الأَنْصَارِيَّ، جَدَّ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، قُتل سبعة منهم مع قائدهم عاصم، وأسر الثلاثة بعد أن أُعطوا من قبل جماعة من الكافرين العهد والميثاق أن لا يقتلوهم، مِنْهُمْ خُبَيْبٌ، وَزَيْدُ بْنُ الدَّثِنَةِ، وَرَجُلٌ آخَرُ، فَلَمَّا اسْتَمْكَنُوا مِنْهُمْ، أَطْلَقُوا أَوْتَارَ قِسِيِّهِمْ[1] فَرَبَطُوهُمْ بِهَا، قَالَ الرَّجُلُ الثَّالِثُ: هَذَا أَوَّلُ الْغَدْرِ، وَاللَّهِ لا أَصْحَبُكُمْ، إِنَّ لِي بِهَؤُلاءِ أُسْوَةً، يُرِيدُ الْقَتْلَى، فَجَرَّرُوهُ وَعَالَجُوهُ، فَأَبَى أَنْ يَصْحَبَهُمْ، فَانْطُلِقَ بِخُبَيْبٍ وَزَيْدِ بْنِ الدَّثِنَةِ، حَتَّى بَاعُوهُمَا بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، فَابْتَاعَ بَنُو الْحَارِثِ بْنِ عَامِرِ بْنِ نَوْفَلٍ خُبَيْبًا... فَلَمَّا خَرَجُوا بِهِ مِنْ الْحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ فِي الْحِلِّ، قَالَ لَهُمْ خُبَيْبٌ: دَعُونِي أُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، فَتَرَكُوهُ، فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَوْلا أَنْ تَحْسِبُوا أَنَّ مَا بِي جَزَعٌ لَزِدْتُ[2]. ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا، وَاقْتُلْهُمْ بَدَدًا، وَلا تُبْقِ مِنْهُمْ أَحَدًا، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

فَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ لِلَّهِ مَصْرَعِي

وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلَـهِ وَإِنْ يَشَأْ يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَـالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ أَبُو سِرْوَعَةَ عُقْبَةُ بْنُ الْحَارِثِ فَقَتَلَهُ، وَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ سَنَّ لِكُلِّ مُسْلِمٍ قُتِلَ صَبْرًا الصَّلاةَ، وَأَخْبَرَ أَصْحَابَهُ يَوْمَ أُصِيبُوا خَبَرَهُمْ، وَبَعَثَ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى عَاصِمِ بْنِ ثَابِتٍ حِينَ حُدِّثُوا أَنَّهُ قُتِلَ، أَنْ يُؤْتَوْا بِشَيْءٍ مِنْهُ يُعْرَفُ، وَكَانَ قَتَلَ رَجُلاً عَظِيماً مِنْ عُظَمَائِهِمْ، فَبَعَثَ اللَّهُ لِعَاصِمٍ مِثْلَ الظُّلَّةِ مِنْ الدَّبْرِ، فَحَمَتْهُ مِنْ رُسُلِهِمْ، فَلَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يَقْطَعُوا مِنْهُ شَيْئاً".[3]

---

1. أوتار قسيهم: أوتار جمع وتر، وقسي جمع قوس.

2. لولا أن تحسبوا ما بي جزعاً: أي لولا أن تظنوا الذي متلبس بي من أداء الصلاة فزعاً من القتل. والجزع نقيض الصبر. وقوله ما بي مفعول أول تحسبوا، وقوله جزعاً مفعوله الثاني، وقوله "لزدت": جواب لولا. قال الحافظ في الفتح، ج7، ص383: في رواية بريدة ابن سفيان لزدت سجدتين أخريين.

3. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدراً.

لكن النبي ﷺ لم يتهاون في الانتصار لأسراه، ولم تقتصر مناصرته لهم على الحزن لما أصابهم، بل تجاوزت نطاق المشاعر إلى ميدان الرد بالسنان، فقد خرج إلى بني لحيان[1] -هم الذين غدروا بالرجيع[2] بمبعوثيه وأسراه المذكورين آنفاً- فلما وصل بطن غُران[3]، حيث كان مصاب أصحابه، ترحم عليهم، ودعا لهم، وسمعت به بنو لحيان، فهربوا في رؤوس الجبال، فأقام يومين بأرضهم، وبعث السرايا، ثم رجع إلى المدينة.[4]

ومن جانب آخر، وعلى خلاف الذين يدأبون على أسر الأطفال والنساء، ويتهاونون في تضييق الخناق على الضعفاء بسيف الاعتقالات، فإنه ﷺ كان حين يقع أسرى بين أيدي المسلمين من أعدائهم، يتحين الفرص المواتية لإطلاق سراحهم، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ أَبِيهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ فِي أُسَارَى بَدْرٍ: "لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلاءِ النَّتْنَى[5] لَتَرَكْتُهُمْ[6] لَهُ". [7]

واستدل بعض العلماء بهذا الحديث الشريف عَلَى أَنَّ لِلإِمَامِ أَنْ يَمُنَّ عَلَى الأَسَارَى بِغَيْرِ فِدَاءٍ، خِلافًا لِمَنْ مَنَعَ ذَلِكَ.[8]

ومن أدلة هذا الحرص أيضاً ترجيحه ﷺ لمشورة أخذ الفداء من أسرى بدر، وقبوله ممن لم يجد الفداء المادي أن يُعلِّم عشرة من أبناء المسلمين مقابل إطلاق سراحه، وقد نزل من القرآن بعد ذلك بيان للظروف التي يقبل فيها الفداء، والتي لا يقبل، تبعاً لتقدير وضع المنعة لدى المسلمين، والمخاطر التي تتهددهم من عدوهم.

---

1. حي من قبيلة هذيل.
2. ماء لهذيل بناحية الحجاز بين رابغ وجدة.
3. واد بين أمج وعُسفان.
4. الرحيق المختوم للمباركفوري، ص 284.
5. المراد بالنتنى جمع نتن، وهو بالنون والمثناة . أسارى بدر من المشركين.
6. أي بغير فداء.
7. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدراً.
8. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج6، ص243.

ومن حسن رعايته ﷺ لأسرى الأعداء، حرصه على تقديم الطعام والكسوة لهم، إضافة إلى حفظ سلامتهم وأمنهم، فعن جَابِر بْن عَبْدِ اللَّهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: "لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ أُتِيَ بِأُسَارَى وَأُتِيَ بِالْعَبَّاسِ، وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ ثَوْبٌ، فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ لَهُ قَمِيصًا، فَوَجَدُوا قَمِيصَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ يَقْدُرُ عَلَيْهِ، فَكَسَاهُ النَّبِيُّ ﷺ إِيَّاهُ".[1]

وقد أثنى القرآن الكريم الذي جاء به النبي محمد ﷺ عن ربه على المؤمنين الذين يحسنون إلى الأسرى، فقال تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً}.[2]

وورد في صحاح السنة النبوية المطهرة، عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "قُلْتُ لِعَلِيٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مِنْ الْوَحْيِ إلا مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ قَالَ: لا، وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، مَا أَعْلَمُهُ إلا فَهْمًا يُعْطِيهِ اللَّهُ رَجُلاً فِي الْقُرْآنِ، وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، قُلْتُ: وَمَا فِي الصَّحِيفَةِ؟ قَالَ: الْعَقْلُ، وَفَكَاكُ الأَسِيرِ، وَأَنْ لا يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ".[3]

فأي فضل أبلغ من هذا الإحسان إلى الأسرى؟! فالرسول ﷺ تجاوز في رعايته للأسرى والتوصية بهم مسألة الانتماءات، ولم يحصرها في أسرى المسلمين، بل سبق مواثيق جنيف وغيرها مما يتغنى به الناس اليوم في مجال النص على حقوق الأسرى، سبق ذلك زمناً ونوعاً، حيث مارس رعاية الأسرى على أرض الواقع، ولم يبقها مجمدة في نصوص القوانين، ورفوف التنظير، والمتتبع لما يجري للأسير الفلسطيني في دنيا الفضائيات التي تبث الأحداث مصورة وحية أولاً بأول للعالم بأسره، يجد الفرق الشاسع بين حالهم وواقعهم ومعاناتهم، وبين حسن الرعاية التي تمتع بها أسرى أعداء المسلمين، حين كان

1. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الكسوة للأسارى.
2. الإنسان: 8.
3. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الأسير.

المسلمون يحكمون بروح الدين وأحكامه وقيمه المستلهمة من القرآن الكريم، وسيرة الرسول ﷺ وسنته المشرفة.

فأسرانا البواسل القابعون في سجون الاحتلال الإسرائيلي يواجهون سياسة ظالمة تنتهجها سلطات الاحتلال تجاههم، والمتمثلة بالطرق الوحشية في التحقيق معهم، من الضرب والإهانات والتفتيش العاري والمهين لكرامتهم، خلال ساعات الليل والنهار، والذي يطال الأسرى رجالاً ونساءً، إضافة إلى تفتيش أغراضهم الشخصية بصورة استفزازية، ناهيك عن الإهمال الطبي بحق المرضى أو المصابين بجروح منهم، وعدم معالجتهم، الأمر الذي أدى إلى تفاقم أمراض بعضهم، واستشهاد آخرين نتيجة لهذا الإهمال الطبي المتعمد.

فلكم الله يا أسرانا البواسل، ومن كان الله معه كفاه، وتأكدوا أن شرفاء الأمة وصادقيها ومخلصيها لن يتخلوا عنكم، فقضيتكم على رأس سلم أولوياتهم، والعيون ترنو إلى تحرركم، والقلوب تنتظر الابتهاج بالإفراج عنكم من نير الأسر، وإن غداً لناظره قريب، ولا بد لليل أن ينجلي، والقيد حتماً سينكسر، وسيهزم الجمع ويولون الدبر بإذن الله، وما ذلك على الله ببعيد، ولا أظنكم بحاجة إلى من يحثكم على الصبر، فأنتم من تعلمون الصبر بثباتكم ورباطة جأشكم، ومعنوياتكم العالية، التي تناطح السحاب، وتعلو شوامخ القمم، والله لن يتركم الأجر والمثوبة ما دمتم محتسبين ما تجدون في سبيله، وابتغاء مرضاته، وعملاً بما يرضيه، عَجَّلَ الله سبل فَرَجِكُم، ويَسَّر فك قيدكم، وأثابكم عن أمتكم وشعبكم ووطنكم ومقدساتكم خير الثواب، فالله لا يضيع عنده ثواب مثقال ذرة، ولن يُخلف وعده للمرابطين في سبيله، وصلى الله على رسولنا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الفصل الخامس

مناهج وقيم

.30	يحثنا على استثمار أعمارنا وأجسامنا في طاعة الله	147
.31	الرسول الأسوة ﷺ واستراحة العابد	151
.32	يدعونا لموسم الطاعة ونبذ العصيان	158
.33	الرسول الأسوة ﷺ وأساليبه التعليمية في الحج	164
.34	يعلم الحجاج مناسكهم	171
.35	يحث على الصدقة بالفضل	178
.36	يثمن قدر الآباء والأمهات	182
.37	يدعو للوحدة ويؤسس لها	188
.38	يدعو لوحدة الأمة	192
.39	يحذر من جريمة القتل	195
.40	يميز بين الفضيلة والرذيلة في العلاقات الجنسية	199
.41	تحيته السلام	205
.42	ينهى عن فضول الكلام	210
.43	ينهى عن تتبع عورات المسلمين	216
.44	يحث المتقاضين على تحري الصدق	220
.45	حاله وأفعاله إذا حزبته الخطوب	224
.46	يبث الأمل وقت الشدة	231
.47	يحافظ على حق العامل	235
.48	مواقف من رحمته	239
.49	يوجه الناجح وصاحب الكبوة	243
.50	يحث أمته على اختيار الاسم الحسن	250

في توجيه نبوي كريم يلقي الضوء بشكل واضح على الغاية من وجودنا في هذا الكون، يربط النبي الأسوة، عليه الصلاة والسلام، بين هذه الحياة الدنيا التي هي دار امتحان وابتلاء للعباد، وبين المآل الذي يصير إليه في الحياة الآخرة، {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ} [1]، {وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً* اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً}.[2]

فلا تزول قدما عبد في الحشر، ولا يجوز الصراط إلا بعد سؤاله عن عمله، وعمره، وماله وما جمع منه واستكثر، فإما شاكراً فطن لنعمة المنعم، وقام بحقها، وإما جاهلاً منكراً، لسان حاله يقول: {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي} [3]، وقد وصف رسولنا الأكرم ﷺ هذا الحال بدقة متناهية، وبصورة جلية واضحة في حديثه الشريف الذي رواه سعيد بن عبد الله بن جريج عن أبي برزة الأسلمي قال:" قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاهُ ".[4]

إنه المصير الذي يؤول إليه كل ابن آدم سواء أكان مسلماً أم كافراً، طائعاً أم عاصياً، {وَبَرَزُواْ لِلّهِ جَمِيعاً} [5]، {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ} [6]، {وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً}.[7]

1. الملك: 2.
2. الإسراء: 13-14.
3. القصص: 78.
4. سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله، باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص، وصححه الألباني.
5. إبراهيم: 21.
6. الزمر: 68.
7. الكهف: 47.

وفي هذا الموقف العظيم الذي تجتمع فيه جميع الخلائق يجري حسابهم من الله تعالى على ما أسلفوا في حياتهم الدنيا، التي لا عودة إليها بعد هذا اليوم، حيث يتمنى الظالمون لأنفسهم أن يعودوا إليها تارة أخرى ليعملوا غير الذي عملوا، ولكن هيهات هيهات، {رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ}.[1]

ولعل في هاتين الصورتين المتقابلتين لحال المؤمنين وحال الكافرين، ما يجلي صورة زوال الأقدام بعد السؤال والانصراف إلى دار النعيم والخلود أو دار العذاب وبئس القرار، قال تعالى: {وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ* وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ* وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ* قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ* وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ* وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}.[2]

فمن أفنى عمره في توحيد الله وطاعته وعبادته، وأيقن بأن الله سائله يوم القيامة عن عمله، فأعد لذاك اليوم عدته، واحتسب كل أوقاته وأنفاسه في طاعة مولاه، وعمر عمره بالصالحات، لقي الكرامة والعزة والرفعة، في كنف الله تعالى، الذي لا يخيب قاصده، ولا يرد سائلاً رحمته عن باب مغفرته وجوده وكرمه، بل يكافئ بالمزيد، فالحسنة بعشر أمثالها إلى أضعاف كثيرة، والله يضاعف لمن يشاء، {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ}[3]، {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي

1. فاطر: 37.
2. الزمر: 69-74.
3. يونس: 26.

الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ } [1]، {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً*وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً}.[2]

وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَعْنِي الْعَبْدَ مِنْ النَّعِيمِ، أَنْ يُقَالَ لَهُ: أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ، وَنُرْوِيَكَ مِنْ الْمَاءِ الْبَارِدِ؟".[3]

وفي الحديث عن الزبير بن العوام، رضي الله عنه، قَالَ: "لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةَ {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ النَّعِيمِ} [4] قَالَ الزُّبَيْرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ فَأَيُّ النَّعِيمِ نُسْأَلُ عَنْهُ، وَإِنَّمَا هُمَا الأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالْمَاءُ؟ قَالَ: أَمَا إِنَّهُ سَيَكُونُ". [5]

وكما أن الإنسان مسؤول عن عمره فيما أفناه، فهو مسؤول عن جسده فيما أبلاه خلال هذا العمر، أفي الخير أم الشر.

كما أنه مسؤول عن ماله، يدل على ذلك قول النبي ﷺ عند "قراءة أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ، قَالَ: يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي، قَالَ: وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ".[6]

فاحرص أخي المسلم حتى تكون من الفائزين يوم العرض على رب العالمين، وتكون ضمن وفد الرحمن للفوز بالجنان والنعيم المقيم، على استغلال أوقات عمرك في الخير والطاعات، والبعد عن السيئات والموبقات.

---

1. الحاقة: 24.
2. مريم: 85-86.
3. سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن الكريم، باب ومن سورة ألهاكم التكاثر، وصححه الألباني.
4. التكاثر: 8.
5. سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن الكريم، باب ومن سورة ألهاكم التكاثر، وقال الألباني: حسن الإسناد.
6. صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق.

واحرص أن يكون علمك لله مهما قل هذا العلم، فقد ورد في الأثر عن سيد البشر ﷺ قَالَ: "بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ".([1])

وكن بعيداً عن المراء في العلم، ولا يغرنك في ذلك تزيين الشيطان، واعلم أنه {فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ} ([2])، وكن ممن حمل أدب العلم وطلب الاستزادة منه في توجيه كتاب الله الكريم، {وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً} ([3])، وإذا آتاك الله مالاً فكن مسلطاً على هلكته في الخير، فلا حسد إلا في اثنتين، كما أخبر النبي الأكرم ﷺ قَالَ: "لا حَسَدَ إلا فِي اثْنَتَيْنِ؛ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ، فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً، فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ"([4])، {الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواْ مَنّاً وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}.([5])

فلتكن حياتنا كلها لله تعالى، نسخر فيها أجسامنا وأموالنا وعلومنا في خيرنا وخير أهلنا وأمتنا، وخير البشرية جمعاء، وبهذا نؤدي أمانة المسؤولية في هذه الدنيا، وأمانة الرسالة التي أكرمنا الله بها رحمة للعالمين.

وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأسوة، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

---

1. صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل.
2. يوسف: 76.
3. طه: 114
4. صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه وفضل من تعلم حكمة.
5. البقرة: 262.

عن أبي عُبَيْدٍ مولى ابن أَزْهَرَ قال: "شَهِدْتُ الْعِيدَ مع عُمَرَ بن الْخَطَّابِ، رضي الله عنه، فقال: هَذَانِ[1] يَوْمَانِ نهى رسول اللَّهِ ﷺ عن صِيَامِهِمَا؛ يَوْمُ فِطْرِكُمْ من صِيَامِكُمْ، وَالْيَوْمُ الآخَرُ تَأْكُلُونَ فيه من نُسُكِكُمْ".[2]

يبين ابن حجر العسقلاني فائدة وصف اليومين في هذا الحديث، بالإشارة إلى العلة في وجوب فطرهما، وهو الفصل من الصوم، وإظهار تمامه وحده بفطر ما بعده، والآخر لأجل النسك المتقرب بذبحه، ليؤكل منه، ولو شرع صومه لم يكن لمشروعية الذبح فيه معنى، فعبر عن علة التحريم بالأكل من النسك؛ لأنه يستلزم النحر، وفي الحديث تحريم صوم يومي العيد سواء النذر والكفارة والتطوع والقضاء والتمتع، وهو بالإجماع. [3]

فالفاروق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يخبر عن نهي الرسول ﷺ عن صيام عيدي الفطر والأضحى، ومن دلالات هذا النهي النبوي أنه ينبه الأذهان إلى طبيعة دين الإسلام الذي يوازن بين مطالب الجسد والروح، وبين مقاصد الدنيا والآخرة، فهو يشدد على أداء المناسك والشعائر التعبدية، ويفصل أحكامها وأوقاتها وشروطها وثوابها وعقاب تركها أو التفريط فيها، وهو في الوقت نفسه يمنع التفرغ الكامل لأداء الشعائر التعبدية، بل يفرض أحياناً التحلل منها، فهو يفرض الصيام بالإمساك عن المفطرات في نهار رمضان، ويأمر بالتحلل من الصيام بالإفطار اليومي بعد غروب الشمس، ويمنع صيام يوم التحلل

1. قوله هذان فيه التغليب، وذلك أن الحاضر يشار إليه بهذا، والغائب يشار إليه بذاك، فلما أن جمعهما اللفظ قال: هذان؛ تغليباً للحاضر على الغائب.(فتح الباري، ج4، ص239).

2. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب صوم يوم الفطر.

3. فتح الباري، ج4، ص239.

من ختم شهر رمضان بعد ثبوت هلال شهر شوال التالي لرمضان، فمن أفطر نهار رمضان وهو مكلف دون عذر شرعي يأثم، ومن صام يوم العيد يأثم، في صورة تجمع بين المتقابلين تحت مظلة العبادة المشروعة، فكما كان الإمساك نهار رمضان عبادة، فإن الإفطار بعد الغروب ويوم العيد عبادة أيضاً، وهناك عدد من الأحاديث النبوية الصحيحة تدل على هذا المنحى في التوجيهات النبوية، والتي تدل بوضوح على أن الرسول ﷺ كان يحرص على أن تكون للعابد استراحة؛ تبقي على حيويته وهمته ونشاطه وهو يؤدي الشعائر والمناسك دون أن يصاب بداء الملل والسآمة منها.

وصلاة قيام ليالي رمضان تسمى التراويح، جمع ترويحة؛ وهي المرة الواحدة من الراحة، كتسليمة من السلام، وسميت بذلك؛ لأنهم أول ما اجتمعوا عليها كانوا يستريحون بين كل تسليمتين، قال الليث: قدر ما يصلي الرجل كذا وكذا ركعة. [1]

وفي سياق الاستدلال على استراحة العابد يظهر أنه مثلما نهى الرسول ﷺ عن صيام العيدين، فإنه نهى عن الوصال في الصيام والقيام، فعن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: "إِيَّاكُمْ وَالْوِصَالَ، قَالُوا: فَإِنَّكَ تُوَاصِلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: إِنَّكُمْ لَسْتُمْ فِي ذَلِكَ مِثْلِي، إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي، فَاكْلَفُوا مِنْ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ". [2]

ومن الشواهد الدالة بوضوح على تشريع الاستراحة للعابد ما جاء في رده على الثلاثة نفر الذين أرادوا المبالغة في العبادة، إلى حد الانشغال التام بها، فعن أَنَس ابن مَالِكٍ، رضي الله عنه، قال: "جاء ثَلاثَةُ رَهْطٍ[3] إلى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النبي يَسْأَلُونَ عن عِبَادَةِ [4]

---

1. المنتقى شرح موطأ مالك، كتاب الصلاة في رمضان، ولم يمنعه من المواظبة عليه إلا خشية أن يفرض على أمته، ص 417/2، باب ما جاء في قيام رمضان.

2. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب نهى رسول الله ﷺ عن الوصل في الصوم.

3. وفي رواية مسلم من حديث ثابت عن أنس أن نفراً من أصحاب النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، والفرق بين الرهط والنفر، أن الرهط من ثلاثة إلى عشرة، والنفر من ثلاثة إلى تسعة، وكل منهما اسم جمع لا واحد له، ولا منافاة بينهما من حيث المعنى. (عمدة القاري، ج20، ص65).

4. وفي رواية مسلم "أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ سَأَلُوا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ عَمَلِهِ فِي السِّرِّ" صحيح مسلم، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه.

النبي، فلما أُخْبِرُوا، كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا[1]، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ من النبي، قد غَفَرَ الله له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ وما تَأَخَّرَ، قال أَحَدُهُمْ: أَمَّا أنا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَداً، وقال آخَرُ: أنا أَصُومُ الدَّهْرَ ولا أُفْطِرُ، وقال آخَرُ: أنا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فلا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رسول اللَّهِ ﷺ فقال: أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا والله إني لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ له، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عن[2] سُنَّتِي[3]، فَلَيْسَ مِنِّي".[4]

فهذا الحديث واضح في بيان رد الرسول ﷺ على قرارات هذا النفر من المسلمين، الذين ابتغوا أن يشددوا على أنفسهم بالتجرد النوعي للزهد والعبادة، سواء للصيام أو القيام أو هجر الزواج، فلما علم الرسول ﷺ بخبرهم، بين أنه أكثر خشية لله، وأشد تقوى منهم، ومع ذلك فإنه يصوم ويفطر، ويقوم للصلاة وينام، ويتزوج النساء، ويبقى أخشى وأتقى من الذين يشددون، محذراً من سلوك منحى التشدد في الدين، بإعلانه البراءة ممن يختار طريقاً ومنهجاً مخالفاً لما هو عليه، بقوله: فمن رغب عن سنتي – طريقتي– فليس مني، حتى إن بدا ظاهر ذلك المنهج المخالف بصورة المبالغة في عمل الطاعة، وتقديم المزيد منها، على طريقة الإفراط في العبادة والعطاء.

فالإنسان خلق ليعبد الله، وهو يصلي ويصوم، ويزكي، ويحج، ويعبده كذلك، وهو يأكل ويشرب ويتزوج ويسعى على رزق عياله، ويتمتع بطيبات ما رزقه الله وفق شريعة الله وهدي نبيه، وقد أنكر الله تعالى على من حرم على نفسه أو على الناس شيئاً مما أباحه لهم، فقال تعالى: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}.[5]

---

1. تقالوها بتشديد اللام المضمومة، أي عدوها قليلة، وأصله تقاللوا فأدغمت اللام في اللام لاجتماع المثلين.
2. لفظ رغب إذا استعمل بكلمة عن، فمعناه أعرض، وإذا استعمل بكلمة في، فمعناه أقبل إليه.
3. طريقتي.
4. صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح.
5. الأعراف: 32.

وينهى الله المؤمنين عن الاعتداء على حق الله في إباحة الطيبات لعباده، فيقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}.[1]

والله يأمر العابدين بالتمتع بالطيبات، وشكر الله على آلائه فيها، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}.[2]

وعن أبي جحيفة عن أبيه قال: "آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً، فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكِ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ: كُلْ، قَالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَ: مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ، قَالَ: فَأَكَلَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، قَالَ: نَمْ، فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ، فَقَالَ: نَمْ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، قَالَ سَلْمَانُ: قُمْ الآنَ، فَصَلَّيَا، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ صَدَقَ سَلْمَانُ ".[3]

وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: "كُنْتُ أَصُومُ الدَّهْرَ، وَأَقْرَأُ الْقُرْآنَ كُلَّ لَيْلَةٍ، قَالَ: فَإِمَّا ذُكِرْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَإِمَّا أَرْسَلَ إِلَيَّ، فَأَتَيْتُهُ، فَقَالَ لِي: أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ الدَّهْرَ، وَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ كُلَّ لَيْلَةٍ؟ فَقُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ؛ وَلَمْ أُرِدْ بِذَلِكَ إِلا الْخَيْرَ، قَالَ: فَإِنَّ بِحَسْبِكَ أَنْ تَصُومَ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ، قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ؛ إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: فَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، قَالَ: فَصُمْ صَوْمَ دَاوُدَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ، فَإِنَّهُ كَانَ أَعْبَدَ النَّاسِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ؛ وَمَا صَوْمُ دَاوُدَ؟ قَالَ: كَانَ يَصُومُ يَوْمًا، وَيُفْطِرُ يَوْمًا، قَالَ: وَاقْرَأْ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ، قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ؛

---

1. المائدة: 87.

2. البقرة: 172.

3. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع ولم ير عليه قضاء إذا كان أوفق له.

إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ عِشْرِينَ، قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ؛ إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ عَشْرٍ، قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ؛ إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ سَبْعٍ، وَلا تَزِدْ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، قَالَ: فَشَدَّدْتُ فَشُدِّدَ عَلَيَّ، قَالَ: وَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّكَ لا تَدْرِي لَعَلَّكَ يَطُولُ بِكَ عُمْرٌ، قَالَ: فَصِرْتُ إِلَى الَّذِي قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمَّا كَبِرْتُ، وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ قَبِلْتُ رُخْصَةَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ".[1]

وفي الحج شرع الله التمتع بين أداء مناسك العمرة ومناسك الحج، فقال تعالى: {...فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ...}.[2]

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ مُتْعَةِ الْحَجِّ، فَقَالَ: أَهَلَّ الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ وَأَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ وَأَهْلَلْنَا، فَلَمَّا قَدِمْنَا مَكَّةَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اجْعَلُوا إِهْلالَكُمْ بِالْحَجِّ عُمْرَةً، إِلا مَنْ قَلَّدَ الْهَدْيَ، فَطُفْنَا بِالْبَيْتِ وَبِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَأَتَيْنَا النِّسَاءَ، وَلَبِسْنَا الثِّيَابَ، وَقَالَ: مَنْ قَلَّدَ الْهَدْيَ، فَإِنَّهُ لا يَحِلُّ لَهُ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ، ثُمَّ أَمَرَنَا عَشِيَّةَ التَّرْوِيَةِ أَنْ نُهِلَّ بِالْحَجِّ، فَإِذَا فَرَغْنَا مِنَ الْمَنَاسِكِ، جِئْنَا فَطُفْنَا بِالْبَيْتِ وَبِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَقَدْ تَمَّ حَجُّنَا، وَعَلَيْنَا الْهَدْيُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ، وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ}[3] إِلَى أَمْصَارِكُمْ، الشَّاةُ تَجْزِي، فَجَمَعُوا نُسُكَيْنِ فِي عَامٍ بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَهُ فِي كِتَابِهِ، وَسَنَّهُ نَبِيُّهُ ﷺ، وَأَبَاحَهُ لِلنَّاسِ غَيْرَ أَهْلِ مَكَّةَ، قَالَ اللَّهُ: {ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ

1. صحيح مسلم، كتاب الصوم، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به.
2. البقرة: 196.
3. البقرة: 196.

الْحَرَامِ} [1] وَأَشْهُرُ الْحَجِّ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ: شَوَّالٌ وَذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحَجَّةِ، فَمَنْ تَمَتَّعَ فِي هَذِهِ الأَشْهُرِ فَعَلَيْهِ دَمٌ، أَوْ صَوْمٌ. وَالرَّفَثُ: الْجِمَاعُ، وَالْفُسُوقُ: الْمَعَاصِي، وَالْجِدَالُ: الْمِرَاءُ".[2]

فاستراحة العابد تبدو واضحة في نسك التمتع، حيث إن الحاج الذي جمع بين العمرة والحج، يدخل مكة محرماً، ثم يؤدي مناسك العمرة، ويتحلل بعد ذلك من إحرامه، ليعود إليه في اليوم الثامن من ذي الحجة -يوم التروية- معلناً استئناف أعمال الحج، وهو بتحلله من الإحرام الأول، والعودة للإحرام من جديد يكون قد استراح من قيود الإحرام، وتمتع بالتحلل، وهي متعة تعبر عن شكل من أشكال الاستراحة التي يتيحها الشرع الحنيف للعابد.

فالرسول ﷺ، حرص أشد الحرص على تربية المسلمين ليكونوا عباداً لله على الوجه الصحيح، يمارسون الشعائر التعبدية، وهم يحافظون على أداء الواجب منها، ويسعون لتقديم المزيد في دائرة التطوع والنوافل، على تفاوت بينهم في ذلك، ولم يقبل منهم المغالاة فيها، مثلما لم يسمح لهم بالتفريط بشيء منها، فكانوا بذلك يقتفون سنة الرسول ﷺ، الذي علمهم بقوله وفعله وتوجيهاته كيف يعبدون الله باعتدال، يعبدون ويستريحون، وهم يمارسون العبادات الرئيسة من صلاة وصيام وحج، حتى يكون كل نوع من أنواع العبادة مدرسة سلوكية لهم، يتعلمون منها بالممارسة والتطبيق القيم والمثل العليا، ويأخذون منها بواعث نجاحهم في الدنيا، ومقدمات فوزهم بالآخرة.

والعابد الناجح يعرف طريقه إلى ربه على النحو الذي يرضيه سبحانه، أسوته في خطاه منهج الرسول ﷺ وهديه وسنته، الذي صام وأفطر، وقام الليل ونام، وأكل وشرب وتزوج،

1. البقرة: 196.

2. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب قول الله تعالى {ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام}.

وعاش لله عابداً في صومه وصلاته وحجه وجهاده، وعاش له كذلك في بقية شأنه، مقرراً أنه بشر له طباعهم وفيه نوازعهم، فعن علقمة، قال: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: "صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ: لا أَدْرِي زَادَ أَوْ نَقَصَ، فَلَمَّا سَلَّمَ، قِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَحَدَثَ فِي الصَّلاةِ شَيْءٌ؟ قَالَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالُوا: صَلَّيْتَ كَذَا وَكَذَا، فَثَنَى رِجْلَيْهِ، وَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، وَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ، ثُمَّ سَلَّمَ، فَلَمَّا أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ، قَالَ: إِنَّهُ لَوْ حَدَثَ فِي الصَّلاةِ شَيْءٌ لَنَبَّأْتُكُمْ بِهِ، وَلَكِنْ؛ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ؛ أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ، فَإِذَا نَسِيتُ، فَذَكِّرُونِي، وَإِذَا شَكَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلاتِهِ، فَلْيَتَحَرَّ الصَّوَابَ، فَلْيُتِمَّ عَلَيْهِ، ثُمَّ لِيُسَلِّمْ، ثُمَّ يَسْجُدُ سَجْدَتَيْنِ".([1])

والبشر ينشطون ويتعبون، وهم بذلك يحتاجون الراحة، فلا بد للعابد إذن من استراحة، تتخلل أداءه للطاعة والعبادة، ليحافظ على نشاطه وحياته، ويبقى على شوق للعبادة.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد الأسوة، وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن اقتدى بهداه واهتدى إلى يوم الدين.

1. صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ، إِلا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ". ([1])

تتعدد فوائد الصيام وخيراته لتشمل مجالات عدة، على رأسها الفوز بالجنة، ورسولنا الأسوة ﷺ يبين في حديثه أعلاه بعض ما اختص به الصائم من حسن الجزاء، حيث ميزه بجزاء رباني خاص، إضافة إلى أنه خصه سبحانه بدخول الجنة من باب خاص، فعَنْ سَهْلٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ، يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ؟ فَيَقُومُونَ لا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، فَإِذَا دَخَلُوا أُغْلِقَ، فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ".([2])

ويطلب من الصائم ليحظى بجزاء الصيام أن يخلص لله في صومه، وأن يبتعد عن الذنوب والآثام التي تضيع الأجر، وتخل بمقتضى الطاعة المتمثلة بهذه العبادة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "الصِّيَامُ جُنَّةٌ، فَلا يَرْفُثْ، وَلا يَجْهَلْ، وَإِنْ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ، فَلْيَقُلْ إِنِّي صَائِمٌ مَرَّتَيْنِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، يَتْرُكُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَشَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِي، الصِّيَامُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا".([3])

ورد في فتح الباري عَنْ أَبِي الزِّنَاد "جُنَّة مِنْ النَّار" وَالْجُنَّة بِضَمِّ الْجِيم الْوِقَايَة وَالسِّتْر، ومُتَعَلَّق هَذَا السِّتْر مِنْ النَّار، وَأَمَّا صَاحِب"النِّهَايَة" فَقَالَ: مَعْنَى كَوْنه جُنَّة أَيْ يَقِي صَاحِبه مَا يُؤْذِيه مِنْ الشَّهَوَات. وَقَالَ الْقُرْطُبِيّ: جُنَّة أَيْ سُتْرَة، يَعْنِي بِحَسَبِ مَشْرُوعِيَّته، فَيَنْبَغِي لِلصَّائِمِ أَنْ

1. صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب ما يذكر في المسك.
2. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب الريان للصائمين.
3. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب فضل الصوم.

يَصُونَهُ مِمَّا يُفْسِدهُ وَيَنْقُص ثَوَابه، وَإِلَيْهِ الإِشَارَة بِقَوْلِهِ "فَإِذَا كَانَ يَوْم صَوْم أَحَدكُمْ فَلا يَرْفُث إِلَخْ"، وَيَصِحّ أَنْ يُرَاد أَنَّهُ سُتْرَة بِحَسَبِ فَائِدَته، وَهُوَ إِضْعَاف شَهَوَات النَّفْس، وَإِلَيْهِ الإِشَارَة بِقَوْلِهِ "يَدَع شَهْوَته إِلَخْ"، وَيَصِحّ أَنْ يُرَاد أَنَّهُ سُتْرَة بِحَسَبِ مَا يَحْصُل مِنْ الثَّوَاب وَتَضْعِيف الْحَسَنَات. وَقَالَ عِيَاض فِي "الإِكْمَال": مَعْنَاهُ سُتْرَة مِنْ الآثَام أَوْ مِنْ النَّار أَوْ مِنْ جَمِيع ذَلِكَ، وَبِالأَخِيرِ جَزَمَ النَّوَوِيّ. وَقَالَ اِبْن الْعَرَبِيّ: إِنَّمَا كَانَ الصَّوْم جُنَّة مِنْ النَّار لأَنَّهُ إِمْسَاك عَنْ الشَّهَوَات، وَالنَّار مَحْفُوفَة بِالشَّهَوَاتِ. فَالْحَاصِل أَنَّهُ إِذَا كَفّ نَفْسه عَنْ الشَّهَوَات فِي الدُّنْيَا كَانَ ذَلِكَ سَاتِرًا لَهُ مِنْ النَّار فِي الآخِرَة . ([1])

وفي شهر رمضان المبارك، يوجد الصائم القائم، ويوجد صاحب المعاصي والآثام، فإذا عبد المرء ربه كأنه يراه، فهو المحسن، وما دون ذلك درجات، فمن صام عن الطعام والشراب ولم يصم عن الرفث والغيبة والنميمة، فقد خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، ومن كف عن الصيام والصلاة دون عذر فهو على الصعيد الآخر المناقض للإيمان والتقوى والصلاح، ويضم هذا الصعيد المجاهرين بالمعاصي، والمفسدين في الأرض، وإن ظنوا في أنفسهم الصلاح والحضارة، وزعموا المدنية والتقدم، والله تعالى يؤكد حقيقة تصنيف الناس إلى مصلحين ومفسدين، فيقول سبحانه: {الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ} ([2])، والله تعالى توعدهم، فقال سبحانه: {الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ} ([3])، وقد يغتر المفسدون بجاهلهم؛ فيظنون بأن أعمالهم الضالة تصب في معين الصلاح، لكن الله يقرر أنهم مفسدون بانحرافهم، وإن كانوا لا يدركون هذه الحقيقة، فيقول تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ* أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـكِن لاَّ يَشْعُرُونَ}.([4])

ولا تقتصر الأعمال والأقوال التي تتنافى مع روح الطاعة ومقتضاها، على ما يصدر عن بعض الناس في رمضان على مستوى السلوك الخاص، الذي تختلط فيه أحياناً صلاة بعض

1. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج4، ص104.
2. الشعراء: 152.
3. النحل: 88.
4. البقرة 11-12.

الناس وصيامهم ببعض الشوائب، وإنما تسود بعض الظواهر السلبية في رمضان في كثير من بلاد المسلمين ومجتمعاتهم، فتجد الترويج لأعمال خاصة برمضان قبل حلوله بشهور عدة، ويظن المرء لأول وهلة أن ما يجري دليل على الاهتمام برمضان، ويتعلق بالقرآن والسنة والطاعة والعبادة، ولكنه لا يلبث أن يصدم حين يطلع على مادة الاهتمام ونوعها وشكلها، التي تتناقض تماماً مع أهداف رمضان وروحه، ويراد لمحصلتها أن تشغل الناس فيه عن مسار الطاعة إلى مسار العصيان، وتبعدهم عن استشعار خيرات الصيام وفضائل القيام، بحجة التسلية وقتل الوقت بوسائل ما أنزل بها من سلطان، حتى أضحت شريحة لا يستهان بعددها من الصائمين مشغولة بالأعمال الفنية، وبأنواع المسلسلات الدرامية والكوميدية على حساب أوقات الطاعة والسنن.

ويتحمل المسؤولية عن هذا التداخل والتشاحن بين الطاعة والعبادة وأعمال التسلية بأنواعها وأشكالها المختلفة جهات عدة، فمنتجو تلك الأعمال قد تطغى على أهدافهم المقاصد النفعية والمادية التي يسعون لجنيها، إضافة إلى الفوز بالشهرة والتفوق على الجهات المنافسة، وقد يذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك حين يتجندون لاستهداف قيم الصائمين والمصلين ومعتقداتهم، عن طريق إغوائهم بتزيين المنكرات، والإيقاع والعزف على أوتار الشهوات والأهواء، لينتقلوا بهم من الانجذاب إلى الإيمان والصلاح والتقوى وفق معايير الدين، إلى حال الانحراف والغواية، التي تعهد إبليس بالعمل لها، وحشد الناس إليها، مصداقاً لقوله تعالى: {قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ* قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ* قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ* ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ}[1]، وقد تعهد إبليس أن يزين لبني آدم طرق الغواية عن الحق والهدى والصلاح، فقال سبحانه على لسانه: {قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ

1. الأعراف: 14-17.

أَجْمَعِينَ} [1]، وقد أقسم إبليس برب العزة على التزامه بإغواء الناس، قال تعالى:{قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ}.[2]

ومما لا شك فيه أن الحكومات والجهات المسؤولة عن ضبط الأمور في المجتمعات تتحمل واجباً عظيماً ومسؤوليةً كبيرةً تجاه حراسة أمن القيم والعقائد والعبادات التي شرعها الله، فهي صاحبة الأمر والنهي، والإذن والمنع، فيما يجري في ربوع سيطرتها ونفوذها، وقد يخرج علينا معترض محتجاً بأن الحفاظ على الحريات الشخصية للناس أمر مقدس، وأن منهج منح الحريات يقتضي السماح لمن هب ودب بأن يعرض وينشر، كما يحصل في الدول الغربية التي نشرت الرسوم المسيئة للرسول ﷺ، والتي تذرعت بالحريات لفتح هذا الباب على مصراعيه، دون حسيب أو رقيب، ولو سلمنا جدلاً بحق الحريات على هذا النحو، فإننا نجد تناقضاً واضحاً وضوح الشمس، إذ تحترم الحريات في مجالات كانتهاك الحرمات بالنشر والعرض، وتكبل وتعطل حين تتعلق بآراء الناس وأفكارهم، وأداء شعائر دينهم والعمل بأحكامه؛ في لباسهم ومظاهرهم والدعوة، لنشر القيم والدفاع عنها في كثير من ربوع الأرض وأصقاع الدنيا، فكم من فكرة أو قضية يمنع الحديث عنها، ولا تنعم بنور النشر والعرض بحجة كذا وكذا، ولكن عند تجاوز حدود اللياقة مع القيم والآداب في اللباس والاختلاط وفسوق التصرفات والأفعال، تيسر الأمور، وتفتح الآفاق، وتسهل سبل الدعاية والترويج.

فشتان بين من يعمل للطاعة في رمضان، وبين من يستهدفه بالعصيان وانتهاك الحرمات، ولكلٍ أتباع، فمن تبع هدى الله فلا يضل ولا يشقى، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ومن ضل فإنما يضل على نفسه، وقد غوى في الجحيم.

ونود التوضيح أن الموقف الشرعي من الأعمال الفنية إنما يتحدد في ضوء مراعاة ضوابط الشرع وقيمه وأحكامه، فما توافق معها فهو المباح، وما تعارض معها فهو المرفوض، وإن تلقته حشود من الناس بالقبول، إذ العبرة بمعروف الشرع لا معروف الأهواء والأمزجة، والله خلق

1. الحجر: 39.

2. ص: 82.

الناس بأرواحهم وأجسادهم وعقولهم وغرائزهم وعواطفهم وميولهم، وفي الوقت نفسه شرع لهم ضوابط وأحكاماً وقيماً تحول دون الانجرار وراء الشهوات بلا كوابح، وقد وصف الله تجاهل الانضباط في التعامل مع الأهواء والشهوات بالغواية والضلال، فقال تعالى: {فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[1]، وحذر الله من الانخداع بإغواء أهل الشهوات، فقال تعالى: {وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً}[2]، ووردت آيات كثيرة تحذر من الانصهار في بوتقة أصحاب الأهواء، ومن تلك الآيات، قوله تعالى:{...وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ}[3]، وقوله سبحانه: {...فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ...}[4]، وقوله جل شأنه: {وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ...}[5]، وقوله عز وجل: {وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ}.[6]

وبالنسبة إلى ما يعلن عما ستعرضه بعض القنوات الفضائية والمحطات التلفازية في رمضان، لا بد من القول: إنه إذا كانت قنوات الناس وحكوماتهم لا تأبه بأحكام الشرع وآدابه، فإن قنوات المسلمين ينبغي أن تراعي خشية الله فيما يعرض على سمع الناس وأبصارهم وعقولهم وقلوبهم، من برامج ومواد إعلامية من حيث الأهداف والمضامين والوسائل والأساليب والأوقات والظروف والأحوال، وذلك إن أرادت أن تغرد في سرب عموم مجتمعاتها، حيث يتطلع سوادهم للعيش في ظل مرضاة الله، سعياً لنيل حسن جزائه في داري الدنيا والآخرة.

---

1. القصص: 50.
2. النساء: 27.
3. البقرة: 120.
4. المائدة: 48.
5. المائدة: 49.
6. الرعد: 37.

والمسؤولية عن الموقف مما يعرض عبر القنوات الفضائية ووسائل الإعلام ليست محصورة على أصحاب القرار والإنتاج والعرض، بل تشمل المشاهدين وأولياء الأمور ومؤسسات المجتمع المدني، إذ إن الله تعالى وجههم لتحمل أمانة المسؤولية عما استرعاهم، فقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}.[1]

فأولياء الأمور يتحملون واجباً عظيماً في تسهيل سبل الطاعة وتيسيرها لأبنائهم وبناتهم وأزواجهم وإخوانهم وأخواتهم، وفي صرف الغواية عنهم، وهذا الواجب لن يكون سهلاً في كثير من الأحيان والأحوال، فهو يتطلب مواجهة مع أهواء النفس، ومع التيار الجارف نحو الغواية في المجتمع والبيئة المحيطة، والتي لم تعد محصورة في حدود جغرافية محدودة، إذ أصبح البعيد قريباً ومؤثراً بفضل الفضائيات، ووسائل الاتصال الحديثة، فأصبحت المؤثرات تخترق ليل الناس ونهارهم وشوارعهم وأزقتهم وأسواقهم وعقر بيوتهم، وتأتيهم في ساعات الخلوة والاجتماع، وفي الصباح والمساء، وبألوان جذابة وأساليب مؤثرة ومنمقة ينساق لجذبها الصغار والكبار والرجال والنساء والذكور والإناث، ولم تعد الحدود الزمانية والمكانية تحت السيطرة، ولم يبق سوى التسلح بالمبادئ والقيم، عبر التربية الهادفة والمخططة والواعية.

ولا يصح لأولياء الأمور أن يتقاعسوا عن أداء ما أنيط بهم من دور ومسؤولية وما ألقي على كواهلهم من واجب، ولن يقبل الله منهم أن ينساقوا مع التيار الجارف، بغض النظر عن المبررات المفتعلة، فإما أن يكون المرء مع الله على مائدة الطاعة أو مع الشيطان على مائدة المعصية.

هدانا الله لنكون ممن رضي عنهم ورضوا عنه، وصرفنا عمن ضل وغوى، وجعلنا ممن يتأسى بهدي رسولنا الأسوة، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

---

1. التحريم: 6.

الناظر فيما ورد عن الرسول ﷺ في موضوع الحج، يجد مجالاً خصباً من الدروس والتوجيهات والتعاليم والأحكام، بالإضافة إلى أساليب تعليمية وتربوية عدة، على الرغم من أن الرسول ﷺ لم يحج إلا مرة واحدة، لكنها كانت شاملة، ونود هنا أن نقف عند بعض الأحاديث النبوية الشريفة، لنستخلص منها ما يفيد في التأسي بالرسول ﷺ في مجال الأساليب التعليمية والاقتداء به، التي منها التعليم بالقدوة والمناقشة ومراعاة الفروق الفردية، واستخدام الوسائل المعينة، مع التأكيد على أن الأمر ليس محصوراً في الأحاديث الواردة، وإنما هي عينة، تشمل الآتي:

فالرسول الأسوة ﷺ علَّم المسلمين الحاضرين واللاحقين بالقدوة، فعن أبي الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سمع جَابِرًا يقول: "رأيت النبي ﷺ يرمي على رَاحِلَتِهِ يوم النَّحْرِ، وَيَقُولُ: لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ، فَإِنِّي لا أَدْرِي لَعَلِّي لا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هذه".([1])

ومن الأحاديث الصحيحة عن الصحابة، رضوان الله عليهم، التي تبين تفضيل التأسي به ﷺ في أداء مناسك الحج، من خلال ممارسته، عليه الصلاة والسلام، لشعائرها، ما روي عن جَعْفَرِ بن مُحَمَّدٍ عن أبيه أنهم سألوا عن حِجَّةِ رسول اللَّهِ ﷺ، فقال بيده فَعَقَدَ تِسْعًا، فقال: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَكَثَ تِسْعَ سِنِينَ لم يَحُجَّ، ثُمَّ أَذَّنَ في الناس في الْعَاشِرَةِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَاجٌّ، فَقَدِمَ الْمَدِينَةَ بَشَرٌ كَثِيرٌ كلهم يَلْتَمِسُ أَنْ يَأْتَمَّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَيَعْمَلَ مِثْلَ عَمَلِهِ، فَخَرَجْنَا معه حتى أَتَيْنَا ذَا الْحُلَيْفَةِ، فَوَلَدَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ مُحَمَّدَ بن أبي بَكْرٍ، فَأَرْسَلَتْ إلى رسول اللَّهِ ﷺ، كَيْفَ أَصْنَعُ؟ قال: اغْتَسِلِي، وَاسْتَثْفِرِي بِثَوْبٍ، وَأَحْرِمِي.

1. صحيح مسلم، كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكباً.

فَصَلَّى رسول اللَّهِ ﷺ في الْمَسْجِدِ، ثُمَّ رَكِبَ الْقَصْوَاءَ، حتى إذا اسْتَوَتْ بِهِ نَاقَتُهُ على الْبَيْدَاءِ نَظَرْتُ إلى مَدِّ بَصَرِي بين يَدَيْهِ، من رَاكِبٍ وَمَاشٍ، وَعَنْ يَمِينِهِ مِثْلَ ذلك، وَعَنْ يَسَارِهِ مِثْلَ ذلك، وَمِنْ خَلْفِهِ مِثْلَ ذلك، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بين أَظْهُرِنَا، وَعَلَيْهِ يَنْزِلُ الْقُرْآنُ، وهو يَعْرِفُ تَأْوِيلَهُ، وما عَمِلَ بِهِ من شَيْءٍ عَمِلْنَا بِهِ.

فَأَهَلَّ بِالتَّوْحِيدِ، لَبَّيْكَ اللهم لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لك لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لك وَالْمُلْكَ، لا شَرِيكَ لك، وَأَهَلَّ الناس بهذا الذي يُهِلُّونَ بِهِ، فلم يَرُدَّ رسول اللَّهِ ﷺ عليهم شيئاً منه، وَلَزِمَ رسول اللَّهِ ﷺ تَلْبِيَتَهُ.

قال جَابِرٌ، رضي الله عنه: لَسْنَا نَنْوِي إلا الْحَجَّ، لَسْنَا نَعْرِفُ الْعُمْرَةَ حتى إذا أَتَيْنَا الْبَيْتَ معه اسْتَلَمَ الرُّكْنَ، فَرَمَلَ ثَلاثًا، وَمَشَى أَرْبَعًا، ثُمَّ نَفَذَ إلى مَقَامِ إبراهيم، عليه السَّلام، فَقَرَأَ {وَاتَّخِذُوا من مَقَامِ إبراهيم مُصَلًّى}[1] فَجَعَلَ الْمَقَامَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ، فَكَانَ أبي يقول: ولا أَعْلَمُهُ ذَكَرَهُ إلا عن النبي ﷺ، كان يَقْرَأُ في الرَّكْعَتَيْنِ: {قُلْ هو الله أَحَدٌ}[2] {وَقُلْ يا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ}[3] ثُمَّ رَجَعَ إلى الرُّكْنِ فَاسْتَلَمَهُ، ثُمَّ خَرَجَ من الْبَابِ إلى الصَّفَا، فلما دَنَا من الصَّفَا قَرَأَ{إِنَّ الصَّفَا والْمَرْوَةَ من شَعَائِرِ اللَّهِ}.[4]

أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ الله بِهِ، فَبَدَأَ بِالصَّفَا، فَرَقِيَ عليه، حتى رَأَى الْبَيْتَ، فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، فَوَحَّدَ اللَّهَ وَكَبَّرَهُ، وقال: لا إِلَهَ إلا الله وَحْدَهُ، لا شَرِيكَ له، له الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وهو على كل شَيْءٍ قَدِيرٌ، لا إِلَهَ إلا الله وَحْدَهُ، أَنْجَزَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ، ثُمَّ دَعَا بين ذلك، قال مِثْلَ هذا ثَلاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ نَزَلَ إلى الْمَرْوَةِ حتى إذا انْصَبَّتْ قَدَمَاهُ في بَطْنِ الْوَادِي سَعَى، حتى إذا صَعِدَتَا مَشَى حتى أتى الْمَرْوَةَ، فَفَعَلَ على الْمَرْوَةِ، كما فَعَلَ على الصَّفَا، حتى إذا كان آخِرُ طَوَافِهِ على الْمَرْوَةِ، فقال: لو أَنِّي اسْتَقْبَلْتُ من أَمْرِي ما اسْتَدْبَرْتُ لم أَسُقْ الْهَدْيَ،

1. البقرة: 125.
2. الإخلاص: 1.
3. الكافرون: 1.
4. البقرة: 158.

وَجَعَلْتُهَا عُمْرَةً، فَمَنْ كان مِنْكُمْ ليس معه هَدْيٌ فَلْيَحِلَّ، وَلْيَجْعَلْهَا عُمْرَةً، فَقَامَ سُرَاقَةُ ابن مَالِكِ بن جُعْشُمٍ فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَلِعَامِنَا هذا أَمْ لأَبَدٍ؟ فَشَبَّكَ رسول اللَّهِ ﷺ أَصَابِعَهُ وَاحِدَةً في الأُخْرَى، وقال: دَخَلَتْ الْعُمْرَةُ في الْحَجِّ مَرَّتَيْنِ، لا، بَلْ لأَبَدِ أَبَدٍ ...". (1)

ومن أساليبه التعليمية ﷺ في الحج تعبيره عن مقاصده بالعمل والملاحظة، عن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، قال: قَدِمَ رسول اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ، فقال الْمُشْرِكُونَ: إنه يَقْدَمُ عَلَيْكُمْ وقد وَهَنَهُمْ (2) حُمَّى يَثْرِبَ، فَأَمَرَهُمْ النبي ﷺ أَنْ يَرْمُلُوا الأَشْوَاطَ الثَّلاثَةَ(3)، وَأَنْ يَمْشُوا ما بين الرُّكْنَيْنِ، ولم يَمْنَعْهُ أَنْ يَأْمُرَهُمْ أَنْ يَرْمُلُوا الأَشْوَاطَ كُلَّهَا إلا الإِبْقَاءُ عليهم". (4)

فرد الرسول ﷺ على أقاويل المشركين التي طعنت في صحة المسلمين وقوتهم، تمثل بالهرولة بين الركنين في السعي بين الصفا والمروة، وذاك أبلغ من الاقتصار على الرد اللفظي، ودحض الحجة به.

وتبرز الأحاديث الصحيحة عن الرسول ﷺ، عنايته في مراعاة التيسير ورفع الحرج والفروق الفردية، ومن تلك الأحاديث ما روي عن عبد اللَّهِ بن عَمْرِو بن الْعَاصِ "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَقَفَ في حَجَّةِ الْوَدَاعِ بِمِنًى لِلنَّاسِ يَسْأَلُونَهُ، فَجَاءَهُ رَجُلٌ فقال: لم أَشْعُرْ فَحَلَقْتُ قبل أَنْ أَذْبَحَ، فقال: اذْبَحْ ولا حَرَجَ، فَجَاءَ آخَرَ، فقال: لم أَشْعُرْ فَنَحَرْتُ قبل أَنْ أَرْمِيَ، قال: ارْمِ ولا حَرَجَ، فما سُئِلَ النبي ﷺ عن شَيْءٍ قُدِّمَ ولا أُخِّرَ إلا قال: افْعَلْ ولا حَرَجَ". (5)

وعن عَبْدَ اللَّهِ بن عَمْرِو بن الْعَاصِ، رضي الله عنه، حدثه، "أَنَّهُ شَهِدَ النبي ﷺ يَخْطُبُ يوم النَّحْرِ، فَقَامَ إليه رَجُلٌ فقال: كنت أَحْسِبُ أَنَّ كَذَا قبل كَذَا، ثُمَّ قام آخَرُ، فقال: كنت

1. صحيح مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي، صلى الله عليه وسلم.
2. وهنهم: أضعفهم.
3. يرملوا: المشي السريع مع تقارب الخطى.
4. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب كيف كان بدء الرمل.
5. صحيح البخاري، كتاب العلم، باب الفتيا وهو واقف على الدابة وغيرها.

أَحْسِبُ أَنَّ كَذَا قبل كَذَا، حَلَقْتُ قبل أَنْ أَنْحرَ، نَحرْتُ قبل أَنْ أَرْمِيَ، وَأَشْبَاهَ ذلك، فقال النبي ﷺ: افْعَلْ ولا حَرَجَ لَهُنَّ كُلِّهِنَّ، فما سُئِلَ يَوْمَئِذٍ عن شَيْءٍ إلا قال: افْعَلْ ولا حَرَجَ".[1]

وعن عبد اللَّهِ بن عَمْرٍو قال: رأيت النبي ﷺ عِنْدَ الْجَمْرَةِ وهو يُسْأَلُ؛ فقال رَجُلٌ: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ نَحَرْتُ قبل أَنْ أَرْمِيَ، قال: ارْمِ ولا حَرَجَ، قال آخَرُ: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ حَلَقْتُ قبل أَنْ أَنْحرَ، قال: انْحَرْ ولا حَرَجَ، فما سُئِلَ عن شَيْءٍ قُدِّمَ ولا أُخِّرَ إلا قال: افْعَلْ ولا حَرَجَ".[2]

وعن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، أَنَّ النبي ﷺ قِيلَ له في الذَّبْحِ وَالْحَلْقِ وَالرَّمْيِ وَالتَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ فقال: لا حَرَجَ". [3]

ومن أساليب التيسير في الحج الجمع بين الصلاتين بعرفة: "فعن سَالِمٍ أَنَّ الْحَجَّاجَ ابن يُوسُفَ عَامَ نَزَلَ بِابْنِ الزُّبَيْرِ، رضي الله عنهما، سَأَلَ عَبْدَ اللَّهِ، رضي الله عنه: كَيْفَ تَصْنَعُ في الْمَوْقِفِ يوم عَرَفَةَ؟ فقال سَالِمٌ: إن كُنْتَ تُرِيدُ السُّنَّةَ، فَهَجِّرْ بِالصَّلَاةِ [4] يوم عَرَفَةَ، فقال عبد اللَّهِ بن عُمَرَ: صَدَقَ؛ إنَّهُمْ كَانُوا يَجْمَعُونَ بين الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ في السُّنَّةِ، فقلت لِسَالِمٍ: أَفَعَلَ ذلك رسول اللَّهِ ﷺ، فقال سَالِمٌ: وَهَلْ تَتَّبِعُونَ في ذلك إلا سُنَّتَهُ".[5]

ومن وجوه العناية بالتيسير على الحجاج قصر الخطبة بعرفة: عن سَالِمٍ قال: "كَتَبَ عبد الْمَلِكِ إلى الْحَجَّاجِ أَنْ لا يُخَالِفَ ابن عُمَرَ في الْحَجِّ، فَجَاءَ ابن عُمَرَ، رضي الله عنه، وأنا معه يوم عَرَفَةَ، حين زَالَتْ الشَّمْسُ فَصَاحَ عِنْدَ سُرَادِقِ الْحَجَّاجِ[6]، فَخَرَجَ وَعَلَيْهِ مِلْحَفَةٌ مُعَصْفَرَةٌ[7]، فقال: ما لك يا أَبَا عبد الرحمن؟! فقال: الرَّوَاحَ[8] إن كُنْتَ تُرِيدُ السُّنَّةَ، قال: هذه

---

1. صحيح البخاري ، كتاب الحج، باب الفتيا على الدابة عند الجمرة.
2. صحيح البخاري، كتاب العلم، باب السؤال والفتيا عند رمي الجمار.
3. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب إذا رمى بعد ما أمسى أو حلق قبل أن يذبح ناسياً.
4. هجر: صلى وقت الهاجرة، أي وقت الحر الشديد.
5. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب الجمع بين الصلاتين.
6. سرادق: كل ما أحاط بالشيء.
7. والمِلْحفة المعصفرة: اللِّباس الذي فوق سائر اللباس من دِثار البرد ونحوه؛ وكل شيء تغطَّيت به فقد التَحَفْت به، وقد صبغت باللون الأصفر.
8. الرواح: الخروج آخر النهار.

السَّاعَةَ؟ قال: نعم، قال: فَأَنْظِرْنِي حتى أُفِيضَ على رَأْسِي ثُمَّ أَخْرُجُ، فَنَزَلَ حتى خَرَجَ الْحَجَّاجُ، فَسَارَ بَيْنِي وَبَيْنَ أبي، فقلت: إن كُنْتَ تُرِيدُ السُّنَّةَ؛ فَاقْصُرْ الْخُطْبَةَ، وَعَجِّلْ الْوُقُوفَ، فَجَعَلَ يَنْظُرُ إلى عبد اللَّهِ، فلما رَأَى ذلك عبد اللَّهِ، قال: صَدَقَ".([1])

ومن وجوه التيسير في الحج الترخيص للمريض بالطواف راكباً، عن أُمِّ سَلَمَةَ قالت: "شَكَوْتُ إلى رسول اللَّهِ ﷺ أَنِّي أَشْتَكِي، قال: طُوفِي من وَرَاءِ الناس وَأَنْتِ رَاكِبَةٌ، فَطُفْتُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي إلى جَنْبِ الْبَيْتِ، يَقْرَأُ بالطور وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ".([2])

ومن أساليب الرسول الأسوة ﷺ التعليمية في الحج، التعليم بالسؤال والمناقشة، وذلك واضح فيما رواه ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَطَبَ الناس يوم النَّحْرِ؛ فقال: يا أَيُّهَا الناس؛ أَيُّ يَوْمٍ هذا؟ قالوا: يَوْمٌ حَرَامٌ، قال: فَأَيُّ بَلَدٍ هذا؟ قالوا: بَلَدٌ حَرَامٌ، قال: فَأَيُّ شَهْرٍ هذا؟ قالوا: شَهْرٌ حَرَامٌ، قال: فإن دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هذا، في بَلَدِكُمْ هذا، في شَهْرِكُمْ هذا، فَأَعَادَهَا مِرَاراً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فقال: اللهم هل بَلَّغْتُ، اللهم هل بَلَّغْتُ، قال ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما: فَوَالَّذِي نَفْسِي بيده إنَّهَا لَوَصِيَّتُهُ إلى أُمَّتِهِ، فَلْيُبْلِغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّاراً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ".([3])

والرسول الأسوة ﷺ ينوع الخيارات في الحج ويعددها، عن مُحَمَّدِ بن أبي بَكْرٍ الثَّقَفِيِّ "أَنَّهُ سَأَلَ أَنَسَ بن مَالِكٍ وَهُمَا غَادِيَانِ([4]) من مِنًى إلى عَرَفَةَ، كَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ في هذا الْيَوْمِ مع

1. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب التهجير بالرواح يوم عرفة.
2. صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب إدخال البعير في المسجد لعلة.
3. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى.
4. الغدي: الخروج أول النهار.

رسول اللَّهِ ﷺ؟ فقال: كان يُهِلُّ مِنَّا الْمُهِلُّ[1] فلا يُنْكِرُ عليه، وَيُكَبِّرُ مِنَّا الْمُكَبِّرُ، فلا يُنْكِرُ عليه".[2]

ومن شواهد وضع البدائل وتنويع الخيارات؛ تنويعه النسك في الحج، ففي صحيح البخاري يرد تحت بَاب التَّمَتُّعِ وَالإِقْرَانِ وَالإِفْرَادِ بِالْحَجِّ وَفَسْخِ الْحَجِّ لِمَنْ لم يَكُنْ معه هَدْيٌ حديث عن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، قالت: "خَرَجْنَا مع النبي ﷺ ولا نُرَى إلا أَنَّهُ الْحَجُّ، فلما قَدِمْنَا، تَطَوَّفْنَا بِالْبَيْتِ، فَأَمَرَ النبي ﷺ من لم يَكُنْ سَاقَ الْهَدْيَ أَنْ يَحِلَّ، فَحَلَّ من لم يَكُنْ سَاقَ الْهَدْيَ، وَنِسَاؤُهُ لم يَسُقْنَ فَأَحْلَلْنَ، قالت عَائِشَةُ، رضي الله عنها: فَحِضْتُ، فلم أَطُفْ بِالْبَيْتِ، فلما كانت لَيْلَةُ الْحَصْبَةِ[3]، قالت: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ يَرْجِعُ الناس بِعُمْرَةٍ وَحَجَّةٍ، وَأَرْجِعُ أنا بِحَجَّةٍ، قال: وما طُفْتِ لَيَالِيَ قَدِمْنَا مَكَّةَ؟ قلت: لا، قال: فَاذْهَبِي مع أَخِيكِ إلى التَّنْعِيمِ فَأَهِلِّي بِعُمْرَةٍ، ثُمَّ مَوْعِدُكِ كَذَا وَكَذَا، قالت صَفِيَّةُ: ما أُرَانِي إلا حَابِسَتَهُمْ، قال: عَقْرَى حَلْقَى[4] أَوَ ما طُفْتِ يوم النَّحْرِ؟ قالت: قلت: بَلَى، قال: لا بَأْسَ انْفِرِي، قالت عَائِشَةُ، رضي الله عنها: فَلَقِيَنِي النبي ﷺ وهو مُصْعِدٌ من مَكَّةَ، وأنا مُنْهَبِطَةٌ عليها، أو أنا مُصْعِدَةٌ وهو مُنْهَبِطٌ منها".[5]

والرسول الأسوة ﷺ يستخدم الوسائل المعينة في تعليمه وتوجيهه وإرشاده وعمله، فقد استخدم في الحج وسائل معينة حسية في تعليمه، فأشار بالسوط، واستلم الركن بمحجن وشبك أصابعه؛ عن ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا "أَنَّهُ دَفَعَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ عَرَفَةَ، فَسَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ وَرَاءَهُ زَجْرًا شَدِيدًا وَضَرْبًا وَصَوْتًا لِلإِبِلِ، فَأَشَارَ بِسَوْطِهِ إِلَيْهِمْ، وَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ؛

1. المهل: إذا رفع صوتَه بالتَّلْبية.
2. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب التلبية والتكبير إذا غدا من منى إلى عرفة.
3. ليلة الحجاج: ليلة خروج الحجاج من مكة بعد أيام التشريق.
4. أي عقرها الله بمعنى جرحها، وهو دعاء يجري على لسان العرب ولا يعنونه، ومعنى (حلقى): كناية عن إدخالها الشر على أهلها.
5. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب إذا حاضت المرأة بعد ما أفاضت.

عَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ، فَإِنَّ الْبِرَّ لَيْسَ بِالإِيضَاعِ، أَوْضَعُوا أَسْرَعُوا (خِلالَكُمْ) مِنْ التَّخَلُّلِ بَيْنَكُمْ (وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا) بَيْنَهُمَا".[1]

وعن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، قال:" طَافَ النبي ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ على بَعِيرٍ يَسْتَلِمُ الرُّكْنَ بِمِحْجَنٍ[2]". [3]

وفي الحديث الصحيح عن حج الرسول ﷺ: "... حتى إذا كان آخِرُ طَوَافِهِ على الْمَرْوَةِ فقال: لو أَنِّي اسْتَقْبَلْتُ من أَمْرِي ما اسْتَدْبَرْتُ؛ لم أَسُقْ الْهَدْيَ، وَجَعَلْتُهَا عُمْرَةً، فَمَنْ كان مِنْكُمْ ليس معه هَدْيٌ، فَلْيَحِلَّ، وَلْيَجْعَلْهَا عُمْرَةً، فَقَامَ سُرَاقَةُ بن مَالِكِ بن جُعْشُمٍ، فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ، أَلِعَامِنَا هذا أَمْ لأَبَدٍ؟ فَشَبَّكَ رسول اللَّهِ ﷺ أَصَابِعَهُ وَاحِدَةً في الأُخْرَى، وقال: دَخَلَتْ الْعُمْرَةُ في الْحَجِّ مَرَّتَيْنِ، لا؛ بَلْ لأَبَدِ أَبَدٍ".[4]

فهذه وقفة تأملية عند عينة من الأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة التي وردت في الحج، وبرز فيها استخدام الأساليب التعليمية والوسائل المعينة في التعليم والتعلم، مما يدعو التربويين لتحليل هذه النصوص وأمثالها ليستنبطوا منها ما يفيد في المجالات التعليمية والتربوية، بهدف تحقيق الفائدة المرجوة – إن شاء الله– منها، وبخاصة في مجالات التأسي بالرسول الأسوة والاقتداء به، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

1. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب أمر النبي بالسكينة عند الإفاضة.
2. عصا معقوفة الرأس كالصولجان.
3. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب استلام الركن بالمحجن.
4. صحيح مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي.

عن أبي الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سمع جَابِرَ يقول: "رأيت النبي ﷺ يرمى على رَاحِلَتِهِ يوم النَّحْرِ، وَيَقُولُ: لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ، فَإِنِّي لا أَدْرِي لَعَلِّي لا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هذه". ([1])

والحقيقة أن الرسول، عليه الصلاة والسلام، لم يحج إلا حجة واحدة وهي حجة الوداع، وذلك في العام الذي توفي فيه 10هـ وفيها علّم الرسول، عليه الصلاة والسلام، الناس مناسكهم بقوله وفعله، فقال، عليه الصلاة والسلام، "خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ".([2])

وحجة الرسول ﷺ سميت حجة الوداع، وحجة الإسلام، وحجة البلاغ، فسميت حجة الوداع لأنه، عليه الصلاة والسلام، لم يلق المسلمين بعدها، وذكر في خطبتها أنه لعله لا يلقاهم بعد عامهم هذا، وسميت حجة الإسلام لأن الرسول ﷺ لم يحج غيرها، وسميت بحجة البلاغ لأن الرسول كرر فيها قول"هل بلغت"، وبلّغ الناس فيها شرع الله في الحج قولاً وفعلاً، ولم يكن بقي من دعائم الإسلام وقواعده شيء إلا وقد بينه، عليه السلام، ولما بين لهم شريعة الحج، فعليهم أن يلتزموها تأسياً برسولهم الكريم ﷺ، ولنجاتهم في الدنيا والآخرة، ويكون ذلك بأن يؤدوا مناسكهم على الوجه المشروع في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وتبدأ أعمال الحج بالإحرام الذي هو نية الحج، وقد حدد الرسول ﷺ مواقيت مكانية لا يجوز لمن قصد الحج أن يتجاوزها دون إحرام، عن ابن عَبَّاسٍ قال: "إنَّ النبي ﷺ وَقَّتَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ ذَا الْحُلَيْفَةِ، وَلأَهْلِ الشام الْجُحْفَةَ، وَلأَهْلِ نَجْدٍ قَرْنَ الْمَنَازِلِ،

1. صحيح مسلم، كتاب مناسك الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكباً.

2. السنن الكبرى للبيهقي، كتاب الحج، باب الإيضاع في وادي محسر، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم 7882.

وَلِأَهْلِ الْيَمَنِ يَلَمْلَمَ، هُنَّ لَهُنَّ وَلِمَنْ أتى عَلَيْهِنَّ من غَيْرِهِنَّ مِمَّنْ أَرَادَ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ، وَمَنْ كان دُونَ ذلك فَمِنْ حَيْثُ أَنْشَأَ، حتى أَهْلُ مَكَّةَ من مَكَّةَ".([1])

يقول ابن حجر العسقلاني: وأصل التوقيت أن يجعل للشيء وقت يختص به، ثم اتسع فيه، فأطلق على المكان أيضاً، قال ابن الأثير: التوقيت والتأقيت أن يجعل للشيء وقت يختص به، وهو بيان مقدار المدة، يقال: وقّت الشيء بالتشديد يوقّته، ووقت بالتخفيف يقته، إذا بين مدته، ثم اتسع فيه، فقيل للموضع ميقات. ([2])

ومواقيت الإحرام تكون لكل من قدم من جهتها، ومعظم حجاج فلسطين يأتون مكة من جهة المدينة المنورة، فيكون ميقاتهم نفس ميقات أهل المدينة، وهو ذو الحليفة الذي يعرف بآبار علي؛ نسبة إلى بئر فيه يسمى بهذا الاسم، ويبعد عن مكة ما يقارب 450كم، وعن المدينة المنورة 15 كم.

وورد التعبير عن ميقات الحج المكاني بلفظ "وقت" ولفظ "مُهَل"، وذكر البخاري في صحيحه مواقيت الإحرام تحت أبواب تضمنت لفظ "مُهَل" في إشارة إلى موضع الإهلال، وأصله رفع الصوت، لأنهم كانوا يرفعون أصواتهم بالتلبية عند الإحرام، ثم أطلق على نفس الإحرام اتساعاً كما يقول ابن حجر. ([3])

ومن أعماله ﷺ في حجه أنه حج على رحل، وكانت هي نفسها زاملته، فعن ثُمَامَةَ ابن عبد اللَّهِ بن أَنَسٍ، قال: "حَجَّ أَنَسٌ على رَحْلٍ([4])، ولم يَكُنْ شَحِيحًا، وَحَدَّثَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَجَّ على رَحْلٍ، وَكَانَتْ زاملته([5])".([6])

---

1. صحيح البخاري، كِتَاب الْحَجِّ، بَاب مُهَلِّ أَهْلِ مَكَّةَ لِلْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ.
2. فتح الباري، ج3، ص385.
3. فتح الباري، ج3، ص384.
4. الرحل للبعير كالسرج للفرس.
5. زاملته: الراحلة التي ركبها، والزاملة البعير الذي يحمل عليه الطعام والمتاع، من الزمل وهو الحمل.
6. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب الحج على الرحل.

وفي حجه ﷺ على الرحل إشارة إلى تفضيله التقشف على الترفه، ولم تكن معه زاملة تحمل طعامه ومتاعه، بل كان ذلك محمولاً معه على راحلته، وكانت هي الراحلة والزاملة، وفي تقشفه ﷺ وهو يسعى للحج عبرة للمسلمين من بعده، وقد سارع الصحابة، رضوان الله عليهم، للتأسي به في ذلك، كما ورد في نص حديث ثمامة المذكور أعلاه، حيث حج أنس رضي الله عنه على رحل تأسياً، وفي نفي الشح عن أنس لأنه حج على رحل إشارة إلى أنه فعل ذلك تواضعاً، وتأسياً بالرسول ﷺ لا عن قلة وبخل. [1]

ومن سننه ﷺ أنه كان يتطيب في بدنه عِنْدَ الإِحْـرَامِ، والعلمـاء اختلفـوا في اسـتعمال الطيب عند الإحرام، واستدامته بعده، فكرهـه قـوم ومنعـوه، وخـالفهم في ذلـك آخـرون، فأجازوه تمسكاً بحديث عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: "طَيَّبْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِيَدِي لِحُرْمِـهِ حِـينَ أَحْرَمَ، وَلِحِلِّهِ حِينَ أَحَلَّ قَبْلَ أَنْ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ"[2]، أي بعد أن يرمي ويحلق. [3]

والتطيب عند الإحرام يكـون للبـدن لا للثيـاب، ولا يكـون لأي منهمـا خلالـه، ففـي الحديث الصحيح: "أَنَّ رجلاً سأل رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: كَيْفَ تَرَى فِي رَجُلٍ أَحْـرَمَ بِعُمْـرَةٍ وهـو مُتَضَمِّخٌ بِطِيبٍ،(4) فَسَكَتَ النبي ﷺ سَاعَةً، ثم أجابه: اغْـسِلْ الطِّيـبَ الـذي بِـكَ ثَـلاثَ مَرَّاتٍ، وَانْزِعْ عَنْكَ الْجُبَّةَ، وَاصْنَعْ فِي عُمْرَتِكَ كما تَصْنَعُ فِي حَجَّتِكَ".[5]

وقد بيّن الرسول ﷺ بعض ما يباح للمحرم، فعن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما: "يَـشَمُّ الْمُحْرِمُ الرَّيْحَانَ، وَيَنْظُرُ فِي الْمِرْآةِ، وَيَتَدَاوَى بِمَا يَأْكُلُ الزَّيْتِ وَالسَّمْنِ، وقال عَطَاءٌ يَتَخَتَّمُ وَيَلْبَسُ الْهِمْيَانَ، وَطَافَ ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما، وهـو مُحْـرِمٌ، وقـد حَـزَمَ علـى بَطْنِـهِ بِثَوْبٍ،

1. فتح الباري، ج3، ص 546-547.
2. صحيح مسلم، كتاب الحج، باب الطيب للمحرم عند الإحرام.
3. فتح الباري، ج3، ص571.
4. يقال تضمخ بالطيب إذا تلطخ به وتلوث. (عمدة القاري، ج9، ص151).
5. صحيح البخاري، كِتَاب الْحَجِّ، بَاب غَسْلِ الْخَلُوقِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ الثِّيَابِ.

ولم تَرَ عَائِشَةُ، رضي الله عنها، بِالتُّبَّانِ بَأْساً لِلَّذِينَ يَرْحَلُونَ هَوْدَجَهَا".[1]

ونهى الرسول ﷺ المحرم الذكر دون الأنثى عن لبس المخيط من الثياب، فعن ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما، أَنَّ رَجُلاً قال: "يا رَسُولَ اللَّهِ؛ ما يَلْبَسُ الْمُحْرِمُ من الثِّيَابِ؟ قال رسول اللَّهِ ﷺ: لا يَلْبَسُ الْقُمُصَ، ولا الْعَمَائِمَ، ولا السَّرَاوِيلاتِ، ولا الْبَرَانِسَ، ولا الْخِفَافَ، إلا أَحَدٌ لَا يَجِدُ نَعْلَيْنِ، فَلْيَلْبَسْ خُفَّيْنِ، وَلْيَقْطَعْهُمَا أَسْفَلَ من الْكَعْبَيْنِ، ولا تَلْبَسُوا من الثِّيَابِ شيئا مَسَّهُ الزَّعْفَرَانُ أو وَرْسٌ".[2]

ومن سنته ﷺ أنه كان يحمد الله ويسبحه ويكبره قبل الإهلال بالتلبية، فعن أَنَسٍ رضي الله عنه، قال: "صلى رسول اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ معه بِالْمَدِينَةِ الظُّهْرَ أَرْبَعًا، وَالْعَصْرَ بِذِي الْحُلَيْفَةِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ بَاتَ بها حتى أَصْبَحَ، ثُمَّ رَكِبَ حتى اسْتَوَتْ بِهِ على الْبَيْدَاءِ، حَمِدَ اللَّهَ، وَسَبَّحَ، وَكَبَّرَ، ثُمَّ أَهَلَّ بِحَجٍّ وَعُمْرَةٍ، وَأَهَلَّ الناس بِهِمَا، فلما قَدِمْنَا أَمَرَ الناس فَحَلُّوا، حتى كان يَوْمُ التَّرْوِيَةِ أَهَلُّوا بِالْحَجِّ".[3]

وعلم الرسول ﷺ الحجاج صيغة التلبية، فعن عبد اللَّهِ بن عُمَرَ رضي الله عنهما، أَنَّ تَلْبِيَةَ رسول اللَّهِ ﷺ: "لَبَّيْكَ اللهم لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لك لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لك وَالْمُلْكَ، لا شَرِيكَ لك".[4]

وكان ﷺ يستقبل القبلة قائماً حين يبدأ بالتلبية بعد الإحرام، فعن نَافِعٍ قال: "كان ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما، إذا صلى بِالْغَدَاةِ بِذِي الْحُلَيْفَةِ أَمَرَ بِرَاحِلَتِهِ فَرُحِلَتْ، ثُمَّ رَكِبَ، فإذا اسْتَوَتْ بِهِ اسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ قَائِمًا، ثُمَّ يُلَبِّي حتى يَبْلُغَ الْحَرَمَ، ثُمَّ يُمْسِكُ حتى إذا جاء ذَا

1. صحيح البخاري، كِتَاب الْحَجِّ، بَاب الطِّيبِ عِنْدَ الْإِحْرَامِ وَمَا يَلْبَسُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُحْرِمَ وَيَتَرَجَّلَ وَيَدَّهِنَ.
2. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب ما لا يلبس المحرم من الثياب.
3. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب التحميد والتسبيح والتكبير قبل الإهلال عند الركوب.
4. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب التلبية.

طُوًى [1] بَاتَ بِهِ حتى يُصْبِحَ، فإذا صلى الْغَدَاةَ اغْتَسَلَ، وَزَعَمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَعَلَ ذلك".[2]

وفي السنة النبوية بيان لأنواع النسك، وأنه يجوز لهم اختيار أي منها، فعن عَائِشَةَ، قالت: "خَرَجْنَا مع النبي ﷺ في حَجَّةِ الْوَدَاعِ، فَمِنَّا من أَهَلَّ بِعُمْرَةٍ، وَمِنَّا من أَهَلَّ بِحَجٍّ، فَقَدِمْنَا مَكَّةَ، فقال رسول اللَّهِ ﷺ: مَنْ أَحْرَمَ بِعُمْرَةٍ ولم يُهْدِ فَلْيُحْلِلْ، وَمَنْ أَحْرَمَ بِعُمْرَةٍ وَأَهْدَى فلا يُحِلُّ حتى يُحِلَّ بِنَحْرِ هَدْيِهِ، وَمَنْ أَهَلَّ بِحَجٍّ فَلْيُتِمَّ حَجَّهُ، قالت: فَحِضْتُ، فلم أَزَلْ حَائِضًا حتى كان يَوْمُ عَرَفَةَ، ولم أُهْلِلْ إلا بِعُمْرَةٍ، فَأَمَرَنِي النبي ﷺ أَنْ أَنْقُضَ رَأْسِي، وَأَمْتَشِطَ، وَأُهِلَّ بِحَجٍّ، وَأَتْرُكَ الْعُمْرَةَ، فَفَعَلْتُ ذلك حتى قَضَيْتُ حَجِّي، فَبَعَثَ مَعِي عَبْدَ الرحمن بن أبي بَكْرٍ، وَأَمَرَنِي أَنْ أَعْتَمِرَ مَكَانَ عُمْرَتِي من التَّنْعِيمِ".[3]

وفي الثامن من ذي الحجة -يوم التروية- توجه الرسول ﷺ من مكة المكرمة إلى منى ملبياً، وأمر أصحابه أن يهلوا بالحج من منازلهم ويتوجهوا إلى منى، وصلى الرسول ﷺ في منى الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر، قصر الظهر والعصر والعشاء، وأكثر من التلبية وذكر الله وقراءة القرآن.

ولما طلعت شمس يوم عرفة وهو يوم التاسع من ذي الحجة توجه الرسول، عليه الصلاة والسلام، إلى عرفات، ونزل بقبة من شعر ضربت له بنمرة، غربي عرفة، واستظل بها، وهذا يدل على جواز أن يستظل الحاج بالخيام والشجر ونحوها.

ولما زالت الشمس ركب الرسول، عليه الصلاة والسلام، دابته، وخطب الناس، وذكرهم وعلمهم مناسك حجهم، وحذرهم من الربا وأعمال الجاهلية، وأخبرهم أن دماءهم وأموالهم وأعراضهم عليهم حرام، وأمرهم بالاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله.

---

1. واد معروف بقرب مكة، ويعرف ببئر الزاهر.
2. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب الإهلال مستقبل القبلة.
3. صحيح مسلم، كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام وأنه يجوز إفراد الحج والتمتع.

وبعد خطبة الرسول ﷺ، صلى بأصحابه، رضوان الله عليهم، الظهر والعصر قصراً وجمعاً؛ جمع تقديم بأذان واحد وإقامتين، ثم استقبل القبلة ورفع يديه بالدعاء حتى غابت الشمس، ولم يكن صائماً في هذا اليوم، فعلى الحجاج أن يفعلوا كما فعل رسول الله ﷺ، وأن يكثروا من ذكر الله والدعاء والتلبية مفطرين لا صائمين أسوةً برسول الله ﷺ، الذي بيّن فضل يوم عرفة، فقال: "مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتِقَ اللَّهُ فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَإِنَّهُ لَيَدْنُو، ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمُ الْمَلاَئِكَةَ؛ فَيَقُولُ مَا أَرَادَ هؤلاء"[1]، وفي رواية أخرى: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: مَا رُئِيَ الشَّيْطَانُ يَوْمًا هُوَ فِيهِ أَصْغَرُ، وَلا أَدْحَرُ، وَلا أَحْقَرُ، وَلا أَغْيَظُ مِنْهُ، فِي يَوْمِ عَرَفَةَ، وَمَا ذَاكَ إِلا لِمَا رَأَى مِنْ تَنَزُّلِ الرَّحْمَةِ، وَتَجَاوُزِ اللَّهِ عَنْ الذُّنُوبِ الْعِظَامِ، إِلا مَا أُرِيَ يَوْمَ بَدْرٍ، قِيلَ: وَمَا رَأَى يَوْمَ بَدْرٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ رَأَى جِبْرِيلَ يَزَعُ الْمَلائِكَةَ".[2]

وبعد الغروب توجه الرسول ﷺ إلى مزدلفة، وصلى بها المغرب والعشاء جمعاً، المغرب ثلاثاً والعشاء ركعتين بأذان وإقامتين، ثم بات فيها وصلى الفجر، ثم أتى المشعر الحرام، وذكر الله ورفع يديه بالدعاء والتهليل.

وبعد ذلك توجه الرسول ﷺ إلى منى ملبياً، قاصداً موضع رمي جمرة العقبة، فرماها بعد طلوع الشمس بسبع حصيات، ثم نحر هديه، ثم حلق رأسه، ثم طيبته السيدة عائشة رضي الله عنها، ثم توجه إلى البيت فطاف به.

ورخص لمن قدم وأخر في هذه الأفعال، فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه "وَقَفَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ بِمِنًى لِلنَّاسِ يَسْأَلُونَهُ، فَجَاءَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: لَمْ أَشْعُرْ فَحَلَقْتُ قَبْلَ أَنْ أَذْبَحَ، فَقَالَ:

1. صحيح مسلم، كتاب الحج، باب فضل الحج والعمرة ويوم عرفة.

2. موطأ مالك، كِتَاب الْحَجِّ، باب ما رئي الشيطان يوما هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة، وهو حديث مرسل.

اذْبَحْ وَلا حَرَجَ، فَجَاءَ آخَرُ فَقَالَ: لَمْ أَشْعُرْ فَنَحَرْتُ قَبْلَ أَنْ أَرْمِيَ، قَالَ: ارْمِ وَلا حَرَجَ، فَمَا سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ شَيْءٍ قُدِّمَ وَلا أُخِّرَ إِلا قَالَ: افْعَلْ وَلا حَرَجَ".[1]

ثم رجع الرسول ﷺ إلى منى، فأقام فيها بقية يوم العيد واليوم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر، يرمي الجمرات في كل يوم من أيام التشريق بعد الزوال، يرمي كل جمرة بسبع حصيات، ويكبر مع كل حصاة، ويدعو مستقبلاً القبلة، ويرفع يديه بعد الفراغ من الجمرة الأولى (الصغرى)، والثانية (الوسطى)، وكان يجعل الجمرة الأولى (الصغرى) عن يساره حين الدعاء عندها، والجمرة الثانية (الوسطى) عن يمينه حين الدعاء عندها، ولم يقف للدعاء عند الثالثة، بعد ذلك نزل الرسول ﷺ في آخر الليل من الليلة الرابعة عشرة إلى مكة، وصلى الفجر بالناس وطاف طواف الوداع قبل صلاة الفجر، ثم توجه بعد الصلاة إلى المدينة في صبيحة اليوم الرابع عشر.

مع الإشارة هنا إلى جواز التأخر والتعجل في اليوم الثالث عشر، لقوله تعالى: {وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}.(2)(3)

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

---

1. صحيح البخاري، كِتَاب الْعِلْمِ، بَاب الْفُتْيَا وَهُوَ وَاقِفٌ عَلَى الدَّابَّةِ وَغَيْرِهَا.
2. البقرة: 203.
3. من مراجع ما ورد أعلاه:
   أ. عبد العزيز بن عبد الله بن باز، هكذا حج الرسول ﷺ.
   ب. البداية والنهاية، ابن كثير، ج5.

انطلاقاً من حرص الإسلام على التعاون بين أفراد المجتمع المسلم، فقد وجه النبي، عليه الصلاة والسلام، من خلال هديه الشريف أبناء الأمة الإسلامية إلى تحقيق هذا التكافل بين أبناء المسلمين، من ذلك ما رواه أبو سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: "بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ، قَالَ: فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ، فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لا ظَهْرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ، فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لا زَادَ لَهُ، قَالَ: فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ، حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لا حَقَّ لأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ".([1])

ومعنى يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِيناً وَشِمَالاً: أي يتعرض للعطاء من غير سؤال، حيث كان الكثير من أصحاب الحاجة يتحرجون من السؤال لعفة نفوسهم، وقد ذكرهم الله في كتابه الكريم، فقال تعالى في وصفهم: {يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً }.([2])

وفي الحديث الشريف: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لَيْسَ الْمِسْكِينُ بِهَذَا الطَّوَّافِ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ، فَتَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، قَالُوا: فَمَا الْمِسْكِينُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الَّذِي لا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلا يُفْطَنُ لَهُ، فَيُتَصَدَّقَ عَلَيْهِ، وَلا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئاً".([3])

1. صحيح مسلم، كتاب اللقطة، باب استحباب المؤاساة بفضول المال.
2. البقرة: 273.
3. صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب المسكين الذي لا يجد غنى ولا يفطن له فيتصدق عليه.

وفي الحديث الذي رواه أبو سعيد كان الرجل يملك راحلة، ولذلك توفر له الظهر، ولكنه كان بحاجة إلى المساعدة، وقد عرض بذلك من خلال التفاته يميناً وشمالاً، وقد أدرك النبي ﷺ حاجة الرجل، فحث الصحابة، رضوان الله عليهم، على ذلك، وهذا ما أشار إليه الصحابة، رضوان الله عليهم، بقولهم: "فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ، حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لا حَقَّ لأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ".

وهذا الحديث الشريف من جوامع كلم رسول الله ﷺ في الحث على الصدقة والجود والمواساة والإحسان والاعتناء بمصالح الأصحاب والأتباع، ويكفي لمساعدة المحتاج تعرضه للعطاء من غير سؤال، وهذا من كريم الأخلاق في البذل والإحسان بمجرد إدراك الحاجة، ولو بالتعريض بها دون سؤال، وهكذا ربى الرسول الأكرم ﷺ أصحابه على البذل والعطاء، لتكون النفوس ربانية، لا سلطان للمادة عليها، ولا تشغلها مفاتن الدنيا ومباهجها عن فعل الخير، ومواساة المحتاج، وإغناء الفقير عن ذل السؤال، طمعاً فيما أعده الله تعالى من ثواب عظيم، وأجر جزيل، للذين يتصدقون ويعملون الخير، فالحسنة بعشر، ويضاعفها الله أضعافاً كثيرةً، قال تعالى: {الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }[1]، وقوله تعالى: {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ }.[2]

وفي الحديث: "كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ الْحَسَنَةُ عَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ".[3]

1. البقرة: 274.
2. البقرة: 261.
3. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب فضل الصيام.

إنها مائدة البذل والعطاء والسخاء والجود والكرم ابتغاء مرضاة الله ورضاه، يدعونا لها الله ورسوله، فلنقبل عليها بنفوس باذلة طيبة تبتغي فضل الله ورضوانه، والفوز بالقرب والنجاة من النار، {يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ* إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}.[1]

فالصدقة تقي مصارع السوء، وتطفئ غضب الرب، وفي الحديث: "صَدَقَةَ السِّرِ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ"[2]، وفي حديث آخر: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلا مَلَكَانِ يَنْزِلانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً".[3]

وفي الآيات الكريمة {فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى}.[4]

وعن أهل النار يقول تعالى: {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ* قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ* وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ}.[5]

ولو طبق هذا الحديث الشريف في المجتمعات الإسلامية، لا بل في المجتمعات الإنسانية كافة، لما رأيت محتاجاً أو معدماً، ولو وسع من آتاه الله وسائل النقل الخاصة، فحملوا من لا يملكون هذه الوسائل، لخفت أزمة المواصلات، وقلت أعداد وسائط النقل التي تتسبب بمزيد من تلوث البيئة، وارتفاع درجة حرارة اليابسة، بتقليل كميات ثاني أكسيد الكربون الضار.

---

1. الشعراء: 88-89.
2. المعجم الصغير للطبراني، ج2، ص45، وصححه الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم 3759.
3. صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب في المنفق والممسك.
4. الليل: 5-11.
5. المدثر: 42-44.

وما دمنا نتحدث عن التصدق بفضل المال، وفضل الظهر الذي يمثل وسائط النقل، وبمناسبة اليوم العالمي للثلاسيميا، والذي يصادف الثامن من أيار من كل عام، وهو مرض فقر الدم المزمن، والمصاب بهذا المرض يحتاج إلى نقل الدم بصورة متكررة، فإننا نهيب بمن يملكون فضل الدم وإمكانية التبرع من دمائهم دون ضرر، أن يبادروا إلى التبرع بجزء من دمائهم عوناً لمرضى الثلاسيميا، وإبقاءً على حياتهم، وتخفيفاً من معاناتهم.

فأي كرم، وأي عطاء أعظم، من أن يجود الإنسان بجزء من فضل دمه، لإنقاذ حياة إنسان بحاجة إلى هذا الدم وهذا العون؟!

ولعل هذا الفعل الطيب والخيّر يندرج ضمن مفهوم حديث رسول الله ﷺ "مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ، فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لا ظَهْرَ لَهُ ..."."[1]

وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأسوة الذي أرسى هذه القواعد العظيمة في التعاون بين أبناء الأمة الإسلامية، بل أبناء البشرية جمعاء، لما فيه خير الإنسانية، فهو ﷺ الرحمة العامة، والنعمة الشاملة للعالمين، {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}[2]، فصلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم، واتبع سنتهم، إلى يوم الدين.

1. صحيح مسلم، كتاب اللقطة، باب استحباب المؤاساة بفضول المال.

2. الأنبياء: 107.

الرسول الأسوة محمد ﷺ يثمن قدر الآباء والأمهات

ورد في السنة النبوية الصحيحة أخبار عدة تظهر حرص النبي ﷺ على بيان قدر الآباء والأمهات، فهو الذي بين عظم فضل الآباء على الأبناء، فصرح بأن الابن مهما قدم لوالديه فإنه لا يُكَافِئهُما بِإحْسَانِهِ وَقَضَاء حَقّهما عليه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لا يَجْزِي وَلَدٌ وَالِدًا، إلا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا، فَيَشْتَرِيَهُ، فَيُعْتِقَهُ".(1) وهذا التصريح ينسجم تمام الانسجام مع التوجيهات القرآنية التي توصي بملاطفة الآباء، وتحذر من الإساءة إليهم، حيث يقول تعالى: {وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}.(2)

ويقول سبحانه: {وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ}.(3)

ويقول تعالى: {وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}.(4)

فهذه الآيات الثلاث انفردت من بين جميع آيات القرآن الكريم في البدء بلفظ "ووصينا الإنسان"، وفي ذلك ما لا يخفى من الدلالة على حجم الرعاية ونوعها التي يوليها الله للوالدين، فالموصي بالوالدين فيها هو الله سبحانه، الذي لم يكتف بمسمى التوصية

1. صحيح مسلم، كتاب العتق، باب فضل عتق الوالد.
2. العنكبوت: 8.
3. لقمان: 14.
4. الأحقاف: 15.

ولفظها، بل أضاف إليها وصف الحسن، مع ذكر بعض المبررات والدواعي التي تستوجب الإحسان إليهما وبرهما، ورغم ما للعقيدة من مكانة عظيمة في الإسلام، إلا أن الله تعالى شدد على التوصية بالوالدين حتى في الأحوال والظروف التي تتناقض فيها عقيدتهما مع العقيدة الصحيحة للأبناء، وقد جاء في كتب صحاح الحديث الشريف عن مُصْعَب ابْنُ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ: "أَنَّهُ نَزَلَتْ فِيهِ آيَاتٌ مِنْ الْقُرْآنِ، قَالَ: حَلَفَتْ أُمُّ سَعْدٍ أَنْ لا تُكَلِّمَهُ أَبَدًا حَتَّى يَكْفُرَ بِدِينِهِ، وَلا تَأْكُلَ، وَلا تَشْرَبَ، قَالَتْ: زَعَمْتَ أَنَّ اللَّهَ وَصَّاكَ بِوَالِدَيْكَ، وَأَنَا أُمُّكَ، وَأَنَا آمُرُكَ بِهَذَا، قَالَ: مَكَثَتْ ثَلاثًا حَتَّى غُشِيَ عَلَيْهَا مِنْ الْجَهْدِ، فَقَامَ ابْنٌ لَهَا يُقَالُ لَهُ عُمَارَةُ فَسَقَاهَا، فَجَعَلَتْ تَدْعُو عَلَى سَعْدٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ هَذِهِ الآيَةَ: {وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}[1]".(2)

وفي مقابل ذلك؛ فإن الله تعالى رخص بقتل ولد فداء لمصلحة والديه، فقد ورد في سورة الكهف، من أمر صاحب العلم الذي رافقه موسى، عليه السلام، أنه قتل غلاماً، مما دفع موسى لاستكبار الأمر وإنكاره، حتى سمع من صاحب العلم تبرير ما صنع، فقال تعالى: {وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً}.(3)

وفي سياق هذا النهج النبوي تأتي قصة إسلام أم أبي هريرة لتؤكد على مكانة الوالدين لدى الرسول ﷺ، حتى لو كانا مخالفين للابن في الدين، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: "كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إِلَى الإِسْلامِ وَهِيَ مُشْرِكَةٌ، فَدَعَوْتُهَا يَوْماً، فَأَسْمَعَتْنِي فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا أَكْرَهُ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنِّي كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إِلَى الإِسْلامِ فَتَأْبَى عَلَيَّ، فَدَعَوْتُهَا الْيَوْمَ، فَأَسْمَعَتْنِي فِيكَ مَا أَكْرَهُ، فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَ أُمَّ أَبِي

1. العنكبوت: 8.

2. صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

3. الكهف: 80.

هُرَيْرَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اللَّهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَخَرَجْتُ مُسْتَبْشِرًا بِدَعْوَةِ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا جِئْتُ فَصِرْتُ إِلَى الْبَابِ، فَإِذَا هُوَ مُجَافٌ،(1) فَسَمِعَتْ أُمِّي خَشْفَ قَدَمَيَّ(2) فَقَالَتْ: مَكَانَكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، وَسَمِعْتُ خَضْخَضَةَ الْمَاءِ، قَالَ: فَاغْتَسَلَتْ وَلَبِسَتْ دِرْعَهَا، وَعَجِلَتْ عَنْ خِمَارِهَا، فَفَتَحَتْ الْبَابَ، ثُمَّ قَالَتْ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؛ أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَتَيْتُهُ وَأَنَا أَبْكِي مِنْ الْفَرَحِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَبْشِرْ قَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ دَعْوَتَكَ وَهَدَى أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: خَيْراً، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُحَبِّبَنِي أَنَا وَأُمِّي إِلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَيُحَبِّبَهُمْ إِلَيْنَا، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اللَّهُمَّ حَبِّبْ عُبَيْدَكَ هَذَا -يَعْنِي أَبَا هُرَيْرَةَ- وَأُمَّهُ إِلَى عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ، وَحَبِّبْ إِلَيْهِمْ الْمُؤْمِنِينَ، فَمَا خُلِقَ مُؤْمِنٌ يَسْمَعُ بِي وَلا يَرَانِي إِلا أَحَبَّنِي".(3)

وفي السياق نفسه يأتي إذن النبي ﷺ بصلة الآباء والأمهات حتى وهم على غير دين الإسلام، عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ قَالَتْ: "قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ، فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ إِذْ عَاهَدَهُمْ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ رَاغِبَةٌ، (4) أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ: نَعَمْ، صِلِي أُمَّكِ".(5)

وقد عني الرسول ﷺ بالإخبار عن قصة جريج، بما تتضمنه من دلالة واضحة على تقديم بر الوالدين والإحسان إليهما على عبادة التطوع عند تزاحمهما، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلا ثَلاثَةٌ؛ عِيسَى، وَكَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ جُرَيْجٌ، كَانَ يُصَلِّي، جَاءَتْهُ أُمُّهُ، فَدَعَتْهُ، فَقَالَ: أُجِيبُهَا أَوْ أُصَلِّي

1. أَيْ مُغْلَقٌ.
2. أَيْ صَوْتهمَا فِي الأرض، وَخَضْخَضَة الْمَاء صَوْت تَحْرِيكه.
3. صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي هريرة الدوسي رضي الله عنه.
4. وَالْمَعْنَى أَنَّهَا قَدِمَتْ طَالِبَةً فِي برٍّ اِبْتَتِهَا لَهَا خَائِفَة مِنْ رَدِّهَا إِيَّاهَا خَائِبَة؛ هَكَذَا فَسَّرَهُ الْجُمْهُور. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج5، ص234.
5. صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد.

فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لا تُمِتْهُ حَتَّى تُرِيَهُ وُجُوهَ الْمُومِسَاتِ، وَكَانَ جُرَيْجٌ فِي صَوْمَعَتِهِ، فَتَعَرَّضَتْ لَهُ امْرَأَةٌ، وَكَلَّمَتْهُ، فَأَبَى، فَأَتَتْ رَاعِيًا، فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا، فَوَلَدَتْ غُلامًا، فَقَالَتْ: مِنْ جُرَيْجٍ، فَأَتَوْهُ، فَكَسَرُوا صَوْمَعَتَهُ، وَأَنْزَلُوهُ وَسَبُّوهُ، فَتَوَضَّأَ وَصَلَّى، ثُمَّ أَتَى الْغُلامَ، فَقَالَ: مَنْ أَبُوكَ يَا غُلامُ؟ قَالَ: الرَّاعِي، قَالُوا: نَبْنِي صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: لا، إِلا مِنْ طِينٍ، وَكَانَتْ امْرَأَةٌ تُرْضِعُ ابْناً لَهَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَمَرَّ بِهَا رَجُلٌ رَاكِبٌ ذُو شَارَةٍ (1)، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهُ، فَتَرَكَ ثَدْيَهَا، وَأَقْبَلَ عَلَى الرَّاكِبِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ثَدْيِهَا يَمَصُّهُ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَمَصُّ إِصْبَعَهُ، ثُمَّ مُرَّ بِأَمَةٍ، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَ هَذِهِ، فَتَرَكَ ثَدْيَهَا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا (2) فَقَالَتْ: لِمَ ذَاكَ؟ فَقَالَ: الرَّاكِبُ جَبَّارٌ مِنْ الْجَبَابِرَةِ، وَهَذِهِ الأَمَةُ يَقُولُونَ سَرَقْتِ، زَنَيْتِ، وَلَمْ تَفْعَلْ". (3)

وَقد استنبط النووي في شرحه لصحيح مسلم فوائد كَثِيرَة من حَدِيث جُرَيْجٍ هَذَا؛ مِنْهَا عِظَم بِرّ الْوَالِدَيْنِ، وَتَأَكُّد حَقّ الأُمّ، وَأَنَّ دُعَاءَهَا مُجَاب، وَأَنَّهُ إِذَا تَعَارَضَتْ الأُمُور بُدِئَ بِأَهَمِّهَا، وكيف لا يبدي الرسول بالغ التقدير للوالدين، والله تعالى قرن الحث على برهما مع الأمر بوحدانيته في كثير من آيات قرآنه الكريم، فيقول سبحانه: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ...}.(4)

ومن أبرز دلالات هذا التقدير، توجيهه ﷺ من سأله عن الأولى بحسن الصحبة، فقد حدد، عليه الصلاة والسلام، تلك الأولوية بالوالدين، مع تقديم الأم على الأب فيها، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ مَنْ

---

1. بِالشِّينِ الْمُعْجَمَة أَيْ صَاحِب حُسْن وَقِيلَ : صَاحِب هَيْئَة وَمَنْظَر وَمَلْبَس حَسَن يُتَعَجَّب مِنْهُ وَيُشَار إِلَيْهِ، وَفِي رِوَايَة خلاس " ذُو شَارَة حَسَنَة.

2. أَيْ اللَّهُمَّ اِجْعَلْنِي سَالِمًا مِنْ الْمَعَاصِي كَمَا هِيَ سَالِمَة، وَلَيْسَ الْمُرَاد مِثْلهَا فِي النِّسْبَة إِلَى بَاطِل تَكُون مِنْهُ بَرِيًّا.

3. صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله {واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها}.

4. الإسراء: 23.

أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: أُمُّكَ. قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أُمُّكَ. قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أُمُّكَ (1) قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أَبُوكَ".(2)

حتى إن النبي ﷺ فتح المجال رحباً للأبناء للتعبد لله نيابة عن الآباء حال عجزهما أو موتهما، والروايات بهذا الخصوص عدة، منها: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: "جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنَّ أُمِّي مَاتَتْ، وَعَلَيْهَا صَوْمُ شَهْرٍ، أَفَأَقْضِيهِ عَنْهَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَدَيْنُ اللَّهِ أَحَقُّ أَنْ يُقْضَى".(3)

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: "أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ: إِنَّ أُمِّي نَذَرَتْ أَنْ تَحُجَّ، فَمَاتَتْ قَبْلَ أَنْ تَحُجَّ، أَفَأَحُجُّ عَنْهَا؟ قَالَ: نَعَمْ، حُجِّي عَنْهَا، أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ أَكُنْتِ قَاضِيَتَهُ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، فَقَالَ: اقْضُوا اللَّهَ الَّذِي لَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ أَحَقُّ بِالْوَفَاءِ".(4)

فحق الوالدين عند رسولنا ﷺ عظيم، وبخاصة عندما يتقدم بهما العمر، فتصبح حاجتهما إلى الملاطفة والرعاية أكثر، من هنا جاء التأكيد على تقديم منتهى البر لهما في هذه المرحلة العمرية، بل إن القرآن الكريم حذر من التعبير عن الضجر منهما أو الإساءة لهما أو لأحدهما، ولو بأبسط الألفاظ، فقال تعالى:{...إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا}.(5)

وقد عبر الرسول الأسوة ﷺ عن تعاطفه مع الوالدين بغض النظر عن صنف خلقهما، فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: "كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَانْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ، فَرَأَيْنَا حُمَّرَةً مَعَهَا فَرْخَانِ، فَأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا، فَجَاءَتْ الْحُمَرَةُ، فَجَعَلَتْ تُفَرِّشُ،

1. قَالَ الْقُرْطُبِيّ: الْمُرَاد أَنَّ الأُمّ تَسْتَحِقّ عَلَى الْوَلَد الْحَظّ الأَوْفَر مِنْ الْبِرّ، وَتُقَدَّم فِي ذَلِكَ عَلَى حَقّ الأَب عِنْد الْمُزَاحَمَة. فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر، ج10، ص402.
2. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن الصحبة.
3. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من مات وعليه صوم.
4. صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب من شبه أصلا معلوما بأصل مبين قد بين الله حكمهما.
5. الإسراء: 23.

فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بِوَلَدِهَا، رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا، وَرَأَى قَرْيَةَ نَمْلٍ قَدْ حَرَّقْنَاهَا، فَقَالَ: مَنْ حَرَّقَ هَذِهِ؟ قُلْنَا: نَحْنُ، قَالَ: إِنَّهُ لا يَنْبَغِي أَنْ يُعَذِّبَ بِالنَّارِ إِلا رَبُّ النَّارِ".(1)

وبالإضافة إلى ذلك، فإن الرسول ﷺ حذر أشد التحذير من الإساءة للوالدين، واعتبرها من أكبر الكبائر، عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْكَبَائِرَ أَوْ سُئِلَ عَنْ الْكَبَائِرِ، فَقَالَ: الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ. فَقَالَ: أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟ قَالَ: قَوْلُ الزُّورِ، أَوْ قَالَ شَهَادَةُ الزُّورِ. قَالَ شُعْبَةُ: وَأَكْثَرُ ظَنِّي أَنَّهُ قَالَ شَهَادَةُ الزُّورِ".(2)

ولم يقتصر تحذير الرسول ﷺ من ارتكاب الإساءة المباشرة للوالدين، واعتبارها من أكبر الكبائر، وإنما شمل تحذيره من التسبب بالإساءة لهما، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ".(3)

جعلنا الله ممن يقتفي سيرة الرسول ﷺ ونهجه في تقدير الوالدين وبرهما، وصلى الله على رسولنا الأسوة محمد بن عبد الله، وعلى آله الكرام، وصحابته الأبرار.

1. سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في قتل الذر، وصححه الألباني.
2. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر.
3. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب لا يسب الرجل والديه.

الرسول الأول محمد ﷺ يدعو للوحدة ويؤسس لها

منذ اليوم الأول لبعثة النبي ﷺ، ورسول الإنسانية قاطبة يدعو لوحدة الأمة ولخير البشرية جميعها، آخذاً بيدها لإخراجها من الظلمات إلى النور، ومن الجاهلية إلى الهدى والعدل، في حرص واضح على بناء نسيج الأمة الاجتماعي وفق أسس ثابتة تقود إلى عز الأمة وقوتها ونهضتها ووحدتها، انطلاقاً من عقيدة راسخة بوحدة الأمة ووحدة هدفها وغايتها، مصداقاً لقوله تعالى: {إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ}[1]، فهذه الأمة الكريمة تنضوي تحت لواء الإسلام، وهي بهذا تكون أمة مهيبة، وحصناً منيعاً، يتعذر على الأعداء اقتحامه، لأنه يحوي أمة متكافلة ومتعاونة لا يرضى أفرادها بخذلان بعضهم بعضاً، ولا تقر أعينهم وهم يرون أذى يلحق ببعض منهم، فهم كما وصفهم رسولهم، عليه الصلاة والسلام: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ؛ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى".[2]

وإن الناظر في هذا النص وغيره من النصوص التي تحث على وحدة الأمة، يرى كيف صنع الإسلام من المسلمين أمة قوية موحدة في ظل العقيدة الإسلامية السمحة، والأخوة الإيمانية التي تجاوزت كل الأواصر والروابط، بل ذابت في بوتقتها كل الروابط والأواصر فالتقى المسلمون صفاً واحداً، مناكبهم إلى جانب بعضها بعضاً، ينتظمون في صف الوحدة كانتظامهم في صفوف العبادة بأوسع ما تعني هذه العبادة من وحدة في القصد ونبل في الغاية والهدف. إنهم أمة الإسلام التي أمرها الله بالاعتصام بحبل الله، والتمسك بعروته الوثقى، فقال جل شأنه: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ

1. الأنبياء: 92.

2. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم.

اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}[1]، لأن الفرقة مدمرة للأمة، تفنيها، وتشتت شملها وجهودها، كما أن النزاع يضعفها ويفرقها، ويقودها إلى طريق الفشل، فالله تعالى يقول: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}[2]، فالنزاع داء قاتل يوجه لنسيج الأمة ووحدتها، ولذلك حرمه الله، ونهى عن كل ما من شأنه أن يضعف الأمة، أو يصيبها في مقتل.

وإن الناظر إلى نسيج الأمة الاجتماعي وبنيانها المتين يرى أنه يقوم على عناصر ثابتة من شأنها، إن أخذت الأمة بها، والتزمت الانضواء تحت لوائها، أن تحافظ على قوتها ووحدتها وأن تكون في مقدمة ركب الأمم، يطمع الضعيف بعدلها، ويهاب القوي بأسها.

ومن هذه العناصر:

- **وحدة العقيدة:** فالأمة المتوحدة لها أصول عقدية واحدة تجمعها، فقد أرسى إسلامنا العظيم قواعد هذه العقيدة على أسس متينة، وعلاقة فريدة بين أفراده تقوم على علاقة الأخوة في العقيدة والإيمان بالله، وقد قرر الله ذلك بأن جعل المؤمنين إخوة، قال تعالى: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}[3]، وقد جسد النبي ﷺ هذه الأخوة ومتانة هذه الرابطة واقعاً معاشاً وحياً في المجتمع الإسلامي الأول في المدينة المنورة بين المهاجرين والأنصار، فآخى بين المسلمين في رباط متين، وأخوة فريدة، ترتكز إلى العقيدة الإسلامية والأخوة الإيمانية، وبهذا غدا مجتمع المدينة المنورة مجتمعاً قوياً متماسكاً تجمعه العقيدة، ويهذبه الإسلام بتعاليمه السمحة.
- **وحدة العمل والاتباع:** وقد ظهر هذا المبدأ في جميع أعمال الأمة، فعملها ينطلق وفق هدايات الشرع، وضوابط الشريعة اتباعاً لنصوص القرآن الكريم وسنة المصطفى، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وذلك للوصول إلى وحدة الهدف بتحقيق الحاكمية لله وحده، قال تعالى: {وَأَنِ

1. آل عمران: 103.
2. الأنفال: 46.
3. الحجرات: 10.

احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ }.[1]

- **وحدة الكرامة الإنسانية**: فقد اهتمت شريعتنا الإسلامية بكرامة الإنسان، وجعلت ذلك مبدأً مهمّاً من مبادئها، في نظرتها إلى الإنسانية، فجعلت هذه الكرامة عنواناً لإنسانية الإنسان، قال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً} [2]، وجعل الخلق كلهم متساوين في إنسانيتهم، فقال عز وجل: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [3]، والبشر جميعاً وهبهم الله تعالى إشراقة الروح، فلا تفاضل بلون أو عرق أو جنس أو طبقة وإنما التفاضل والكرامة للتقوى، وهي ميزان الله تعالى خالق البشر جميعاً، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}.[4]

والرسول ﷺ يقول: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ؛ أَلا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلا لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلا لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلا بِالتَّقْوَى، أَبَلَّغْتُ؟ قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟ قَالُوا: بَلَدٌ حَرَامٌ، قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ بَيْنَكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ، قَالَ: وَلا أَدْرِي، قَالَ: أَوْ أَعْرَاضَكُمْ أَمْ لا، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَبَلَّغْتُ؟ قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: لِيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ"[5]، وقد حاربت الشريعة الإسلامية كل مظاهر الطبقية والعنصرية والجاهلية التي سادت قبل بزوغ نور الإسلام.

---

1. المائدة: 49.
2. الإسراء: 70.
3. النساء: 1.
4. الحجرات: 13.
5. مسند أحمد، باقي مسند الأنصار، حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح.

- **مبدأ العدل والتعاون بين أفراد الأمة وشعوبها**: فقد قررت الشريعة الإسلامية مبدأ العدل بين جميع أبناء الأمة، لا بل شمل هذا المبدأ كل من انضوى تحت لواء الإسلام، فالعدل أمر إلهي، يقول تعالى: { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[1]، والعدل أمان للنفوس يدفع عنها الظلم والعدوان، ويحفظها من مشاعر الحقد والكراهية، وحينما يشعر الناس بالعدل يساهمون في بناء قوة الأمة، ويتعاونون فيما بينهم فيما يقود إلى البر، ويبعد عن الإثم، محققين قول الله تعالى: {...وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[2]، وإذا ساد التعاون بين أفراد الأمة، سادت المحبة، وقويت الروابط الاجتماعية، وحلت جميع القضايا التي تواجه الأمة أفراداً أو جماعات، لأن الله يكون في عون المتعاونين، فما أحوج المسلمين اليوم وديارهم وشعوبهم يتعرضون لأذى العدوان واضطهاد المعتدين والظالمين إلى الوحدة، التي تعيد لهم مجدهم وقوتهم، وتوحد جهودهم في دفع الأذى عن بلادهم ورد العدوان عن شعوبهم.

وما أحوجنا نحن أبناء هذه الديار المباركة إلى الوحدة لنواجه حملات التهويد والاقتلاع والاستيطان من قبل الاحتلال الإسرائيلي، فالأمة الإسلامية التي تتوجه إلى رب واحد، وإله واحد، وتتبع هدي نبي بعثه الله رحمة للعالمين، وخصها به، ومعه هذا النور المبين، حرية بأن تنهض من جديد، لتنفض عنها غبار الذلة والضعف والهوان، وتعود إلى معين عزتها ومصدر قوتها، تحت لواء الإسلام العظيم الذي وحدها، وجعلها خير أمة أخرجت للناس، وما ذلك على الله بعزيز، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، وينشدون نشيد التوحيد والعزة والكرامة.

وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأسوة، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

---

1. النحل: 90.
2. المائدة: 2.

الناظر إلى سيرة المصطفى، عليه الصلاة والسلام، والمتبع لهديه الشريف، يجد دعـوة الـنبي ﷺ لوحدة الأمة وتماسكها واضحة ظاهرة في كل توجيهاته وأفعاله، لأنه ﷺ يدرك أن قوة هذه الأمة تكمن في وحدتها وتعاونها وتكاتفها، ولأن الفُرقة - نقيض الوحدة - تقود إلى الـضعف، وإلى طمع أعداء الأمة بها، كما أن الفرقة تعطل تقدم الأمة في جميع مجالات الحياة، لانـشغال الأمـة في الخلافات والنزاعات والخصومات، وهذه كلها أو واحدة منها كفيلة بتأخر الأمة أو القضاء عليها، فكيف إذا اجتمعت هذه الأمـور، وأحاطـت بالأمـة، وراحـت تـنهش جـسمها وكيانهـا، وتغـزو شعوبها، أو تستحكم إحداها في شعب من شعوبها.

لذا أمر الله تعالى بالوحدة وجمع الكلمة، فقال تعـالى: {وَاعْتَـصِمُواْ بِحَبْـلِ اللّـهِ جَمِيعـاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ} ([1])، وذكرهم بحياة العـرب قبـل الإسـلام، إذ كـانوا أعـداء يتقـاتلون ويتحـاربون لأتفـه الأسباب، فجاء الإسلام – وهو أعظم نعمة امتن الله بهـا علـى أمتنـا – فوحـدهم، وألّـفَ بـين قلوبهم، فغدو خير أمة أخرجت للناس، قال تعالى: {وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنـتُمْ أَعْـدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا} ([2]).

والرسول ﷺ يدعو للزوم الجماعة بقوله: "... عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ، فَإِنَّ الـشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ، وَهُوَ مِنَ الاثْنَيْنِ أَبْعَدُ، مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ؛ فَلْيَلْزَمْ الْجَمَاعَةَ، مَنْ سَـرَّتْهُ حَـسَنَتُهُ، وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ، فَذَلِكُمْ الْمُؤْمِنُ "([3])، وفي حديث آخر: " ... وَلا يَحِلُّ لِثَلاثَةِ نَفَرٍ يَكُونُـونَ بِـأَرْضِ فَلاةٍ إِلا أَمَّرُوا عَلَيْهِمْ أَحَدَهُمْ، وَلا يَحِـلُّ لِثَلاثَـةِ نَفَـرٍ يَكُونُـونَ بِـأَرْضٍ فَـلاةٍ؛ يَتَنَـاجَى اثْنَـانِ دُونَ صَاحِبِهِمَا "([4])، وفي هذا أمر واضح بلزوم الجماعة ووحدة الأمة.

1. آل عمران: 103.
2. آل عمران: 103.
3. سنن الترمذي، كتاب الفتن، باب لزوم الجماعة.
4. مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وقال شعيب الأرناؤوط: حسن.

هذه الوحدة التي تقوم على دعائم ثابتة، نجدها في العقيدة وأحكام الشريعة، فأمة ربها واحد، ودينها واحد، ورسولها واحد، وكتابها واحد، وقِبلتها واحدة، وكل عباداتها تحقق مظاهر الوحدة في الزمان والمكان والأداء، حري بها ألا تتسرب مظاهر الفرقة إلى صفوفها، وأن لا يعرف النزاع سبيلاً إلى نفوس أفرادها، والله يخاطبها بقوله: {وَإِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ}.[1]

وقد أمر الله تعالى حين وقوع الخلاف أو النزاع بين طائفتين من الأمة بوجوب الإصلاح بينهما، فقال تعالى: {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا}.[2]

فهذا القتال الذي ينشب بين طائفتين من أبناء الأمة، أو بين شعبين من شعوبها، يوجب على بقية شعوب الأمة أو على غير المنخرطين في الخلاف أو النزاع أن يقوموا بالإصلاح، وإنهاء القتال أو الخلاف بين الإخوة الذين لم يخرجهم الله عن دائرة الإيمان، وهم يرتكبون هذا الذنب العظيم بقتال بعضهم بعضاً، وليت الذين يتعجلون بإخراج المسلمين عن دائرة الإيمان لمجرد شبهة أو خلاف لوجهة نظرهم، يقفون عند هذا المعنى العظيم لهذه الآية الكريمة، فلا يكفرون المسلمين، ولا يخرجونهم عن دائرة الإيمان، لمجرد نزاع أو خلاف ينشب بينهم.

كما يقفون على هذا المعنى العظيم الذي يوجب على بقية المسلمين العمل على إصلاح ذات البين بين المتنازعين، هذا الإصلاح الذي يحتاج إلى إبداء حسن النوايا من المتخاصمين والمتنازعين، والكف عن كل ما من شأنه تأجيج الخلاف، وتأزيم المواقف، فالله تعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور؛ ربط نجاح الأعمال بالنيات، فقال تعالى: {رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا }[3]، ورسولنا الأكرم ﷺ يقول: "إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ"[4]، فإذا خلصت النوايا؛ حقق الله النتائج، وكلل الأعمال بالنجاح.

---

1. المؤمنون: 52.
2. الحجرات: 9.
3. الإسراء: 25.
4. صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي.

فما أحوج أمتنا اليوم إلى عزيمة صادقة، ونية خالصة، لتجاوز خلافاتها ونزاعاتها، وإصلاح ذات بينها، لتوحيد موقفها إزاء كل قضاياها المصيرية التي لا تحتمل التأخير والتسويف، ومنها ما يتعلق بعقيدة الأمة ومقدساتها وكرامة شعوبها وتحرير أرضها، إنّ على الأمة أن تدرك في هذا الزمان الذي لا مكان فيه للضعفاء؛ أن دوله وشعوبه غدت تشكل اتحادات سياسية، أو اقتصادية، أو أحلاف عسكرية، لتحافظ على مصالحها رغم اختلاف أعراقها وقومياتها وثقافاتها.

على هذه الأمة التي تمتلك عوامل الوحدة ما لم يتهيأ لغيرها، أن تستثمر هذه العوامل لتنهض على أساسها أمة واحدة في ظلال دينها وثقافتها، ووحدة أراضيها، وإخوة شعوبها، ومصيرها المشترك، عوضاً عن هذه النزاعات التي تفتت أبناء الشعب الواحد، أو هذه الحروب والصراعات التي جعلت كثيراً من ديار شعوبها مسرحاً لخدمة أهداف الدول الاستعمارية وأغراضها، وخدمة مصالحها في المنطقة، وإذا كنا نوجه النداء للأمة بوجوب الوحدة والارتفاع إلى مستوى المسؤولية الملقاة على عاتق الأمة تجاه جميع قضاياها؛ فحري بنا أن نوجه النداء نفسه إلى أبناء شعبنا الصابر المرابط، إلى فصائله، وإلى جميع قواه الفاعلة، إلى مفكريه وقادة الرأي فيه، أن تعالوا إلى كلمة سواء، إلى كلمة الخير، التي توحد صفكم، وتجمع شملكم، إلى موقف تنهون فيه هذا الانقسام والخصام، وتعيدون للوطن وللشعب لحمة الوحدة، وموقف العزة، الذي يقف حائلاً دون تحقيق أهداف المحتل بابتلاع أرضنا، وتهويد قدسنا، والمراهنة على فرقتنا، التي لا تخدم إلا الاحتلال ومخططاته، وتبعدنا عن أهدافنا في الحرية والكرامة لأرضنا وشعبنا، والوفاء لأرواح شهدائنا، ودماء جرحانا، وعذابات أسرانا، فهل من معتبر؟! وهل من مدكر؟! فاعتبروا يا أولي الأبصار، وتأسوا بهدي رسولنا الأكرم ﷺ، الذي دعا للوحدة قولاً وعملاً، وسار على نهجه سلفنا الصالح الذين أنفذوا إرادة الله بإسلامية هذه الديار، فكونوا خير خلف لخير سلف، وصلوا وسلموا على رسولنا الأسوة، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على هديهم إلى يوم الدين.

تعتبر جريمة القتل من أبشع الجرائم التي عرفتها البشرية وأقدمها، منذ قصة ابني آدم عليهما السلام، المذكورة في سورة المائدة، حيث قال تعالى: {فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [1]، فجريمة القتل جريمة شنعاء توجب اللعنة، وتطرد من الرحمة، وهي وهج الفتن، ووقود الدمار، ومعول الهدم، جريمة توجب سخط الله والنار والعذاب الأليم.

ولبيان عظم هذه الجريمة، فقد قرن الله سبحانه وتعالى القتل بالشرك، فقال تعالى: {قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}.[2]

وفي الحديث الشريف المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: "اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ".[3]

وفي صحيح البخاري عن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: "لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا".[4]

---

1. المائدة: 30.
2. الأنعام: 151.
3. صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى {إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً}.
4. صحيح البخاري، كتاب الديات، باب قول الله تعالى {ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم}.

فهذه النصوص تبين عظم إثم جريمة القتل التي أصبحت منتشرة بكثرة في أيامنا هـذه، ولعظم هذه الجريمة؛ فقد رتبت عليها عقوبات في الآخرة، وعقوبات في الدنيا.

أما عقوبات الآخرة، فقال تعالى: {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَـنَّمُ خَالِـداً فِيهَـا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً}[1]، فهذه الآية تبين ما ينتظر القاتـل مـن عذاب يوم القيامة وعقاب، فبينت أن جـزاء القاتـل المتعمـد الخلـود في جهـنم، وحلـول غضب الله عليه، واللعنة؛ وهي الطرد من رحمة الله، والعذاب العظيم الـذي أعـد للقاتـل المتعمد، فهذه العقوبات العظيمة كلها أعدت للقاتل المتعمد الذي لا يدري عظم الجريمـة التي اقترفتها يداه.

إن النفس الإنسانية معصومة إلا بحقها، وسفك الدماء جرم عظيم، ولذلك جعل الله لها الصدارة يوم القيامة للقضاء في الحقوق، فقال النبي ﷺ: "أَوَّلُ مَـا يُقْـضَى بَـيْنَ النَّـاسِ فِـي الدِّمَاءِ".[2]

أما عقوبة القاتل في الدنيا، فهي القصاص، حيث قال تعالى: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}.[3]

ويكون القصاص النفس بالنفس، فالقاتل يُقتـل، فكمـا أن القاتـل قتـل أخـاه المـؤمن، فجزاؤه أن يفعل به كما فعل، لأنه قتل نفساً معصومة الدم بغير وجه حق.

إن العوامل والأسباب التي تؤدي إلى القتل كثيرة، فالقتـل يـتم أحيانـاً للـصراع علـى الدنيا، والمصالح، والنساء، والسلطة، ومن الأسباب الـتي توقـع في سـخط الـرب سـبحانه وتعالى، وتهون قتـل الـنفس، تربيـة الأبنـاء علـى الخـصومات واعتبارهـا مـن الـشجاعة والبطولات، فتنتشر الخصومات، وتتحفز العداوات حتى تصل إلى القتل وإزهاق الـنفس

1. النساء: 93.
2. صحيح البخاري، كتاب الديات، باب قول الله تعالى {ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم}.
3. البقرة: 179.

المؤمنة، ولكننا نرى في أيامنا هذه أن القتل أصبح يتم على أشياء تافهة، بل أتفه من التافه ما يوصل إلى القتل وإزهاق النفس.

فالمجتمع الذي يشجع أبناءه على الخصومات والمشاجرات، ويعتبرها من البطولات؛ مخطئ خطأً فادحاً، فأي بطولة هذه تزهَق النفس فيها من أجل كلمة أو تصرف طائش غير مسؤول.

وأي بطولة هذه التي يستحق صاحبها بعدها اللعن والطرد من رحمة الله والعذاب الأليم؟ وأي بطولة هذه تزهق نفساً من أجل بعض الدراهم أو الدنانير؟ أو غير ذلك؟

وأخيراً لا بد أن نقول: إن للأسرة وتربيتها سبباً رئيساً في كل ذلك، فالأسرة التي تربي أبناءها على التربية الإسلامية والأخلاق الحميدة، لن ينجرف أبناؤها وراء وساوس الشيطان، ولن يقتربوا من هذه الجريمة الخطيرة التي توجب غضب الله ولعنته.

وأما الأسرة التي تربي أبناءها على المشاجرات والخصومات والمنازعات، فهذه الأسرة ستجني الذل والهوان والخراب في الدنيا والآخرة، ولسوف يندم الأب والأم والأسرة بكاملها على هذه التربية الفاسدة.

فلنزرع في قلوب أبنائنا وجوب الانقياد لأمر الله تعالى، وتعظيم ما عظم الله، والوقوف عند حدود الله، فنعظم النفس التي حرمها الله أشد من حرمة بيته الحرام، ونعلم أبناءنا أيضاً أن البطولات ليست في الخصومات والمشاجرات، ولكن البطولة تكمن في الالتزام بأمر الله، والعمل وفق مرضاته، فقد عظم الله تعالى دم الإنسان إلا بحقه، واعتبر الاعتداء على النفس الإنسانية اعتداءً على سائر البشرية، فقال تعالى: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم

بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾[1]، والرسول ﷺ يقول: "لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ"[2] فإذا شاع القتل في المجتمع؛ شاعت الفوضى، ودب الفساد، وازدادت الكراهية، وأطلت العصبية الجاهلية برأسها، وقد حذرنا رسولنا الأسوة ﷺ من ذلك، بقوله : "لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ"[3]، فلنعمل جميعاً أهل هذه الديار المباركة على وأد الفتن، ما ظهر منها وما بطن، ولنقطع الطريق على مثيري الفتن لأغراض لا تخدم شعبنا، ولا تساعد على استمرار صموده ورباطه في هذه الديار، التي يتوجب علينا جميعاً أن نجعل الصمود والرباط فيها هاجساً للجميع، ونقوي كل ما يساعد على الاستمرار بهذا الواجب الذي تمليه العقيدة وتعززه، ويتفق مع غايات الشريعة ومقاصدها، التي بُعِثَ بها رسولنا الأسوة صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

1. المائدة: 32.

2. سنن الترمذي، كتاب الديات عن رسول الله، باب ما جاء في تشديد قتل المؤمن، وصححه الألباني.

3. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ليس منا من شق الجيوب.

عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: "جَاءَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ، قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ، فَلا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟! أَمَا وَاللَّهِ؛ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي".([1])

فالرسول الأسوة ﷺ أدرج الزواج في المرغوبات الشرعية، واعتبره من طريقته وسنته، وقد مارسه عملياً، فتزوج النساء، وقرر البراءة ممن رغب عن سنته، مبرراً بذلك أهمية الزواج، والحاجة إليه، والحث عليه، بل إنه ﷺ جعل المعاشرة الزوجية ضمن الممارسات التي تستحق الأجر والثواب، ففي الحديث الصحيح عَنْ أَبِي ذَرٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: "إِنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالأُجُورِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ، قَالَ: أَوَ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ، إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ([2]) أَحَدِكُمْ

1. صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح.

2. بُضْع: هُوَ بِضَمِّ الْبَاء، وَيُطْلَق عَلَى الْجِمَاع، وَيُطْلَق عَلَى الْفَرْج نَفْسه، وَكِلاهُمَا تَصِحّ إِرَادَته هُنَا.

صَدَقَةٌ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَيَأتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ، وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟! قَالَ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ، أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلالِ كَانَ لَهُ أَجْرًا".([1])

ويلاحظ أن النفر من الصحابة، رضوان الله عليهم، الذين أثاروا مع الرسول ﷺ مسألة ذهاب أهل الدثور بالأجور أو غيرهم ممن سمعوا الرسول ﷺ يقرر اعتبار المعاشرة الزوجية ضمن الصدقات التي ينال مؤديها الأجر والثواب، تساءلوا باستغراب عن هذا الاعتبار، منطلقين من اعتقاد عامة الناس أن المعاشرة من أفعال اللهو واستجابات الشهوة، لكن الرسول ﷺ رد عليهم بحكمته وحسن أسلوبه، حيث ناقشهم في حرام المعاشرة وحلها، وحين أقروا أن فعل حرامها يجلب الإثم، أوصلهم بالمنطق إلى نتيجة أن فعل حلالها يجلب البر والثواب.

فمقابل صدقة الأزواج يأتي وزر معاشرة غير الأزواج، والرسول ﷺ سأل مستغربي صدقة الأزواج؛ أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه فيها وزر؟! وهذا السؤال التقريري يدل على أن المعاشرة خارج إطار الزوجية المشروعة أمر مجمع على نبذه في ضوء منظومة القيم الدينية التي جاء بها الإسلام، والموقف من ذلك واضح لدى المسلمين كافة وضوح الشمس في كبد السماء.

والرسول ﷺ اعتبر اقتراف الزنى من أعظم الذنوب، وبخاصة مع من يمكن تبادل هذا الاقتراف الآثم معه في ظل سواتر معينة، مثل الجيران والأقارب، فهؤلاء قد تتوفر المغريات لمشاركتهم فعل الفاحشة في ظل سهولة الوصول إليهم إذا ما قورنوا بغيرهم من الناس، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ"([2])، وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ:

1. صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف.

2. صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب إثم الزناة.

"أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الأَنْصَارِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَرَأَيْتَ الْحَمْوَ؟ قَالَ: الْحَمْوُ الْمَوْتُ".[1]

وقد جاءت الآيات القرآنية الكريمة معاضدة للموقف النبوي من رذيلة الزنى، حيث نهى القرآن الكريم بصريح القول عن الزنى، فقال تعالى: {وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً}[2]، وقُرب الزنى يشمل نفس الفعل، كما يشمل مقدماته والسبل المفضية إليه، من هنا جاء الشرع بالنهي عن التبرج والسفور، والخضوع في القول، والخلوة، والأمر بغض البصر، وغير ذلك من ضوابط تجنب فعل الزنى ودواعيه ومورطاته.

وقد أثنى الله على المؤمنين لاتصافهم بأخلاق فاضلة، منها ما ورد ذكره في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً}.[3]

وأثنى الله على عباد الرحمن، الذين من أبرز صفاتهم وخصائصهم أنهم لا يزنون، وهم بذلك لفروجهم حافظون، مصداقاً لقوله تعالى:{وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ* فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ}.[4]

وفي سياق التنفير الواضح من فعل الزنى، يأتي الحديث النبوي الذي بيّن أن الزاني لا يقترف جرم الزنى وهو على حال الإيمان، وإنما يكون ذلك منه ساعة ضعف غُيِّبَ عنها

1. صحيح مسلم، كتاب السلام، باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها.
2. الإسراء: 32.
3. الفرقان: 68.
4. المؤمنون: 5-7.

الإيمان، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ...".[1]

وإذا كان الزنى إثماً عظيماً حين يكون بين الأجانب، فهو إثم أعظم، وجرم أكبر حين يكون بين المحارم، فيما يطلق عليه سفاح القربى، حين يجترئ بعض الذين نزعت منهم قيم الفضيلة على محارمهم، فيقترفوا بالاتفاق أو عن طريق الاغتصاب الفاحشة معهم، سواء في ذلك ما فعله بعض الآباء مع بناتهم، أو الإخوة مع أخواتهم، أو الأعمام والأخوال مع محارمهم، أو أمهات الزوجات مع أزواج بناتهن، أو آباء الأزواج مع زوجات أبنائهم، وما عدا ذلك من صور السفاح التي يتضاعف فيها الإثم أضعافاً مضاعفة، وتبلغ فيها البشاعة ذروة الانحطاط والرذيلة.

ومن المؤسف له أن بعض الناس يمارسون الانحراف الجنسي بالصور التي شهدتها الجاهلية الأولى، حيث وصل الانحراف ببعضهم حد تبادل الأزواج في حفلات المجون ليمارسوا الجنس مع أزواج أصحابهم، ويبادلهم أصحابهم ممارسة الجنس مع أزواجهم، في مشهد يشبه في جانب منه نكاح الاستبضاع الذي كان يلجأ إليه بعض الناس زمن الجاهلية قبل الإسلام، فعن عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ "أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ أَخْبَرَتْهُ أَنَّ النِّكَاحَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ؛ فَنِكَاحٌ مِنْهَا نِكَاحُ النَّاسِ الْيَوْمَ، يَخْطُبُ الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ وَلِيَّتَهُ أَوْ ابْنَتَهُ، فَيُصْدِقُهَا، ثُمَّ يَنْكِحُهَا، وَنِكَاحٌ آخَرُ؛ كَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ لامْرَأَتِهِ إِذَا طَهُرَتْ مِنْ طَمْثِهَا أَرْسِلِي إِلَى فُلانٍ، فَاسْتَبْضِعِي مِنْهُ، وَيَعْتَزِلُهَا زَوْجُهَا، وَلا يَمَسُّهَا أَبَدًا، حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَمْلُهَا مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي تَسْتَبْضِعُ مِنْهُ، فَإِذَا تَبَيَّنَ حَمْلُهَا، أَصَابَهَا زَوْجُهَا إِذَا أَحَبَّ، وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ رَغْبَةً فِي نَجَابَةِ الْوَلَدِ، فَكَانَ هَذَا النِّكَاحُ نِكَاحَ الاسْتِبْضَاعِ، وَنِكَاحٌ آخَرُ؛ يَجْتَمِعُ الرَّهْطُ مَا دُونَ الْعَشَرَةِ، فَيَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ كُلُّهُمْ يُصِيبُهَا، فَإِذَا

1. صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب لا يشرب الخمر.

حَمَلَتْ وَوَضَعَتْ، وَمَرَّ عَلَيْهَا لَيَالٍ بَعْدَ أَنْ تَضَعَ حَمْلَهَا، أَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ رَجُلٌ مِنْهُمْ أَنْ يَمْتَنِعَ حَتَّى يَجْتَمِعُوا عِنْدَهَا، تَقُولُ لَهُمْ: قَدْ عَرَفْتُمْ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ، وَقَدْ وَلَدْتُ فَهُوَ ابْنُكَ يَا فُلانُ، تُسَمِّي مَنْ أَحَبَّتْ بِاسْمِهِ، فَيَلْحَقُ بِهِ وَلَدُهَا، لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْتَنِعَ بِهِ الرَّجُلُ، وَنِكَاحُ الرَّابِعِ؛ يَجْتَمِعُ النَّاسُ الْكَثِيرُ، فَيَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ، لا تَمْتَنِعُ مِمَّنْ جَاءَهَا، وَهُنَّ الْبَغَايَا، كُنَّ يَنْصِبْنَ عَلَى أَبْوَابِهِنَّ رَايَاتٍ تَكُونُ عَلَمًا، فَمَنْ أَرَادَهُنَّ دَخَلَ عَلَيْهِنَّ، فَإِذَا حَمَلَتْ إِحْدَاهُنَّ وَوَضَعَتْ حَمْلَهَا، جُمِعُوا لَهَا، وَدَعَوْا لَهُمْ الْقَافَةَ، ثُمَّ أَلْحَقُوا وَلَدَهَا بِالَّذِي يَرَوْنَ، فَالْتَاطَ بِهِ، وَدُعِيَ ابْنَهُ، لا يَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ، فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِالْحَقِّ، هَدَمَ نِكَاحَ الْجَاهِلِيَّةِ كُلَّهُ، إِلا نِكَاحَ النَّاسِ الْيَوْمَ".(1)

فلم تختلف جاهلية العصر الحديث عن جاهلية القرون الأولى من حياة البشرية، فزواج المثليين يجد من يحمل راية الدفاع عنه في أوساط عدة من مجتمعات هذا العصر، حتى أصبح تشريع ممارسة هذه الخطيئة مسألة مختلف عليها في قوانين كثير من الدول، ولدى قيم العديد من الشعوب، حتى أضحى الجرم يلصق بالذين ينكرون هذا الشذوذ، تحت ذريعة احترام الحريات الشخصية للناس، ولا يبعد هذا الموقف كثيراً عما قاله قوم لوط حين اعتبروا الطهر جريمة تستوجب الملاحقة والإبادة، كما ورد في الإخبار الموجز عن موقفهم، في قوله تعالى:{وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ* إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ* وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ* فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ* وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ}.(2)

1. صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب من قال لا نكاح إلا بولي.

2. الأعراف: 80-84.

فالعجب العجب مما آلت إليه الأمور والمواقف من معايير الفضيلة والرذيلة في العلاقات الجنسية، وكأن الأحداث تعيد نفسها، والتاريخ يعيد تكرار المشاهد ذات المضمون الواحد، وإن اختلف الزمان والمكان والشخوص.

فقد أصبح اتخاذ الأخلاء خارج نطاق الزوجية أمراً يخضع لمعايير الاختيار والحريات الشخصية، وانتشرت حالات الاغتصاب والخيانة في صور شتى، أما الزواج المشروع والأخذ بضوابط البعد عن الفواحش ومقدماتها ودواعيها، فأمر تحاسب عليه القوانين بالعقوبة أحياناً، عند بعض الناس، وتلفظه قيم الجاهلية المعاصرة كما سبق أن لفظته قيم قوم لوط وجاهلية القرون الأولى.

وعلى الناس أن يراجعوا التاريخ، لينظروا فيما آلت إليه عاقبة الشاذين المنحرفين من قوم لوط وسواهم، ممن مارسوا الشذوذ الجنسي والانحراف بالعلاقات الجنسية عن ضوابطها المشروعة، وعليهم أن يراجعوا الأضرار الصحية، والاضطرابات النفسية والاجتماعية، والتشرد الأسري، وغير ذلك من محصلات الزنى وارتكاب الفاحشة، وذلك ليسترشدوا بهذه المراجعات وهم يختارون موقفهم، ويحددون اتجاههم وسلوكهم حيال ما جاء به الرسول الأسوة ﷺ فيما يخص الفضيلة والرذيلة في العلاقات الجنسية، وما جاء به الرسول ﷺ ينسجم مع طبيعة خلق الإنسان وفطرته، فهو يعترف بالغريزة الجنسية، ويُشرِّع سبل تلبيتها والتجاوب معها، وذلك في إطار الأحكام والقيم والضوابط التي جاء بها دين الإسلام الحنيف، وهو بذلك يتجاوب مع الفطرة من ناحية، ويُبعد عن الإنسان والبشرية شر الانفلات المتهور وراء الشهوات من ناحية أخرى.

هدانا الله للتمسك بهدي رسولنا الأسوة ﷺ، والعمل بفضيلة العلاقات الجنسية ونبذ رذائلها، وصلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم، إلى يوم الدين.

من الشائع بين الأمم – منذ بداية الخليقة إلى يومنا هذا، وإلى أن يرث الله الأرض وما عليها – أن يتخذ أفرادها وجماعاتها تحية يحيون بها بعضهم بعضاً، وقد تكون هذه التحية كلاماً أو إشارةً يصطلح عليها القوم.

ومن رحمة الله بهذه الأمة الإسلامية الكريمة أن اختصها الله تعالى بتحية السلام، فأصبحت التحية "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته" رمزاً وشعاراً خاصاً يميز هذه الأمة عن سائر الأمم.

وهذه التحية الكريمة المميزة بألفاظها ومعانيها مشتملة على اسم من أسماء الله الحسنى؛ ألا وهو السلام، فالله يقول: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ }[1]، فانظر يا ابن الإسلام إلى هذا المعنى الكبير في لفظ السلام، الذي يحمل كل معاني الأمن والأمان والرحمة والمودة والإحسان، وما لهذا اللفظ من وقع عظيم على النفوس، وصفاء القلوب، وتوثيق عرى المحبة والصفاء، فلا عجب إذن أن تحسدنا الأمم على هذه التحية العظيمة، كما ورد عن أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: "مَا حَسَدَتْكُمْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ، مَا حَسَدَتْكُمْ عَلَى السَّلامِ وَالتَّأْمِينِ".[2]

ولذلك اختار النبي ﷺ صيغة هذه التحية بقوله: "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته"، وهي صيغة جامعة لمعاني المودة والمحبة والأمن والسلام، مستمطرة رحمة الله وبركاته، ومن

1. الحشر: 23.

2. سنن ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب الجهر بآمين، وقال البوصيري في الزوائد: هذا إسناد صحيح، احتج مسلم برواته جميعاً.

حلت عليه رحمة الله وبركاته، فقد نال خيراً كثيراً، وأجراً عظيماً، وكان - بحول الله - في رعاية الله وحفظه.

ولما لهذه التحية الكريمة من فضل؛ فقد أشارت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة إلى فضلها وأجرها، من ذلك: أنها تحية أهل الجنة، قال تعالى:{وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ}[1]، وقوله تعالى: {سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ}[2]، وقوله تعالى: {ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ}.[3]

ومن الأحاديث الشريفة ما رواه أبو هريرة، رضي الله عنه، قال: "إن رجلا مر على رسول الله ﷺ، وهو في مجلس، فقال: سلام عليكم، فقال: عشر حسنات، ثم مر آخر، فقال: سلام عليكم ورحمة الله، فقال: عشرون حسنة، ثم مر آخر، فقال: سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال: ثلاثون حسنة، فقام رجل من المجلس، ولم يسلم، فقال النبي ﷺ: ما أوشك ما نسي صاحبكم، إذا جاء أحدكم إلى المجلس، فليسلم، فإن بدا له أن يجلس فليجلس، وإن قام فليسلم، فليست الأولى بأحق من الآخرة".[4]

كما بين النبي ﷺ أثر هذه التحية الكريمة في تمتين أواصر المحبة، وتوثيق الروابط الأخوية بين المسلمين، فقال، عليه الصلاة والسلام: "لا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ، أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ".[5]

كما بين النبي، عليه الصلاة والسلام، أن إفشاء هذه التحية سبب لدخول الجنة، فقال، عليه الصلاة والسلام: "اعْبُدُوا الرَّحْمَنَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَأَفْشُوا السَّلامَ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلامٍ".[6]

---

1. يونس: 10.
2. الرعد: 24.
3. الحجر: 46
4. أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب البر والإحسان، باب إفشاء السلام وإطعام الطعام، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح.
5. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون وأن محبة المؤمنين.
6. سنن الترمذي، كتاب الأطعمة عن رسول الله، باب ما جاء في فضل إطعام الطعام، وقال: حسن صحيح.

وهذه التحية هي إحدى حقوق المسلم على أخيه، فقد ورد في الحديث الشريف قول الرسول ﷺ: "حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ؛ قِيلَ: مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللَّهَ، فَشَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ، وَإِذَا مَاتَ فَاتْبَعْهُ".([1])

ونهى عن ترك هذه التحية، واعتبر تركها بخلاً، فقال، عليه الصلاة والسلام: "إن أبخل الناس من بخل بالسلام، وأعجز الناس من عجز عن الدعاء".([2])

كما جعلها رسول الله ﷺ علامة على عودة الود والمحبة والصفاء بين المتنافرين، فقال، عليه الصلاة والسلام: "لا يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثِ لَيَالٍ، يَلْتَقِيَانِ، فَيُعْرِضُ هَذَا، وَيُعْرِضُ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلامِ".([3])

ونظرة إلى سيرة النبي ﷺ وحياته العملية، نراه عليه السلام، أكثر الناس إفشاءً للسلام، لا يفرق بين كبير أو صغير، قريب أو بعيد، رجل أو امرأة، فقد ورد أنه مر على قوم لا يعرفهم في مكان يدعى الروحاء فابتدرهم بالسلام.

وحينما سئل: "أَيُّ الإِسْلامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَعَلَى مَنْ لَمْ تَعْرِفْ"([4])، فكان إذا مر على جماعة؛ سلم عليهم، وإذا مر على النساء؛ سلم عليهن ووعظهن.

وكان ﷺ إذا دخل على بيته سلم على أهله، كما روى المقداد بن عمرو، رضي الله عنه، قال: "... فَيُسَلِّمُ تَسْلِيمًا لا يُوقِظُ نَائِمًا، وَيُسْمِعُ الْيَقْظَانَ".([5])

---

1. صحيح مسلم، كتاب السلام، باب من حق المسلم للمسلم رد السلام.
2. صحيح ابن حبان، كتاب السير، باب في الخلافة والإمارة، وقال الأرناؤوط: صحيح على شرط مسلم.
3. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الهجرة.
4. صحيح البخاري، كتاب الاستئذان، باب السلام للمعرفة وغير المعرفة.
5. صحيح مسلم، كتاب الأشربة، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره.

كما بين، عليه الصلاة والسلام، آداب هذه التحية من ذلك أن الراكب يسلم على الماشي، والماشي على القاعد، والقليل على الكثير، والصغير على الكبير، ويحث، عليه الصلاة والسلام على طرح التحية والإكثار منها، بقوله: "إِذَا لَقِيَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ، فَلْيُسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَإِنْ حَالَتْ بَيْنَهُمَا شَجَرَةٌ أَوْ جِدَارٌ أَوْ حَجَرٌ، ثُمَّ لَقِيَهُ، فَلْيُسَلِّمْ عَلَيْهِ أَيْضًا".[1]

كما كان ﷺ يسلم على القوم إذا انتهى إليهم، ويسلم إذا انصرف من المجلس، وقد أدبنا القرآن الكريم برد التحية بأحسن منها أو مثلها، فقال تعالى: {وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا}.[2]

وهذه آداب ينبغي على المسلم أن يراعيها، ويتخلق بها بين إخوانه المسلمين، لما للسلام من أثر في النفوس، وقد كان، عليه الصلاة والسلام، إذا مر بجمع فيه مسلمون وغيرهم، يسلم عليهم، إنه الرحمة العامة والسلام لجميع الخلائق، {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}[3]، ومن الآداب كذلك البدء بالسلام قبل السؤال، وكذلك قبل الدعوة للطعام، للحديث: "السَّلامُ قَبْلَ الْكَلامِ".[4]

ولأهمية هذه التحية والآثار التي تتركها في نفس سامعها، حث النبي، عليه الصلاة والسلام، على تبليغ سلام الغائبين إلى أصحابه، وإيصال السلام إليهم.

فقد ورد أن النبي ﷺ، بلغ سلام جبريل عليه السلام، إلى زوجه عائشة، رضي الله عنها، "إِنَّ جِبْرِيلَ يُقْرِئُكِ السَّلامَ، قَالَتْ: وَعَلَيْهِ السَّلامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ"[5] وقال في حديث آخر:

---

1. سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في الرجل يفارق الرجل ثم يلقاه أيسلم عليه، وقال الألباني: صحيح.
2. النساء: 86.
3. الأنبياء: 107.
4. سنن الترمذي، كتاب الاستئذان والآداب عن رسول الله، باب ما جاء في السلام قبل الكلام، وقال الألباني: حسن.
5. صحيح البخاري، كتاب الاستئذان، باب إذا قال فلان يقرئك السلام.

"... هَذِهِ خَدِيجَةُ أَتَتْكَ بِإِنَاءٍ فِيهِ طَعَامٌ، أَوْ إِنَاءٍ فِيهِ شَرَابٌ، فَأَقْرِئْهَا مِنْ رَبِّهَا السَّلامَ، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ مِنْ قَصَبٍ، لا صَخَبَ فِيهِ، وَلا نَصَبَ".[1]

وكان ﷺ إذا بلغه أحد السلام عن غيره يرد عليه وعلى المبلغ، فقد ثبت أن رجلاً قال: "بَعَثَنِي أَبِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: ائْتِهِ، فَأَقْرِئْهُ السَّلامَ، قَالَ: فَأَتَيْتُهُ، فَقُلْتُ: إِنَّ أَبِي يُقْرِئُكَ السَّلامَ، فَقَالَ: عَلَيْكَ السَّلامُ وَعَلَى أَبِيكَ السَّلامُ".[2]

أما إلقاء السلام فهو من سنة النبي ﷺ، والرد عليه واجب، وهذا من حقوق الأخوة الإيمانية، قال، عليه الصلاة والسلام: "حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ؛ رَدُّ السَّلامِ، وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ، وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ، وَتَشْمِيتُ الْعَاطِسِ".[3]

فحري بنا إخوة الإسلام أن نحيي هذه السنة الكريمة، ونشيع السلام بيننا، تأسياً برسول الله ﷺ، وعملاً بهديه الشريف، لما في تحية الإسلام من فضل وخير، وأمن وأمان ومحبة وصفاء، إنها من شعارات الإسلام، وعنواناً على المحبة والسلام، إنها سلام الإسلام لأهله وللعالم أجمع.

وصلى الله وسلم وبارك على حبيبنا وأسوتنا محمد، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم واتبع سنتهم إلى يوم الدين.

---

1. صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى {يريدون أن يبدلوا كلام الله}.
2. سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في الرجل يقول فلان يقرئك السلام، وقال الألباني: حسن.
3. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب الأمر باتباع الجنائز.

ورد في الحديث الذي يرويه الإمام الترمذي في سننه، قول الرسول ﷺ: "مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ"(1)، فقد جعل، عليه الصلاة والسلام، من المؤشرات الدالة على كمال إسلام المسلم أن يتجنب الخوض فيما لا علاقة له به، ويشمل ذلك الأقوال والأفعال، وهو ألصق بالأقوال أكثر، لتهاون الناس عادة في الحديث، فيخوض بعضهم فيما يعلم ولا يعلم، وفيما يلزم ولا يلزم، ولحاجة ودونها، مما يجلب لهم ولغيرهم المتاعب والإساءة وشر الدنيا والآخرة، وقد قيل: من تكلم فيما لا يعنيه حُرِم الصدق. وقيل: ما أوتي الرجل شراً من فضل لسانه.

وروي عن عطاء بن أبي رباح، قوله: "إن من كان قبلكم يكرهون فضول الكلام، وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله تعالى أن يقرأ، أو أمراً بمعروف، أو نهياً عن منكر، أو أن تنطق في حاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها، أتنكرون؟ إن عليكم لحافظين، كراماً كاتبين، عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد، أما يستحي أحدكم لو نشرت صحيفته التي أملاها صدر نهاره، أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه".(2)

وحد الكلام فيما لا يعني المرء أن يتكلم بكلام لو سكت عنه لم يأثم، ولم يضر في حال ولا مال، كالحديث الذي يكون حول أمور لا طائل ولا فائدة للسامعين منها ولا للمتحدث، فهذا السكوت عنه أولى وأفضل، فما بالكم بالحديث الذي يخالطه الإثم، وتمتزج به الغيبة والنميمة وفحش القول؟ فهذا تركه واجب من الواجبات، والخوض فيه إثم من الآثام، إذ الكلام أربعة أقسام، فمنه الضرر المحض، والنفع المحض، والذي يختلط فيه الضرر بالنفع، وقسم لا ضرر فيه

---

1. سنن الترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله، باب فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس، وقال الألباني: صحيح بغيره.

2.حلية الأولياء، للأصبهاني، 315/3.

ولا نفع. فالذي هو ضرر محض ينبغي السكوت عنه، ويلحق به ما فيه ضرر ومنفعة، فإن درء المفاسد أولى من جلب المنافع، وأما ما لا منفعة فيه ولا ضرر فهو الفضول، والاشتغال فيه تضييع للزمان، وهو عين الخسران، فلا يبقى من أقسام الكلام إلا ما فيه نفع محض، فهو الربع الباقي بعد الثلاثة أرباع التي سقطت من أقسام الكلام، بناء على ما بيّناه آنفاً، حتى الربع الباقي يشترط له أن يكون خالياً من الرياء والنفاق، وحب الظهور، ومدح النفس، وما إلى ذلك من آفات اللسان، حتى يعتبر الكلام في عداد الخير والفضل والإحسان.(1)

من هنا جاءت وصية الرسول ﷺ للمسلمين بحفظ ألسنتهم، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ(2) فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ...".(3)

يقول ابن حجر العسقلاني: وهذا من جوامع الكلم؛ لأن القول كله إما خير وإما شر، وإما آيل إلى أحدهما ؛ فدخل في الخير كل مطلوب من الأقوال فرضها وندبها، فأذن فيه على اختلاف أنواعه، ودخل فيه ما يؤول إليه، وما عدا ذلك مما هو شر أو يؤول إلى الشر، فأمر عند إرادة الخوض فيه بالصمت (4).

وقال الإمام الشافعي، رحمه الله، لصاحبه الربيع: (يا ربيع، لا تتكلم فيما لا يعنيك، فإنك إذا تكلمت بالكلمة ملكتك ولم تملكها (5).

وقال أبو القاسم القُشيري، رحمه الله، في رسالته المشهورة: (الصمت سلامة وهو الأصل، والسكوت في وقته صفة الرجال؛ كما أن النطق في موضعه أشرف الخصال).

---

1. عن البحر الرائق في الزهد والرقائق، ص 63، بتصرف.
2. المراد بقوله يؤمن الإيمان الكامل، وخصه بالله واليوم الآخر إشارة إلى المبدأ والمعاد، أي من آمن بالله الذي خلقه وآمن بأنه سيجازيه بعمله فليفعل الخصال المذكورات.
3. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان وقول النبي ﷺ من كان.
4. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، ج 10، ص 446.
5. الأذكار للنووي، ص265.

والتوجيه النبوي بترك ما لا يعني المرء إلى ما يعنيه، ينسجم تماماً مع الأمر الإلهي، الوارد في قوله تعالى: {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً}.(1)

وأمره في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً}.(2)

وأمره سبحانه في قوله تعالى: {وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً}.(3)

كيف لا؟! والألسنة مجندة للشهادة على صاحبها يوم الدين، مصداقاً لقوله تعالى: {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.(4)

فالإسلام يقتضي من المسلم أن يركز اهتمامه في الأمر النافع، الذي ترجى منه الفوائد، وتلك غاية حري بالمسلم أن يحرص على تحقيقها، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ: "...احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَلا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ؛ فَلا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ".(5)

وفي مقابل جعل ترك المرء لما لا يعنيه علامة من علامات حسن إسلامه، فإن الخوض في فضول القول من علامات الأزمنة التي تتراجع فيها أسهم الخير، فعن عِمْرَان بْنَ حُصَيْنٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ" قَالَ عِمْرَانُ: لا أَدْرِي أَذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدُ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلاثَةً، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَخُونُونَ وَلا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَشْهَدُونَ وَلا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَنْذِرُونَ وَلا يَفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمْ السِّمَنُ".(6)

---

1. الإسراء: 36.
2. الأحزاب: 70.
3. الإسراء: 53.
4. النور: 24.
5. صحيح مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض.
6. صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد.

ومن وصايا الرسول ﷺ وتوجيهاته في هذا المجال، ما ورد في سنن الترمذي من رواية عُقْبَة ابْنِ عَامِرٍ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ مَا النَّجَاةُ؟ قَالَ: "أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ".(1)

فلسانك حصانك، إن صنته صانك، وإن أهنته أهانك، وقد استهجن بعض الصحابة من خطورة مكانة اللسان، ففي حديث معاذ بن جبل الوارد في سنن ابن ماجه قول الرسول ﷺ له: "أَلا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ؛ الْجِهَادُ، ثُمَّ قَالَ: أَلا أُخْبِرُكَ بِمِلاكِ (2) ذَلِكَ كُلِّهِ؟ قُلْتُ: بَلَى، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، فَقَالَ: تَكُفُّ عَلَيْكَ هَذَا. (3) قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ؛ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟! قَالَ: ثَكِلَتْكَ (4) أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يُكِبُّ(5) النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي النَّارِ إِلا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ (6)".(7)

ويمضي رسولنا الأسوة ﷺ في التحذير من آفات اللسان التي قد يجر إليها فضول الكلام، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لا يُلْقِي لَهَا بَالاً(8) يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لا يُلْقِي لَهَا بَالاً يَهْوِي(9) بِهَا فِي جَهَنَّمَ".(10)

قال ابن حجر: قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: هي الكلمة التي لا يعرف القائل حسنها من قبحها، فيحرم على الإنسان أن يتكلم بما لا يعرف حسنه من قبحه.

---

1. سنن الترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله، باب ما جاء في حفظ اللسان، وصححه الألباني.
2. الْمِلاك بِكَسْرِ الْمِيم وَفَتْحهَا لُغَة، وَالرِّوَايَة الْكَسْر، أَيْ بِمَا بِهِ يَمْلِك الإِنْسَان ذَلِكَ كُلّه بِحَيْثُ يَسْهُل عَلَيْهِ جَمِيع مَا ذُكِرَ.
3. أَيْ تَحْرُس وَتَحْفَظ.
4. بِكَسْرِ الْكَاف، أَيْ فَقَدَتْك، وَهُوَ دُعَاء عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ ظَاهِر، أَوْ الْمَقْصُود التَّعَجُّب مِنْ الْغَفْلَة عَنْ مِثْل هَذَا الأَمْر.
5. بِفَتْحِ الْيَاء وَضَمّ الْكَاف وَتَشْدِيد الْبَاء مِنْ كَبَّهُ إِذَا صَرَعَهُ.
6. بِمَعْنَى مَحْصُودَاتهمْ، عَلَى تَشْبِيه مَا يَتَكَلَّم بِهِ الإِنْسَان بِالزَّرْعِ الْمَحْصُود بِالْمِنْجَلِ، فَكَمَا أَنَّ الْمِنْجَل يَقْطَع مِنْ غَيْر تَمْيِيز بَيْن رَطْب وَيَابِس وَجَيِّد وَرَدِيء، كَذَلِكَ لِسَان الْمِكْثَار فِي الْكَلام يَكُلّ فَنٌّ مِنْ الْكَلام مِنْ غَيْر تَمْيِيز بَيْن مَا يَحْسُن وَمَا يَقْبُح.
7. سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، وصححه الألباني.
8. أَيْ لا يَتَأَمَّلُهَا بِخَاطِرِهِ، وَلا يَتَفَكَّر فِي عَاقِبَتهَا، وَلا يَظُنّ أَنَّهَا تُؤَثِّر شَيْئاً، وَقَالَ فِي السَّخَط مِثْل ذَلِكَ.
9. يَنْزِل فِيهَا سَاقِطاً. وَأَخْرَجَ التِّرْمِذِيّ هَذَا الْحَدِيث مِنْ طَرِيق آخر بِلَفْظِ "لا يَرَى بِهَا بَأْسًا يَهْوِي بِهَا فِي النَّار سَبْعِينَ خَرِيفاً".
10. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان وقول النبي ﷺ من كان.

وقال النووي: في هذا الحديث حث على حفظ اللسان، فينبغي لمن أراد أن ينطق أن يتدبر ما يقول قبل أن ينطق، فإن ظهرت فيه مصلحة تكلم وإلا أمسك.(1)

ويذكر صاحب البحر الرائق في الزهد والرقائق هنا قول عبد الله بن مسعود: والله الذي لا إله إلا هو ليس شيء أحوج إلى طول سجن من لساني. وقوله: يا لسان قل خيراً تغنم، واسكت عن شر تسلم من قبل أن تندم.

ويذكر عن أبي الدرداء، قال: أنصف أذنيك من فيك، وإنما جُعِلَ لك أذنان وفم واحد، لتسمع أكثر مما تتكلم.

وعن الحسن البصري، قال: كانوا يقولون: "إن لسان المؤمن وراء قلبه، فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه ثم أمضاه، وإن لسان المنافق أمام قلبه، فإذا همَّ بشيء أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه".

ويعقب صاحب البحر الرائق على هذه الأقوال والآثار، فيقول: إن الفضل الكبير للصمت يعود إلى كثرة آفات اللسان من الخطأ، والكذب، والغيبة، والنميمة، والرياء، والنفاق، والفحش، والمراء، وتزكية النفس والخوض في الباطل، والخصومة، والفضل، والتحريف، والزيادة، والنقصان، وإيذاء الخلق وهتك العورات، فهذه آفات كثيرة، وهي سياقة إلى اللسان لا تثقل عليه، ولها حلاوة في القلب، وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان، والخائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان، فيطلقه بما يحب، ويكفه عما لا يحب، فإن ذلك من غوامض العلم، ففي الخوض خطر، وفي الصمت سلامة، فلذلك عظمت فضيلته، مع ما فيه – أي الصمت– من جمع الهمم ودوام الوقار والفراغ للفكر والذكر والعبادة والسلامة من تبعات القول في الدنيا، ومن حسابه في الآخرة(2)، قال تعالى: {مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}.(3)

1. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، ج 11، ص 311.
2. البحر الرائق في الزهد والرقائق، ص 61-62.
3. ق: 18.

ومن أقبح الكلام الذي يهوي بصاحبه في النار، ذلك الذي ينال فيه صاحبه من أعراض الناس، وحقوقهم، وكرامتهم، وفي صحيح الحديث بين الرسول ﷺ، أن من سمات المسلم أن يسلم الناس من شر لسانه، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: "الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ".(1)

وقد ورد في فتح الباري بشرح صحيح البخاري، عند شرح هذا الحديث، "احتمال أَنْ يَكُون الْمُرَاد بِذَلِكَ: أَنْ يُبيِّن عَلامَة الْمُسْلِم الَّتِي يُسْتَدَلّ بِهَا عَلَى إِسْلامه، وَهِيَ سَلامَة الْمُسْلِمِينَ مِنْ لِسَانه وَيَده، كَمَا ذُكِرَ مِثْله فِي عَلامَة الْمُنَافِق. وَيُحْتَمَل أَنْ يَكُون الْمُرَاد بِذَلِكَ الإِشَارَة إِلَى الْحَثّ عَلَى حُسْن مُعَامَلَة الْعَبْد مَعَ رَبّه، لأَنَّهُ إِذَا أَحْسَنَ مُعَامَلَة إِخْوَانه فَأَوْلَى أَنْ يُحْسِن مُعَامَلَة رَبّه، مِنْ بَاب التَّنْبِيه بِالأَدْنَى عَلَى الأَعْلَى، و ينبه إلى أن ذِكْر الْمُسْلِمِينَ هُنَا خَرَجَ مَخْرَج الْغَالِب؛ لأَنَّ مُحَافَظَة الْمُسْلِم عَلَى كَفّ الأَذَى عَنْ أَخِيهِ الْمُسْلِم أَشَدّ تَأْكِيدًا؛ وَلأَنَّ الْكُفَّار بِصَدَدِ أَنْ يُقَاتِلُوا، وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ يُحِبّ الْكَفّ عَنْهُ. وَالإِتْيَان بِجَمْعِ التَّذْكِير لِلتَّغْلِيبِ، فَإِنَّ الْمُسْلِمَات يَدْخُلْنَ فِي ذَلِكَ، وَخَصَّ اللِّسَان بِالذِّكْرِ لأَنَّهُ الْمُعَبِّر عَمَّا فِي النَّفْس، وَهَكَذَا الْيَد لأَنَّ أَكْثَر الأَفْعَال بِهَا، وَالْحَدِيث عَامّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى اللِّسَان دُون الْيَد؛ لأَنَّ اللِّسَان يُمْكِنهُ الْقَوْل فِي الْمَاضِينَ وَالْمَوْجُودِينَ وَالْحَادِثِينَ بَعْد، بِخِلافِ الْيَد، نَعَمْ، يُمْكِن أَنْ تُشَارِك اللِّسَان فِي ذَلِكَ بِالْكِتَابَةِ، وَإِنَّ أَثَرهَا فِي ذَلِكَ لَعَظِيم، وَيُسْتَثْنَى مِنْ ذَلِكَ شَرْعًا تَعَاطِي الضَّرْب بِالْيَدِ فِي إِقَامَة الْحُدُود وَالتَّعَازِير عَلَى الْمُسْلِم الْمُسْتَحِقّ لِذَلِكَ، وَفِي التَّعْبِير بِاللِّسَانِ دُون الْقَوْل نُكْتَة، فَيَدْخُل فِيهِ مَنْ أَخْرَجَ لِسَانه عَلَى سَبِيل الاسْتِهْزَاء، وَفِي ذِكْر الْيَد دُون غَيْرهَا مِنْ الْجَوَارِح نُكْتَة، فَيَدْخُل فِيهَا الْيَد الْمَعْنَوِيَّة كَالاسْتِيلاءِ عَلَى حَقّ الْغَيْر بِغَيْرِ حَقّ".(2)

هدانا الله للقول السديد، والعمل النافع، لنفوز بخير الدين والدنيا، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، رسول الرحمة، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

---

1. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.

2. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، ج 1، ص 53-54.

لقد حرص النبي ﷺ على إشاعة روح المحبة بين المسلمين، والمحافظة على مجتمع إسلامي نظيف، بعيد عن الغيبة والنميمة وفحش القول، وتتبع عورات المسلمين، فجاء نهيه، عليه الصلاة والسلام، صريحًا زاجراً للمتتبعين لعورات المسلمين بقوله: "يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلْ الإِيمَانُ قَلْبَهُ؛ لا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ؛ يَتَّبِعُ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعْ اللَّهُ عَوْرَتَهُ؛ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ".[1]

فمن مقتضيات الإيمان وآداب الإسلام، أن يبتعد المسلم عن كل ما يؤذي المسلمين بالقول أو الفعل، أو التحريض بإيذائهم، لأن حرمة المسلم عند الله عظيمة، وقد ثبت عن الصحابي الجليل عبد الله بن عمر، رضي الله عنه، أنه قال: "رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ؛ وَيَقُولُ: مَا أَطْيَبَكِ، وَأَطْيَبَ رِيحَكِ، مَا أَعْظَمَكِ، وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ؛ لَحُرْمَةُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ حُرْمَةً مِنْكِ، مَالِهِ وَدَمِهِ، وَأَنْ نَظُنَّ بِهِ إِلا خَيْرًا".[2]

فإذا كانت الكعبة المشرفة لها كل هذه المكانة العظيمة عند الله تعالى من حيث الحرمة، بل لقد أطلق عليها بيت الله الحرام، ومن دخلها حاز على الأمن والأمان، قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ }[3]، وقال تعالى:{وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً }.[4]

كما أن مكة المكرمة بلد البيت الحرام هي حرم آمن إلى يوم القيامة، ومعلوم أن ثواب الأعمال يتضاعف في البيت الحرام إلى مائة ضعف، وغير ذلك من الفضائل، ومع هذا كله تبقى حرمة المسلم أعظم عند الله من البيت الحرام.

---

1. سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في الغيبة، وقال الألباني: حسن صحيح.
2. سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب حرمة دم المؤمن وماله، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، حديث رقم 3420.
3. العنكبوت: 67.
4. آل عمران: 97.

فلا يجوز إيذاء المسلم، ولا تتبع عوراته، فكيف بمن يتعمد هذا الإيذاء، لا بل يجعل شغله الشاغل إيذاء المسلمين وكشف عوراتهم، وبيان مثالبهم، وكشف سترهم، وفضح أسرارهم، وفي حديث المصطفى ﷺ، بيان واضح لأحوال الإيمان والإسلام، فقد ينطق الإنسان بالشهادتين، وهما شعار الإسلام، وأول علامات الدخول إلى الإيمان، وبهذا يكون مسلماً يعصم دمه وماله إلا بحقه.

إلا أن الإيمان منزلة أعظم ومكانة أكبر، وهو رسوخ هذا اليقين، وهذا الدين في القلب، وهو ما يعرف بدرجة الإيمان، وهو كما عرفه علماء التوحيد: ما وقر في القلب، وأقر به اللسان وصدقته الجوارح بالأعمال.

كما تحدثوا عن زيادة الإيمان ونقصه، وفي قوله تعالى تفريق واضح بين النطق باللسان والإقرار في القلب والجنان، قال تعالى: {قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }.([1])

فالإيمان يردع صاحبه إذا تمكن في قلبه من إيذاء المؤمنين وكشف عورات المسلمين وتتبع معايبهم ومثالبهم، حتى ولو اطلع عليها انطلاقاً من المحافظة على أعراض المسلمين في مجتمع نظيف تسوده المحبة والألفة والأخوة الإيمانية، لحديث رسول الله ﷺ: "الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ، وَلا يَخْذُلُهُ، وَلا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنْ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ؛ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ".([2])

وهذا ما رأيناه في مجتمع المسلمين وإخوة المؤمنين، الذين رباهم رسول الله ﷺ، على الإسلام والإيمان والتقوى والأخلاق الفاضلة والقيم النبيلة، ومن جاء بعدهم من السلف الصالح من التابعين وتابعيهم بإحسان، ممن أرسوا قواعد الحياة الإسلامية والأخلاق الإيمانية في حياة المسلمين على امتداد تاريخهم وحضارتهم، يوم اتخذوا الإسلام منهج حياة، وطريق عزة لم يتنكبوها، أو يحيدوا عن هديها وتعاليمها، فكانوا قادة الحضارة، وأساتذة العالم بعلمهم وأخلاقهم

1. الحجرات: 14.

2. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله.

وبرحمتهم للناس، فقد أسلمت شعوب كثيرة لما رأت أخلاق المسلمين وحسن معاملتهم لغيرهم من الناس، ففتح المسلمون ديارا كثيرة بحسن إيمانهم، وكرم أخلاقهم، وعدالتهم بين الناس، فكانوا دعاة بألسنتهم، وأسوة بأخلاقهم، ومثالاً يحتذى في لين جانبهم، مما فتح مغاليق القلوب، فسار الناس في ركب هذا الدين زرافات ووحدانا.

ولم تقف رحمة المسلمين عند الإنسان فقط، بل تعدته إلى الشجر والحيوان، فالرسول ﷺ يقول:" دَخَلَتْ امْرَأَةُ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا، فَلَمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ"([1])، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: "بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ؛ فَوَجَدَ بِئْرًا، فَنَزَلَ فِيهَا، فَشَرِبَ، ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ الثَّرَى مِنْ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنْ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ بِي، فَنَزَلَ الْبِئْرَ؛ فَمَلأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْراً، فَقَالَ: نَعَمْ؛ فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ".([2])

فهذا الدين العظيم جاء ليمنع الأذى عن البشرية جمعاء، فأهداها الله تعالى رحمته للعالمين رسوله الكريم، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ }([3])، ولم تقف الرحمة عند الإنسان بل شملت البشر والحيوان، فالرسول ﷺ ينهى عن إيذاء الحيوان، وعن قطع الشجر، وكذلك أصحابه، رضوان الله عليهم، من بعده.

وقد حث الإسلام على الابتعاد عن الجدال والمراء، يبدو ذلك واضحاً في قول النبي ﷺ: "أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ، وَإِنْ كَانَ مَازِحاً، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ".([4])

1. صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه.
2. صحيح مسلم، كتاب السلام، باب فضل سقي البهائم المحترمة وإطعامها.
3. الأنبياء: 107.
4. سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في حسن الخلق، وحسنه الألباني.

وإن كان لا بدَّ من الجدال في مسألة من المسائل كالرد على أصحاب الأهواء والبدع، فلا بدَّ من الأخذ بالتي هي أحسن، لقوله تعالى: {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}.[1]

وهذا ما حرص عليه المسلمون، فقد كانت غايتهم هي ظهور الحق، ولا يبالي أحدهم أظهر الحق على لسانه أم على لسان غيره، فلم يكن قصدهم المراء أو الجدال انتصاراً لأنفسهم، بل لإظهار الحق، وحيثما كان الحق كانوا أتباعه، فهذا الإمام الشافعي، رحمه الله، يقول:" ما ناظرني أحد، فباليت أظهرت الحجة على لسانه أو على لساني".

أما من يستهويهم القدح، والذم، والخوض في أعراض المسلمين والتشهير بهم، وتتبع عوراتهم لمجرد خلاف في الرأي، أو عدم تحزبهم بأحزابهم، أو الالتحاق بجماعاتهم، فنسأل الله لهم التوبة والرشاد، وأن يهديهم إلى سواء السبيل، ليكونوا في صف المؤمنين، بعيداً عن صف من يتتبعون عورات المسلمين، فيفضي بهم هذا العمل إلى فضيحة الله لهم جزاء إصرارهم على هذا العمل المشين، فقد اقتضى العدل الإلهي أن يكون الجزاء من جنس العمل.

فنسأل الله تعالى أن يشملنا بلطفه ورحمته، وأن يتجاوز عن سيئاتنا، وأن يسترنا بستره الجميل في الدنيا والآخرة، وأن يجعلنا من عباده الصالحين الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات، وأن يكرمنا بفوزٍ في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

وأن يجعل ضمن مهمتنا في الدنيا الذود عن أعراض المسلمين وستر عوراتهم، وعدم إيذائهم عملاً بقول رسولنا الأسوة ﷺ "مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا؛ نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ؛ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ"[2]، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

---

1. النحل: 125.

2. صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر.

لما كان القضاء بين المتخاصمين يهدف إلى إزالة النزاع، وإنهاء الخصومة، وإيصال صاحب الحق إلى حقه، وتمكينه منه، فقد حرص النبي ﷺ، على حث المتخاصمين إلى تحري الصدق وعدم الفجور في الحجة، بأساليب بلاغية تزين للسامع بأن الحق مع صاحب هذا البيان البليغ، علماً بأن الواقع يخالف ذلك ويغايره، وإنما أراد صاحب هذا البيان، وهذه البلاغة أن يأخذ حقوق الآخرين بقوة حجته، وفصاحة لسانه، وقوة بيانه، الذي يقلب الحق باطلاً، ويصور الباطل حقاً وواقعاً.

لذا جاء نهي النبي ﷺ عن مثل هذه الأساليب؛ حتى يكون الأمر واضحاً أمام القاضي، الذي يتحرى الصواب، والدقة، والحق من بينات الخصوم؛ ليصل إلى الحكم والفصل بينهم، وفق هذه البينات، مع تحري الصواب في الحكم لإنصاف صاحب الحق وفق حجته وبيناته.

فقد روت أم سلمة زوج النبي ﷺ "سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ جَلَبَةَ خِصَامٍ عِنْدَ بَابِهِ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الْخَصْمُ، فَلَعَلَّ بَعْضًا أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ، أَقْضِي لَهُ بِذَلِكَ، وَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَادِقٌ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ، فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ، فَلْيَأْخُذْهَا، أَوْ لِيَدَعْهَا".([1])

وفي رواية أخرى "رَجُلَانِ يَخْتَصِمَانِ فِي مَوَارِيثَ لَهُمَا لَمْ تَكُنْ لَهُمَا بَيِّنَةٌ إلا دَعْوَاهُمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: فَذَكَرَ مِثْلَهُ، فَبَكَى الرَّجُلَانِ، وَقَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا: حَقِّي لَكَ، فَقَالَ لَهُمَا النَّبِيُّ ﷺ: أَمَّا إِذْ فَعَلْتُمَا مَا فَعَلْتُمَا، فَاقْتَسِمَا وَتَوَخَّيَا الْحَقَّ، ثُمَّ اسْتَهِمَا، ثُمَّ تَحَالا".([2])

1. صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب القضاء في قليل المال وكثيره سواء.
2. سنن أبي داود، كتاب الأقضية، باب في قضاء القاضي إذا أخطأ.

فالرسول ﷺ يبين بهذا الهدي الشريف آداب التقاضي من حيث الحرص على بيان الحقيقة كما هي، وفق الواقع، لا وفق ما يصور المتنازع بقوة بيانه، وفصاحة لسانه، وبلاغة حجته.

كما يدعو المتخاصمين لتحري الحق وتقوى الله في أداء حجتهما وعرض بيناتهما، فالقضاء يكون على الظاهر وفق البينات، إذ إن الأمور القضائية محكومة بالبينات، وهو ما يسمى حكم القضاء، أما حكم الديانة، وهو ما يوافق الواقع والحقيقة، فإنه محكوم بالنوايا، ويستند إلى الحقيقة التي لا يتيقنها إلا المتخاصمون، وعلى هذا الحكم مدار الثواب أو العقاب عند الله تعالى في الآخرة، بينما حكم القضاء يفض المنازعات، وينهي الخلافات وفق قوة الحجة والبينات التي يدلي بها الخصوم، ويقضي وفقها القاضي بين الخصوم لإنهاء الخصومة، وإعطاء الحق لمن ترجحت بيناته لدى القاضي.

والرسول ﷺ يشير إلى مآل القضاء بقوله: "فَلَعَلَّ بَعْضًا أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ، أَقْضِي لَهُ بِذَلِكَ، وَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَادِقٌ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ، فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنْ النَّارِ، فَلْيَأْخُذْهَا، أَوْ لِيَدَعْهَا".

وأي بيان أبلغ من هذا البيان في حث المتخاصمين على تحري الحق، والبعد عن المراء، وعدم الاقتراب من حقوق الناس بغير حق، وأكل أموالهم بالباطل، حتى ما يأخذه الإنسان من خلال القضاء إن كان يعلم أن الحق ليس بجانبه، فإنما يأخذ قطعة من النار، وهو يقوم على اقتطاعها من حق أخيه بواسطة القضاء، بناء على حجته وبلاغته، بينما هو يعلم أنه ليس محقاً في هذا الطلب أو هذه الخصومة.

والرسول ﷺ يوجه القضاة في هذا الحديث إلى ضرورة إرشاد الخصوم ووعظهم وتذكيرهم بتقوى الله ومخافته، وفي هذا التذكير ما يدفعهم إلى أن يكونوا أقرب إلى بيان الحق وتحري الدقة.

ويخبرهم الرسول ﷺ أنه بشر لا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه، وبالتالي فهو يمارس القضاء وفق الظاهر والبينات، وهذا هو شأن القضاء والقضاة.

كما يوجه النبي ﷺ القضاة إلى ضرورة التأني، والنظر في بينات الخصوم، قبل الحكم في القضية، فلا يأخذ الكلام على عواهنه، وألا يصدق بمجرد القول وقوة البيان، بل لا بدَّ من التأني والتثبت إلى أن يتضح الحق، فهو ﷺ ينبه القضاة على ألا يعجلوا في البت في القضية، حتى يسمعوا ويتبينوا كل ما له صلة بالقضية، ويتمحصوا البينات القولية للطرفين.

ولا يتعجل القاضي بالحكم قبل سماع بينة الخصم الآخر، يقول النبي ﷺ لعلي، رضي الله عنه: "إِذَا جَاءَكَ الْخَصْمَانِ؛ فَلا تَقْضِ لِلأَوَّلِ، حَتَّى تَسْمَعَ مِنْ الآخَرِ، فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ يَبِينَ لَكَ الْقَضَاءُ، قَالَ: فَمَا زِلْتُ قَاضِيًا".[1]

ولذلك قيل بحق علي، كرم الله وجهه، : "ولا قضية إلا وأبا حسن لها".

هذا وإن مهمة القضاء مهمة جليلة، ومنزلة عظيمة، فمن باشرها أو تولاها، فعليه أن يتحرى بيان الحق ويقصد وجه الصواب، ويترفع عن الشبهات، ويبتعد عن مواطن الريبة، وينصح الخصوم، ويذكرهم بثواب الله وعقابه، ويساوي بين الخصوم في المجلس والخطاب، ولا يقضي وهو غضبان أو جائع أو يعتريه ما يكدر صفاء ذهنه.

كما على المتخاصمين أن يدركوا أن حكم القاضي لا يحل حراماً أو يحرم حلالاً، بل هو قائم على البينات، وما يترجح لدى القاضي، فمن علم أنه غير محق في دعوته، أو أكل مال غيره بقوة حجته، ولو حكم له القاضي؛ فإنما يأكل حقوق الآخر بغير حق، والله يقول: {وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ

1. مسند أحمد، مسند العشرة المبشرين بالجنة، ومن مسند علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال شعيب الأرناؤوط: حسن بغيره.

النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}.[1]

والرسول ﷺ يقول: "مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَإِنْ كَانَ شَيْئاً يَسِيراً يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: وَإِنْ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ[2]".[3]

فلنحرص إخوة الإيمان على تحري الحق، وتجنب الباطل في الخصومات والمنازعات، ولتكن تقوى الله ومخافته هي رائد الجميع إلى الخير، وبهذا تسود المحبة أفراد المجتمع، وينتشر الخير، ويصل الناس إلى حقوقهم، بيسر وأمان وأمانة في الوقت الذي يقيمون فيه وازع الرقابة الإيمانية الداخلية في نفوسهم، ويعملون وفق ذلك في تصرفاتهم جميعها.

جعلنا الله ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، هداة مهديين، نقتدي بسنة أسوتنا وقدوتنا رسول الله، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم، واتبع سنتهم، إلى يوم الدين.

---

1. البقرة: 188.

2. قضيب الأراك: هو عود السواك.

3. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار.

الرسول، عليه الصلاة والسلام تعرض للكروب والشدائد، وكان يواجهها بالصبر والشجاعة والتقرب إلى الله بالمزيد من الطاعة واليقين بالفرج، وفي حديث للصحابي الجليل حبر الأمة وترجمان القرآن وابن عم الرسول ﷺ عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، يروي أن الرسول ﷺ كَانَ يتقرب إلى الله بالذكر والدعاء، وإذا حَزَبَهُ ([1]) أَمْر يتوجه إلى الله عز وجل بالدعاء([2])، ومعلوم أن الحديث النبوي هو ما أضيف إلى الرسول ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة، وهو هنا يتعلق بفعل الرسول حين كانت تواجهه الخطوب والأمور الشديدة، ويروي ابْنُ عَبَّاسٍ في حديث صحيح آخر، أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ الْكَرْبِ: "لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ، وَرَبُّ الأَرْضِ، وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ".([3])

وذكر النووي عند شرح هذا الحديث، أن الطَّبَرِيُّ قَالَ: كَانَ السَّلَف يَدْعُونَ بِهِ، وَيُسَمُّونَهُ دُعَاء الْكَرْب، وبالنسبة إلى إطلاق مسمى الدعاء على هذا الذكر، يجيب بأن هَذَا الذِّكْر يُسْتَفْتَح بِهِ الدُّعَاء، ثُمَّ يَدْعُو بِمَا شَاءَ.([4]) وهو ذكر يعبر عن اللجوء إلى المليك المقتدر الذي إذا شاء أمراً جاء كما أراد سبحانه.

ويقتضي إيمان المرء أن لا يغفل عن متطلبات استجابة الدعاء، التي منها أن يجعل معه العمل والسعي، فنحن نعبد الله ونستعينه، ونوقن أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، لكنها قد تمطر حجارة من سجيل، لتهلك الظالمين، كما حصل مع أبرهة، ومع غيره من الغابرين.

1. أَيْ : نَابَهُ وَأَلَمَّ بِهِ أَمْر شَدِيد.
2. صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب دعاء الكرب.
3. صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب دعاء الكرب.
4. صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب دعاء الكرب، باب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، ج9، ص 42.

ومن متطلبات استجابة الدعاء كذلك أن يحرص المتوجه إلى الله بالعمل والدعاء على الاستقامة وإخلاص النية، والتزام الخضوع المطلق لله في الشأن كله، ظاهره وباطنه، حتى تحفه الرحمة الربانية، ويتنزل عليه مدد السماء، وينعم بتفريج الكرب، وأجر الصبر على الشدائد والمحن.

ولا يظن أحد أن اللجوء إلى الذكر والدعاء عند النوازل والكرب والشدائد يعبر عن عجز واستكانة للظروف القاهرة، وإنما الأمر مختلف كلياً، إذ إن المؤمن حين يلجأ إلى الله إنما يستند إلى أعظم قوة وإرادة، فالله أكبر من كل كبير، وأعظم من أي عظيم، وإن تكرار ذكر التكبير الوارد في الأذان للصلوات التي يؤديها المسلم في الأوقات الخمس من كل يوم، إضافة إلى استخدام التكبير في الصلوات وفي الذكر الوارد عقبها، وفي غير ذلك من الأوقات والأحوال، لم يكن دون مغزى أو هدف، فإن من غاياته أن يبقى المسلم ذاكراً بأن الله هو الأكبر، وأن يبقى في وجدانه ويقينه وإيمانه أنه يدعو الأكبر، ويلجأ إلى الأكبر، الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، وأن يعبر عن ذلك كله برفق وإيمان، عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: "كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزَاةٍ، فَجَعَلْنَا لا نَصْعَدُ شَرَفًا، وَلا نَعْلُو شَرَفًا، وَلا نَهْبِطُ فِي وَادٍ، إلا رَفَعْنَا أَصْوَاتَنَا بِالتَّكْبِيرِ، قَالَ: فَدَنَا مِنَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ؛ ارْبَعُوا[1] عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لا تَدْعُونَ[2] أَصَمَّ وَلا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا. ثُمَّ قَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ ! أَلا أُعَلِّمُكَ كَلِمَةً هِيَ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ[3] لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلا بِاللَّهِ".[4]

1. رَبَعَ الرَّجُل يَرْبَع إِذَا رَفَقَ وَكَفَّ.
2. أَطْلَقَ عَلَى التَّكْبِير وَنَحْوِه دُعَاءً مِنْ جِهَة أَنَّهُ بِمَعْنَى النِّدَاء لِكَوْنِ الذَّاكِر يُرِيد إِسْمَاع مَنْ ذَكَرَهُ وَالشَّهَادَة لَهُ.
3. أَنَّهَا مِنْ ذَخَائِر الْجَنَّة أَوْ مُحَصِّلات نَفَائِس الْجَنَّة، قَالَ النَّوَوِيّ: الْمَعْنَى أَنَّ قَوْلَهَا يُحَصِّل ثَوَابًا نَفِيسًا يُدَّخَر لِصَاحِبِهِ فِي الْجَنَّة.
4. صحيح البخاري، كتاب القدر، باب لا حول ولا قوة إلا بالله. وورد في فتح الباري بشرح صحيح البخاري، قَالَ اِبْن بَطَّال: كَانَ عَلَيْهِ السَّلام، مُعَلِّمًا لأُمَّتِهِ، فَلا يَرَاهُمْ عَلَى حَالَة مِنْ الْخَيْر، إلا أَحَبَّ لَهُمْ الزِّيَادَة، فَنَدَبَ لِلَّذِينَ رَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِكَلِمَةِ الإِخْلاص وَالتَّكْبِير أَنْ يُضِيفُوا إِلَيْهَا التَّبَرِّي مِنْ الْحَوْل وَالْقُوَّة، فَيَجْمَعُوا بَيْن التَّوْحِيد وَالإِيمَان بِالْقَدَرِ.

فالدعاء والذكر بناء على ذلك لا يعبران بالضرورة عن حالة عجز في مواجهة الخلق، وإن كان بعض الناس يخدع بظاهر الصورة التي يراها توحي بذلك، بل هو يعبر عن طلب العون من الله الذي يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، وهو على كل شيء قدير.

فلا مناص أمام الخلق إلا التوجه إلى الخالق سبحانه وتعالى، في كل أحوالهم، وبخاصة في ساعات الشدة، والله تعالى يقرر هذه الحقيقة، فيقول سبحانه: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ...}.([1])

ويقول سبحانه: {...قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ}.([2])

وحري بالمسلمين في أقطار الدنيا، وفي أرض الإسراء والمعراج خاصة وهم يعيشون محنة الاحتلال والاضطهاد، وتهديد وجودهم ومقدساتهم، وبخاصة المسجد الأقصى المبارك، المستهدف بالكيد والمكر والنيل من قدسيته، والحيلولة دونه ودون رواده الذين يشدون الرحال إليه تقرباً إلى الله، وحباً لموطئ أقدام رسولهم ﷺ الذي أسري به إليه، وعرج منه إلى السماوات العلا، وهم ينعمون بالبركة التي عم الله بها محيطه وأكنافه، حري بهم أن يتلمسوا الهدى من منهج رسولهم الأسوة ﷺ خير مرشد لكيفية التصرف، وأخذ المواقف عند الكرب، فكان، صلوات الله وسلامه عليه يأخذ بالأسباب الممكنة، ويعد العدة المستطاعة، ويلتزم طاعة الله، ويدعوه ملحاً في طلبه، موقناً بالإجابة، ومن ثم يرضى بما ييسره الله، دون تأفف أو استعجال للإجابة، فإن حصل المرغوب شكر الله عليه، وإن تأخر أيقن أن لله حكمة قد تخفى على الناس بصفتهم البشرية محدودة العلم بالغيب، الذي لا يعلمون منه إلا ما أوحى الله به إليهم، في ضوء قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ }.([3])

---

1. الإسراء: 67.
2. الزمر: 38.
3. الشورى: 51.

وها هم أهل أرض الرباط، يتهددهم الاقتلاع، ويلحق بهم الأذى، ولم تتحسن ظروفهم في واقعهم الحياتي والسياسي في ذكرى يوم الأرض عن الحال التي كانوا عليها مع الاحتلال وقت أن وقعت أحداث يوم الأرض المشهودة عام 1976م، أي قبل أربعة وثلاثين عاماً، فالسلب ماض للأرض، وتضييق الخناق يشتد على المرابطين من كل حدب وصوب، وهم صامدون صابرون مرابطون، قابضون على الجمر، وبات في حكم الواضح لذوي البصيرة أن لا خلاص لهم إلا بالمحافظة على عهدهم مع الله، في صبرهم، ومرابطتهم، وأملهم ويقينهم بنصره، ومدده سبحانه، أسوتهم رسولهم ﷺ وصحبه الكرام، الذين لم تنحرف بوصلتهم عن التوجه إلى الله في كل أحوالهم، حتى أتاهم اليقين وهم على ذلك يحافظون، وقد وصف الله حالهم في واقعة سميت بالأحزاب، وأطلق على سورة قرآنية هذا الاسم نسبة إليها، لأنها تضمنت ذكرها، ووصفت حالهم حين اشتد الخناق عليهم فيها، لما حاصرهم الأحزاب من كل مكان، فقال تعالى: {إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا}.([1])

وقد عبر المؤمنون الصادقون عن موقفهم الإيماني خلال محاصرتهم الظالمة من قبل الأحزاب، فقالوا بألسنتهم ما ينسجم مع المكنونات الإيمانية الراسخة في قلوبهم، وحفظ لهم الله مقالتهم، ووصف موقفهم في قرآنه الخالد، فقال سبحانه فيه:{وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً}.([2])

وفي هذا السياق يحسن الاستشهاد ببعض مواقف الرسول ﷺ إزاء ما ينتابه والمسلمين من النوازل والشدائد، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ، وَهُوَ فِي قُبَّةٍ يَوْمَ بَدْرٍ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إِنْ تَشَأْ لا تُعْبَدْ بَعْدَ الْيَوْمِ، فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِهِ،

1. الأحزاب: 10.

2. الأحزاب: 22.

فَقَالَ: حَسْبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلْحَحْتَ عَلَى رَبِّكَ، وَهُوَ يَثِبُ فِي الدِّرْعِ، فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ:{سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ}. ([1])

وفي رواية للإمام مسلم في صحيحه، أن عَبْد اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ، نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ، وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثَلاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلاً، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلامِ لا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَادًّا يَدَيْهِ، مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ، فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ}([2]) فَأَمَدَّهُ اللَّهُ بِالْمَلائِكَةِ. ([3])

وعَنْ أَنَسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ سَرِيَّةً، يُقَالُ لَهُمْ الْقُرَّاءُ، فَأُصِيبُوا، فَمَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَجَدَ عَلَى شَيْءٍ مَا وَجَدَ عَلَيْهِمْ، فَقَنَتَ شَهْرًا فِي صَلاةِ الْفَجْرِ، وَيَقُولُ: إِنَّ عُصَيَّةَ ([4]) عَصَوْا اللَّهَ وَرَسُولَهُ".([5])

ويستوحي الرسول ﷺ نهجه الذي انطلق منه في هذه المواقف وهو يواجه الخطوب من معين الوحي الرباني، فالله تعالى يقول:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}.([6])

وهو على يقين بأن العاقبة له ولدينه وللحق الذي جاء به عن ربه، طال الزمن أو قصر، سيراً على خطى إخوانه المرسلين، فحمل لواء الدعوة التي حملوها إلى أقوامهم، ودعا وإياهم للاستعانة

---

1. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله سيهزم الجمع ويولون الدبر.
2. الأنفال: 9 .
3. صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم.
4. عُصَيَّةَ: بطن بني سليم تنسب إلى عصية بن خفاف بن سليم.
5. صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء على المشركين.
6. البقرة: 153.

بالصبر والصلاة، فأخبر تعالى عن موسى عليه السلام، فقال سبحانه: {قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}.([1])

وهي الدعوة ذاتها التي وجهها الرسول ﷺ للمؤمنين عبر الزمان والمكان الواسع، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}.(2)

وسجل الله هذا الوعد في سورة جامعة من السور القرآنية، فقال تعالى: {وَالْعَصْرِ* إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ* إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}.(3)

ولهذا كان يدعو الرسول ﷺ، فعن عَبْد اللَّهِ بْنَ أَبِي أَوْفَى، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ الَّتِي لَقِيَ فِيهَا الْعَدُوَّ انْتَظَرَ حَتَّى مَالَتْ الشَّمْسُ(4)، ثُمَّ قَامَ فِي النَّاسِ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ لا تَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلالِ السُّيُوفِ(5)، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ، وَهَازِمَ الأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ".(6)

فالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة المستشهد بها آنفاً تمثل أنموذجاً للنصوص الشرعية التي ترشد إلى ما يجب أن يكون عليه حال المؤمن، وتكون عليه أفعاله وأقواله حين يصطدم بالخطوب والمصاعب، متأسياً بالرسول ﷺ، الذي كان يواجهها بالصبر والذكر والدعاء والعمل وحسن الإعداد والتخطيط، إضافة إلى مرتكز مهم يجب أن لا يغفل عنه بحال من

---

1. الأعراف: 128.

2. البقرة: 153.

3. سورة العصر.

4. ورد في صحيح مسلم بشرح النووي، أنه جاء في غير هذا الحديث، أنه ﷺ، كان إذا لم يقاتل أول النهار انتظر حتى تزول الشمس، قال العلماء: سببه أنه أمكن للقتال فإنه وقت هبوب الريح، ونشاط النفوس، وكلما طال ازدادوا نشاطاً وإقداماً على عدوهم.

5. معناه: ثواب الله، والسبب الموصل إلى الجنة عند الضرب بالسيوف في سبيل الله، ومشي المجاهدين في سبيل الله، فاحضروا فيه بصدق واثبتوا.

6. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب لا تمنوا لقاء العدو.

الأحوال؛ والذي يتمثل بعمق اليقين بعون الله الذي قطع عهوداً للمؤمنين تضمنتها آيات الذكر الحكيم، مثل قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ}.(1)

لكن مدد الله وعونه، يتطلب حسن الطاعة والتوجه إليه سبحانه، من باب تقديم العمل المناسب للجزاء المنتظر، والله تعالى يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} (2)، وختم الله ثاني أكبر السور القرآنية بتوجيه شمل أمر المؤمنين بالصبر والمرابطة والتقوى بهدف الفلاح، فقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (3)، مما يستوجب على المسلم أن يواجه الخطوب بالجلد والصبر، وذكر الله ودعائه وطاعته، واليقين بنصره ومدده وعونه، وليس بتنكب دربه، وإعلان الحرب على دينه، أعاذنا الله من التلبس بشيء من ذلك، ووفقنا لاقتفاء أثر رسولنا الأسوة ﷺ في إيمانه ويقينه وطاعته وعبادته وذكره ودعائه وعمله وصبره وجلده وشجاعته، وصلى الله وسلم على الرسول محمد، وعلى آله الكرام، وصحبه الأخيار.

1. الحج: 38.
2. محمد: 7.
3. آل عمران: 200

لقد تعرض الرسول، عليه الصلاة والسلام، ومعه الصحابة الكرام في بداية الدعوة الإسلامية إلى أذى المشركين في محاولات يائسة من هؤلاء لثني المسلمين عن إسلامهم الذي شرح الله صدورهم له، فاستعذبوا في سبيل ذلك كل المتاعب والصعاب، لا يثنيهم عن إيمانهم الأذى الذي لحق بهم من كفار مكة، الذين نشطوا في محاربة هذا الدين وأتباعه، وجعلوا غايتهم القضاء على هؤلاء المؤمنين، وإطفاء هذا النور المبين الذي أضاء بطحاء مكة، كما أشرق نوراً في القلوب والنفوس التي ملت الأصنام والأوثان، وأيقنت أنها لا تضر ولا تنفع، وأن الهدى والخير يكمن في هذه الدعوة الإيمانية التي توافق الفطرة السوية، وتستجيب لأشواق الروح والجسد معاً في توازن محكم، وتهذيب رفيع يخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ويهديهم إلى صراط مستقيم.

وهذا ما استقر في النفوس الكبيرة لأصحاب النبي ﷺ الذين اتبعوه في ساعات العسرة والشدة في بدايات الدعوة الإسلامية، غير مبالين بما يصيبهم من أذى المشركين وعنت الكفار، ولو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم.

وحينما يتوجه الصحابة الكرام في هذا الجو المشحون بالأذى والمحاط بمكر المشركين إلى النبي ﷺ، طالبين دعاءه وتوسله إلى الله تعالى أن يعجل بنصرة المسلمين للخلاص من كل الشدائد التي تحاصرهم وتحيط بهم، يأتي جواب النبي ﷺ قاطعاً بأن النصر لهذا الدين كائن، رغم ما تشهده المرحلة من أذى وضيق واضطهاد، ولكن هذه سنة الله تعالى في ابتلاء الرسل وأتباعهم في بدايات الدعوة لحكمة يريدها الله جل جلاله لهؤلاء الأتباع، الذين يثيبهم الله عز وجل على صبرهم الثواب الجزيل والأجر الكبير، ويمن عليهم بنصره المبين، الذي كان في الدعوة الإسلامية في بضع سنين بعد الهجرة النبوية الشريفة.

فقد روى خباب بن الأرت، رضي الله عنه، قال: "شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ، فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لا يَخَافُ إِلا اللَّهَ أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ".(1)

فقد بين النبي، عليه الصلاة والسلام، لصحابته الكرام في هذا الهدي الشريف ما كان يلاقيه أصحاب الدعوة الإيمانية من الأذى والعذاب والاضطهاد على أيدي الكفر وأهله، فليسوا هم وحدهم من يتعرضون للأذى جراء إيمانهم واتباعهم للحق الذي جاء به النبي، عليه الصلاة والسلام، ولكنها سنة الله في الرسل وأتباعهم جميعاً، {وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً}.(2)

لا بل إن الأذى الذي يتعرض له الصحابة، رضوان الله عليهم، على أيدي كفار مكة، لم يصل إلى درجات الأذى الذي تعرض له أتباع الرسل السابقين، فقد صبر أولئك الأتباع على الأذى الذي كان يقود كثيراً منهم إلى الشهادة والموت تحت وطأة العذاب، ولا يثنيهم ذلك، أو يردهم، عن دينهم.

وهكذا هم أهل الإيمان؛ يلاقون ما يلاقون من العذاب والاضطهاد، خاصة في بدايات الدعوة، ويسقط في هذه المسيرة الإيمانية الشهداء، وتستمر المسيرة إلى غايتها بكل صبر وثبات وإيمان، منتصرة مظفرة، ولن تضيع التضحيات الجسام التي يقدمها أتباع الحق وأنصار الرسل خلال هذه المسيرة، فالله تعالى لن يترهم أعمالهم، كما أنه لن يضيع إيمانهم، فهو يقول: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً}(3)، فهذه الفترة

1. صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام.
2. الأحزاب: 62.
3. النور: 55.

القصيرة من الابتلاء في حياة أتباع الرسل الكرام، رغم قسوتها وشدتها، سرعان ما تنكشف، وقد ضاعف الله ثواب الصابرين فيها، وأجزل عطاءهم لصبرهم في ذات الله، وفي سبيل دعوته انتصاراً للحق، وإيماناً بالرسول والرسالة التي جاء بها من عند الله تعالى.

وفي هذا الموقف الحرج الذي يشكو فيه الصحابة، رضوان الله عليهم، إلى الرسول ﷺ ما لحقهم من الأذى، ويطلبون منه الدعاء والاستنصار بالله جل وعلا يأتي الجواب القاطع والقول الفصل بأن هذه المرحلة على شدتها وقسوتها زائلة، وأن النصر آت بعدها بإذن الله وتقديره، يبدو ذلك واضحاً في قوله، عليه الصلاة والسلام: "وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ؛ لا يَخَافُ إِلا اللَّهَ أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ ".

وقد كان ذلك، فلم يغادر رسول الله ﷺ هذه الدنيا حتى فتح الله عليه جزيرة العرب، ودانت له قبائلها، وأقام دولة الإسلام الأولى في المدينة المنورة التي عاد منها إلى مكة المكرمة، ليعلن للدنيا بأسرها أن الكعبة -البيت الحرام- أصبحت مسجداً ترتفع من فوقه كلمة التوحيد والدعوة للصلاة إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

ويبشر الرسول ﷺ أصحابه في ساعات الشدة التي كانت تعترضهم بالأمل العريض والنصر المبين، باثاً في نفوسهم الإيمان، والنظر إلى الغد المشرق بالخير والنصر، فاستمع إليه أخا الإسلام يوم الخندق يوم تجمعت الأحزاب تحاصر المدينة المنورة، وبلغت القلوب الحناجر، يبشر المؤمنين، ويبث فيهم روح النصر والأمل قائلاً: "إِنِّي لأَرْجُو أَنْ أَطُوفَ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ، وَآخُذَ الْمِفْتَاحَ، وَلَيُهْلِكَنَّ اللّهُ كِسْرَى وَقَيْصَرَ، وَلَتُنْفَقَنَّ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ".([1])

وقد كان ذلك في العهد الإسلامي المبكر على يد خلفائه الراشدين من الأصحاب الكرام رضي الله عنهم، فقد فتح الله عليهم ديار كسرى وقيصر، وكانت كنوزهما غنيمة للمسلمين الصابرين، الذين نصروا الله فنصرهم، وصدقوا الله فصدقهم.

فحري بأمة الإسلام اليوم أن تقتفي أثر السلف الصالح، وتخلص النيات لله في أقوالها وأعمالها، وتسير على نهج الذين سبقوا، حتى تخرج من هذه الشدائد التي تحيط بها إحاطة

1. المغازي، للواقدي، ج1، ص393.

السوار بالمعصم، {وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }[1]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ}.[2]

وجدير بنا أهل ديار الإسراء والمعراج أن نجعل من هدي المصطفى ﷺ نبراساً نسير عليه في حياتنا وثباتنا بمواجهة هذه الشدائد والمكائد، التي يدبرها المحتل لهذه الديار المباركة، طمعاً منه في فرض باطله لإطفاء شعلة الحق، ونور الهدى في هذه الديار، التي باركها الله وقرر إسلاميتها في كتابه العزيز، وجعل مسجدها مسرى ومعراجاً لرسوله الكريم، خاتم الأنبياء والمرسلين، وأوكل سدانته ورعايته لأمة الإسلام والمسلمين، وبشر المرابطين فيه بالنصر رغم كل ما ينزل بهم من البلاء واللأواء، بقوله: "لا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلا مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ" وفي رواية: "وَهُمْ بِالشَّأْمِ".[3]

نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم، ويكرمنا بفضل الرباط في هذه الديار المباركة، وأن يعجل بفرجه ونصره، إنه على كل شيء قدير، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

1. آل عمران: 101.

2. محمد: 7.

3. صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر.

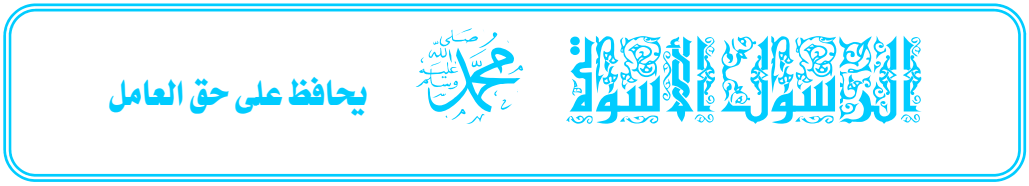

لما كان العمل يشكل نشاطاً ملحوظاً في حياة الناس، فقد أولاه الإسلام اهتماماً بالغاً، حيث العناية بحقوق العمال، والحرص على أداء العمل وإنجازه بكل إخلاص ودقة وإتقان، وقد أسهبت آيات القرآن الكريم وهي تذكر العمل، وتتحدث عن الفعل، من ذلك قول الله تعالى: {وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }.[1]

كما نرى اقتران العمل بالإيمان في مواضع كثيرة من آيات القرآن الكريم، وهذا هو أسلوب القرآن في تربية النفوس على الجد والاجتهاد والنشاط في شتى مجالات الحياة، انطلاقاً من الإيمان، وارتباطاً به، وفي هذا ما فيه من توجيه الإنسان إلى إعمار هذه الدنيا، والاستفادة مما سخره الله له فيها، ضمن منطلقات الإيمان، ولما فيه خير الإنسانية التي استخلف الله إنسانها في هذه الأرض، ليعمرها بالخير والعمل والإيمان، فقد ذكرت الآيات الكريمة الإيمان مع العمل، من ذلك قول الله تعالى: {إِلا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُون}[2]، وذكر الله المؤمنين العاملين بالخير والصلاح بأنهم الفائزون، فقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً }.[3]

فقد أضفى الإسلام على جميع نشاطات العباد صبغة العبادة التي تعزز الإيمان في النفوس، وتبعث على الجد والنشاط في جميع أعمال العباد من عبادات ومعاملات، وتحفز الإنسان إلى مزيد من العمل والاجتهاد لتحقيق الخير لنفسه ولمجتمعه في ظلال من الشعور الكبير بثقة المؤمن، وقوة العامل ومكانة الفرد والمجتمع، في هذه المسيرة، لإعمار الدنيا، والفوز بفلاح الآخرة.

1. التوبة: 105.
2. الانشقاق: 25.
3. الكهف: 107.

من هنا كانت مكانة العمل والعمال كبيرة في نظر الإسلام، الذي أحاطها بكل رعاية واهتمام، وهو يبين أحكامها وحقوقها، ويحافظ على العاملين ويرعاهم ويوليهم كل العناية والاهتمام، ولا أدل على ذلك من فعل عمر، رضي الله عنه، حيث صافح مزارعاً فوجد يده خشنة من أثر العمل في الأرض، فرفع عمر يد العامل وقبلها، وقال :"هذه يد يحبها الله ورسوله".

فهل بعد هذه الحفاوة والتكريم لليد العاملة من تكريم؟! وإذا رافق العمل –أي عمل– اتقان كان محبوباً إلى الله تعالى، فالرسول ﷺ يقول: "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه".([1])

وقد فتح الإسلام أمام الإنسان مجالات كثيرة للعمل، مسخراً له هذه الأرض ببرها وبحرها وسمائها مجالاً رحباً لنشاطاته وأعماله، قال تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً }([2])، وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ}.([3])

وفي تشجيع الإنسان ليكون عضواً عاملاً نافعاً في المجتمع، يقول النبي ﷺ: "مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ، خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عليه السلام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ".([4])

وقد أشار القرآن الكريم إلى أن سيدنا داود عليه السلام كان يعمل في صناعة الدروع، قال تعالى: {وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ }.([5])

وفي هذا المجال لا بدَّ من الإشارة إلى أن الأنبياء والرسل، عليهم الصلاة والسلام، كانوا يعملون ويحترفون، فهذا نبي الله داود عليه السلام، كان يحترف الحدادة، وشعيب عليه السلام، كان يربي الماشية ويرعاها، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك، حينما ورد سيدنا موسى عليه السلام، على ماء مدين، وسقى لابنتي شعيب عليه السلام، أغنامهما، قال تعالى: {وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ

---

1. أخرجه الطبراني في الأوسط، حديث رقم 897، ج1، ص275، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، حديث رقم 1113.
2. الجاثية: 13.
3. الملك: 15.
4. صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده.
5. الأنبياء: 80.

يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ* فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ* فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ* قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ* قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ}.([1])

كما عمل نبينا، عليه الصلاة والسلام، في رعاية الغنم، ومن أجاد رعاية الغنم، فبالقطع يجيد رعاية الأمم، قال، عليه الصلاة والسلام: "مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلا رَعَى الْغَنَمَ، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ؛ كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ".([2])

كما عمل، عليه الصلاة والسلام، في التجارة لزوجه خديجه، رضي الله عنها.

وقد أثنى الله تعالى على العاملين في البيع والتجارة، بأنهم لا ينشغلون بها عن عبادة الله وذكره، فقال تعالى: {رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ}.([3])

وبهذا يتبين لنا أن الإسلام فتح مجالات رحبة من العمل أمام الإنسان في التجارة والصناعة والزراعة، وهي مرتكزات أساسية لاقتصاد كل شعب وأمة.

فلا يمكن لأمة أو شعب أن يحقق اكتفاءً ذاتياً في معزل عن الاهتمام بالزراعة والصناعة والتجارة، فالأمة الكريمة هي التي تأكل مما تزرع، وتلبس مما تصنع.

---

1. القصص: 23-27.
2. صحيح البخاري، كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط.
3. النور: 37.

ويكفي الزارع أجراً ومثوبةً أنه ينال الأجر على زراعته صدقة عند الله تعالى، يقول الرسول ﷺ: "مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ، أَوْ إِنْسَانٌ، أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ ".([1])

وجدير بنا ونحن نتحدث عن العمل ومكانته، أن نبين حقوق العمال التي من أهمها:

- حق العامل في الأجر، يقول الرسول ﷺ: "أَعْطُوا الأَجِيرَ أَجْرَهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ ".([2])
- حق العامل بالعمل قدر طاقته ووسعه، وإذا كلف بأكثر من ذلك، فعلى صاحب العمل أن يعينه.
- حق العامل في المحافظة على كرامته، قال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ}([3])، فلا يجوز لصاحب العمل أن ينتقص من كرامة العامل.
- حق العامل في تحصيل حقوقه من خلال قوانين العمل، أو التقاضي إذا أخل صاحب العمل بشروط العقد.

وهكذا إخوة الإيمان، فقد كرم ديننا الحنيف العامل، وحافظ على حقوقه كاملة في ظل رعاية كرامته وأخوته الإنسانية، بعيداً عن أي امتهان أو انتقاص من كرامته أو حقوقه، بل جعل العمل الدنيوي الخالص عبادة، إذا أراد به الإنسان إعفاف نفسه وأهله، وصون ماء وجهه عن ذل السؤال، يقول الرسول ﷺ: "أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ؛ دِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى عِيَالِهِ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ عَلَى دَابَّتِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ".([4])

وإذا كان العمال في هذا العالم قد ناضلوا كثيراً حتى وصلوا إلى ضمان حقوقهم، فقد ضمن الإسلام هذه الحقوق ابتداءً في شريعة عادلة، جعلت من العمل براً وعبادة، توصل إلى سعادة الدنيا والآخرة، وصلى الله وسلم وبارك على إمام المرسلين، وقدوة العاملين، رسولنا وأسوتنا محمد، وعلى آله الطيبين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

---

1. صحيح البخاري، كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه.
2. سنن ابن ماجه، كتاب الأحكام، باب أجر الأجراء، وصححه الألباني.
3. الإسراء: 70.
4. صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة على العيال والمملوك وإثم من ضيعهم.

ما أحوج المسلمين اليوم، وهم يحيون ذكرى مولد النبي ﷺ، أن يقفوا على جوانب سيرته العطرة وهديه الشريف وسنته المطهرة، ليقتدوا به، ويسيروا على نهجه، ويطبقوا ذلك في حياتهم العملية، فقد أمرنا الله تعالى باتباع هدي النبي ﷺ، بقوله: { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا }[1]، وبين سبحانه أن محبته مرتبطة باتباع هدي النبي عليه السلام فقال تعالى: {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }[2]، فإذا كانت محبة الله تعالى لنا متوقفة على اتباع هدي النبي ﷺ، فحري بكل مسلم أن يحرص على هذا الهدي، وأن يكون أشد الناس تمسكاً به، واتباعاً له ليحوز محبة الله تعالى له.

ولما كانت جميع جوانب حياة النبي ﷺ، وسيرته العطرة مشرقة بالنور، ومثقلة بالهدي والخير، فحري بنا أن نستجلي بعض هذه المواقف، ونوضح بعضاً من هذه الجوانب، ولعل من أبرز هذه الجوانب؛ جانب الرحمة التي اتصف بها رسول الله ﷺ بل لقد غدت الرحمة سجية رئيسة من سجاياه، وخلقاً متميزاً من أخلاقه الكريمة، التي هي كلها كالحلقة لا يدرى أين طرفاها، وهكذا هو خلق الرسول الكريم، الذي وصفته أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، بقولها: "كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ".[3]

وفي القرآن أثنى الله على خلق نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله جل وعلا: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}.[4]

---

1. الحشر: 7.
2. آل عمران: 31.
3. مسند أحمد، مسند النساء، مسند الصديقة عائشة بنت الصديق رضي الله عنها، وقال شعيب الأرناؤوط: صحيح.
4. القلم: 4.

ونعود إلى الرحمة التي اتصف بها النبي ﷺ، لنقف على بعض جوانب هذه الرحمة في حياة النبي ﷺ.

❁ ومن مظاهر هذه الرحمة؛ رحمته بالأطفال، فقد كان عليه السلام يحب الأطفال، ويعطف عليهم، ويمازحهم، ويلاعبهم، ويرق لهم، فيقبلهم، ويضمهم، ويطعمهم، ويحنو عليهم كالوالد الرحيم لكل منهم، فقد ورد "أَنَّ الأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ أَبْصَرَ النَّبِيَّ ﷺ يُقَبِّلُ الْحَسَنَ، فَقَالَ: إِنَّ لِي عَشْرَةً مِنْ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ وَاحِدًا مِنْهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّهُ مَنْ لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ".[1]

وقد كان عليه السلام يدخل في الصلاة، ويأتي الحسن أوالحسين، فيركب على ظهره، ويصبر عليه السلام ساجداً حتى ينزل، "وكَانَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي، وَهُوَ حَامِلٌ أُمَامَةَ بِنْتَ زَيْنَبَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلأَبِي الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ، فَإِذَا قَامَ حَمَلَهَا، وَإِذَا سَجَدَ وَضَعَهَا، قَالَ يَحْيَى: قَالَ مَالِكٌ: نَعَمْ".[2]

وكان عليه السلام إذا دخل في الصلاة، وسمع صراخ طفل أو بكاءه، أسرع في أداء الصلاة وخففها، فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنِّي لأَدْخُلُ الصَّلاةَ أُرِيدُ إِطَالَتَهَا، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَأُخَفِّفُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِ أُمِّهِ بِهِ".(3)

وكان يحمل الأطفال، ويصبر على أذاهم، فقد روت عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها، قالت: "أُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِصَبِيٍّ يَرْضَعُ، فَبَالَ فِي حَجْرِهِ، فَدَعَا بِمَاءٍ، فَصَبَّهُ عَلَيْهِ".[4]

وكان يحزن لفقد الأطفال، ويعتريه ما يعتري البشر، ولكن مع الرضا والتسليم والصبر والاحتساب، فلما نقل إليه نعي حفيده، فاضت عيناه عليه السلام "فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذَا؟ قَالَ: هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ".[5]

---

1. صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه.
2. صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز حمل الصبيان في الصلاة.
3. صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام.
4. صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب حكم بول الطفل الرضيع وكيفية غسله.
5. صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تبارك وتعالى {قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن}.

۞ ومن مظاهر رحمته ﷺ؛ رحمته بالنساء، فقد أوصى بهن خيراً، فحث ﷺ على رعاية البنات والإحسان إليهن، وكان يقول: "مَنْ يَلِي مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ شَيْئاً، فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ، كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنْ النَّارِ".[1]

وكان ﷺ رحيماً بالضعفاء عموماً، فقد أوصى بالإحسان إلى الخدم بقوله: "هُمْ إِخْوَانُكُمْ، جَعَلَهُمْ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ جَعَلَ اللَّهُ أَخَاهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلا يُكَلِّفُهُ مِنْ الْعَمَلِ مَا يَغْلِبُهُ، فَإِنْ كَلَّفَهُ مَا يَغْلِبُهُ، فَلْيُعِنْهُ عَلَيْهِ".[2]

وقد حث ﷺ على رعاية الأرامل، وكفالة الأيتام، فقال ﷺ : "... أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا، وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا".[3]

وجعل الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، وكالصائم الفائز، فقد ورد عنه ﷺ قوله: "السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَكَالَّذِي يَقُومُ اللَّيْلَ وَيَصُومُ النَّهَارَ".[4]

۞ كما أشار ﷺ بأن الرحمة بالضعفاء والعطف عليهم من أسباب نصر الأمة، فقال ﷺ: "ابْغُونِي الضُّعَفَاءَ، فَإِنَّمَا تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ بِضُعَفَائِكُمْ".[5]

۞ وقد شملت رحمته ﷺ البهائم التي لا تعقل، فكان يحث الناس على الرفق بها، وعدم تحميلها ما لا تطيق، فقد ورد عنه ﷺ قوله: "إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ".[6]

---

1. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته.
2. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن.
3. صحيح البخاري، كتاب الطلاق، باب اللعان.
4. صحيح البخاري، كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل.
5. سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في الانتصار برذل الخيل والضعفة، وقال الألباني: صحيح.
6. صحيح مسلم، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة.

وقد قال ﷺ، لصاحب جمل من الأنصار: "أَفَلا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ، الَّتِي مَلَّكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا، فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ[1]"."[2]

۞ كما شملت رحمته ﷺ الأسرى من أعدائه، فقد أوصى بالإحسان إلى الأسير، فقال عليه السلام: "استوصوا بالأسارى خيرا"."[3]

۞ كما وسعت رحمته عليه السلام الجماد، فقد كان ﷺ، يتكئ على جذع أثناء خطبته في المسجد، فلما وضع له المنبر حن الجذع، وقد سمع الصحابة حنينه، فأسرع إليه النبي عليه السلام فاحتضنه، فسكن الجذع، وقد أخبر النبي ﷺ الصحابة بقوله: "لَوْ لَمْ أَحْتَضِنْهُ، لَحَنَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ"."[4]

۞ وقد وسعت رحمته أعداءه من أهل مكة يوم دخلها فاتحاً منتصراً، ورد قائلاً على من قال: "الْيَوْمَ يَوْمُ الْمَلْحَمَةِ" بقولته المشهورة: "الْيَوْمَ يَوْمُ الْمَرْحَمَةِ"[5]، وعفا عن أهل مكة، قائلاً: "اذْهَبُوا، فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ"."[6]

إنها حياة نبي الرحمة، فهو رحمة الله لخلقه، وشريعته رحمة، وسنته رحمة، وهو رحمة الله للعالمين، وصدق الله العظيم {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}[7]، فصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، رسول الرحمة، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

---

1. معنى تدئبه: تتعبه.
2. سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم، وقال الألباني: صحيح.
3. المعجم الكبير، الطبراني، مسند من يعرف بالكنى من أصحاب رسول الله ﷺ، أبو عزيز ابن عمير بن هاشم، وقال الألباني في ضعيف الجامع: ضعيف.
4. سنن ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في بدء شأن المنبر، وقال الألباني: صحيح.
5. المغازي، فتح مكة، رسول الله ﷺ على رأس عشرة آلاف مقاتل وقد دخلوا مكة فاتحين.
6. مختصر السيرة، فتح مكة.
7. الأنبياء: 107.

الرسول الأسوة محمد ﷺ يوجه الناجح وصاحب الكبوة

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: "أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنْ الْخَيْرِ وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ" [1]، وَفِي رِوَايَةٍ: "وَيُحِبُّهُ النَّاس عَلَيْهِ".

وورد في صحيح مسلم بشرح النووي، أن الْعُلَمَاء قالوا: مَعْنَاهُ هَذِهِ الْبُشْرَى الْمُعَجَّلَة لَهُ بِالْخَيْرِ، وَهِيَ دَلِيل عَلَى رِضَاء اللَّه تَعَالَى عَنْهُ، وَمَحَبَّته لَهُ، فَيُحَبِّبهُ إِلَى الْخَلْق كَمَا سَبَقَ فِي الْحَدِيث، ثُمَّ يُوضَع لَهُ الْقَبُول فِي الأَرْض. هَذَا كُلّه إِذَا حَمِدَهُ النَّاس مِنْ غَيْر تَعَرُّض مِنْهُ لِحَمْدِهِمْ، وَإِلا فَالتَّعَرُّض مَذْمُوم.

فيوم أمس أعلنت نتائج الثانوية العامة في فلسطين، وجرياً على المنوال الدارج، فمن الطلبة من نجح، ومنهم من تعثر فرسب، وطبيعي أن يحزن الراسب، ويفرح الناجح ويبتهج، وتتوالى عليه التهاني والتبريكات معبرة عن حمده والثناء عليه، وتلك صورة للخير المحمود الذي يتلقاه الناس بالثناء والحمد والحب.

ولرسولنا الأسوة ﷺ، توجيهات سامية للفريقين، أما الناجح فلا ينكر عليه بهجته، ولا إطراء الناس عليه، فتلك من عاجل بشراه على ما نال من فوز ونجاح، كما بين الرسول ﷺ لصحابته الكرام في الحديث المذكور أعلاه، لكن هذه البشرى لها ضوابط وحدود، فإذا زاغت عنها انقلبت وبالاً على صاحبها، فإذا أصاب الناجح الغرور والكبر والتعالي على الناس بسبب النجاح، فيكون قد انحرف عن جادة الطريق، والرسول ﷺ، يقول: "لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ" [2]، وفي حديث صحيح آخر ميز ﷺ بين الكبر وأمور طبيعية أخرى يحبها الناس؛ مثل رغبتهم في الجمال والزينة، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ

1. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أثنى على الصالح فهي بشرى.

2. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه.

حَسَنَةً؟ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ(1) الْحَقِّ، وَغَمْطُ(2) النَّاسِ"(3)، ويلحق بذلك التفريق بين تكبر الناجح وتعاليه على الناس، وبين ابتهاجه بالخير وسروره بالنجاح، فالموقفان مختلفان، أحدهما مرفوض، والآخر مقبول، إذ السرور الطبيعي مقبول، والكبر مرفوض جزماً وقطعاً، وقد توعد الله المتكبرين بأن يصرفهم عن الحق، ولا يوفقهم إليه، فقال تعالى: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ...} (4)، ويطبع على قلوبهم، مصداقاً لقوله تعالى: {...كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ}.(5)

ويكفيهم أنهم محرومون من محبة الله، لقوله تعالى: {لاَ جَرَمَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ } (6)، وأن مصيرهم إلى النار، قال تعالى: {فَادْخُلُواْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ} (7)، وفي الحديث الصحيح من صور وعيد المتكبر المعجب بامتيازاته، المتعالي بها على الناس، ما روي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: "بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ، يَمْشِي فِي بُرْدَيْهِ، قَدْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ، فَخَسَفَ اللَّهُ بِهِ الأَرْضَ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ(8) فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ". (9)

---

1. دَفْعه وَإِنْكَاره تَرَفُّعًا وَتَجَبُّرًا .

2. بِفَتْحِ الْغَيْن الْمُعْجَمَة وَإِسْكَان الْمِيم وَبِالطَّاءِ الْمُهْمَلَة. هَكَذَا هُوَ فِي نُسَخ صَحِيح مُسْلِم رَحِمَهُ اللَّه. قَالَ الْقَاضِي عِيَاض رَحِمَهُ اللَّه: لَمْ نَرْوِ هَذَا الْحَدِيث عَنْ جَمِيع شُيُوخِنَا هُنَا، وَفِي الْبُخَارِيِّ إِلا بِالطَّاءِ. قَالَ: وَبِالطَّاءِ أَبُو دَاوُدَ فِي مُصَنَّفه، وَذَكَره أَبُو عِيسَى التِّرْمِذِيُّ، وَغَيْرُهُ (غَمْض) بِالصَّادِ وَهُمَا بِمَعْنًى وَاحِد. وَمَعْنَاهُ اِحْتِقَارهمْ. يُقَال فِي الْفِعْل مِنْهُ (غَمَطَهُ) بِفَتْحِ الْمِيم (يَغْمِطهُ) بِكَسْرِهَا وَ(غَمِطَهُ) بِكَسْرِ الْمِيم (يَغْمَطهُ) بِفَتْحِهَا .

3. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه.

4. الأعراف: 146.

5. غافر: 35.

6. النحل: 23.

7. النحل: 29.

8 . يَتَحَرَّك وَيَنْزِل مُضْطَرِبًا. قِيلَ : يُحْتَمَل أَنَّ هَذَا الرَّجُل مِنْ هَذِهِ الأُمَّة، فَأَخْبَرَ النَّبِيّ ﷺ بِأَنَّهُ سَيَقَعُ هَذَا. النووي، شرح صحيح مسلم، 64/14.

9. صحيح مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم التبختر في المشي مع إعجابه بثيابه.

وفي رواية أخرى من نفس الكتاب والباب، وعن نفس الصحابي أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي، قَدْ أَعْجَبَتْهُ جُمَّتُهُ(1)وَبُرْدَاهُ، إِذْ خُسِفَ بِهِ الأَرْضُ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِي الأَرْضِ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ".([2])

والناجح الذي يتجاهل قدر الله وقدرته، ويعتقد أنه فاز بالنجاح جراء جدارته وذكائه فحسب، فقد ظلم نفسه، لأنه سار بها على نهج قارون الذي زعم أنه أوتي المال على علم عنده، ومما قصه الله تعالى علينا في قرآنه الكريم من خبر هذا الجاحد، ما ورد في قوله تعالى: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلا يُلَقَّاهَا إِلا الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ * تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}.([3])

ومما لا ريب فيه أن التعرض للمحن والنعم ابتلاء يفتن به الناس، ولا تقل الفتنة بالنعم عنها بالمحن، وبخاصة إذا انحرف المنعم عليه في تفسير أسباب النعمة وتجييرها، يقول تعالى: {فَإِذَا

1. الجمة: هي مجتمع الشعر إذا تدلى من الرأس إلى المنكبين، وإلى أكثر من ذلك، ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج10، ص 261.
2. صحيح مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم التبختر في المشي.
3. القصص: 76-83.

مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ}.[1]

فهذا الصنف من الناس غاب عن وجدانهم واعتقادهم أنه إذا لم يكن عون من الله للمرء فأول ما يقضي عليه اجتهاده. فمن اختار سبيل قارون ليسير عليه فقد انحاز إلى درب المهالك، وتنكر لطريق الشاكرين الذين يحمدون الله أن يسر لهم سبل النجاح والخير، وقد وجه الله أولياءه وعموم خلقه لشكره، وتوعد الجاحدين، يقول تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}.[2]

وقد حث الله الناس على شكر المنعم سبحانه، فقال جل وعلا: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ}[3]، والإنسان الصالح يرجو الله أن ييسر له الهداية لشكره، قال تعالى: {...قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ...}.[4]

وفي الوقت الذي وعد الله الشاكرين بمزيد من الآلاء والنعم، فإنه سبحانه توعد الجاحدين بعذابه الشديد، فقال تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}[5]، ويبدو أن الجاحدين غاب عن بالهم وأذهانهم أن صاحب التمكين والتيسير هو الله سبحانه وتعالى، ورب العزة يقول: {وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ}[6]، فهو سبحانه الذي خلق للناس أسباب النجاح وأدواته، فقال تعالى: {وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ

1. الزمر: 49.
2. لقمان: 12.
3. البقرة: 152.
4. الأحقاف: 15.
5. إبراهيم: 7.
6. الأعراف: 10.

تَشْكُرُونَ} [1]، فالله هو المتفضل على عباده بالنعم، ولكن أكثر الناس يجحدون، فقال تعالى: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ}.[2]

فالناجح الشاكر لا يغتر ولا يجحد نعمة الله، ويشكره على جزيل آلائه، وهو مع اعتقاده أن الله هو الموفق للنجاح والميسر له، لكنه يأخذ بأسبابه ويسعى له حثيثاً، لأن السماء لا تمطر علامات ودرجات، بل لا بد من السعي والجد والعمل، ثم يكون التوكل على الله، والرضا بعد ذلك بالنتائج، حتى لو جاءت على غير المراد والرغبة، فرب مجتهد لم ينل النجاح الباهر الذي ينشده، فماذا يصنع؟ من المؤكد أن لا يوجه للبكاء ولا ينصح بالعويل، وإنما يذكر هنا بالوصف النبوي لحال المؤمن، فعَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ" [3]، فالمؤمن شاكر في السراء، صابر في الضراء، لا يعرف جحود النعمة، ولا اليأس والقنوط عند الابتلاء والفتنة، يحتسب أجر الصبر مثلما يحتسب زيادة النعم بالشكر، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ شَوْكَةٍ فَمَا فَوْقَهَا، إِلا رَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً، أَوْ حَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً".[4]

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُمَا: سَمِعَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: "مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ(5)، وَلا نَصَبٍ(6)، وَلا سَقَمٍ، وَلا حَزَنٍ،(7) حَتَّى الْهَمِّ يُهَمُّهُ(8) إِلا كُفِّرَ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ"[9]، وفي الحديث الصحيح عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "مَا

---

1. النحل: 78.
2. النمل: 73.
3. صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير.
4. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك.
5. الْوَجَع اللازم، وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى:{وَلَهُمْ عَذَاب وَاصِب} أَيْ لازِم ثَابِت.
6. التَّعَب، وَقَدْ نَصِبَ يَنْصَب نَصَبًا كَفَرِحَ يَفْرَح فَرَحًا. وَنَصَبَهُ غَيَّرَهُ وَأَنْصَبَهُ لُغَتَان.
7. بِضَمِّ السِّين وَإِسْكَان الْقَاف وَفَتْحهمَا لُغَتَان، وَكَذَلِكَ الْحُزْن وَالْحَزَن فِيهِ اللُّغَتَان.
8. قَالَ الْقَاضِي: هُوَ بِضَمِّ الْيَاء وَفَتْح الْهَاء عَلَى مَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِله، وَضَبَطَهُ غَيْره (يَهُمّهُ) بِفَتْحِ الْيَاء وَضَمِّ الْهَاء أَيْ يَغُمّهُ، وَكِلاهُمَا صَحِيح.
9. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك.

مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ؛ فَيَقُولُ: مَا أَمَرَهُ اللَّهُ {إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعـونَ} اللـهم أجرنـي(1) في مصيبتي، وأخلف(2) لي خيراً منها إلا أخلف الله له خيراً منها..."."([3])

ومثلما أن المؤمن لا يعرف الكبر والغرور، فإنه لا يلجأ إلى الجـزع والقنـوط، وإنمـا أمـره كلـه خير، ويسعى دائماً للنجاح مستعيناً بالله، ومـسترشداً بهـدي رسـوله الكـريم ﷺ، الـذي يقـول: "الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُـلٍّ خَيْـرٌ، احْـرِصْ عَلَـى مَـا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَلا تَعْجَزْ(4)، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَـذَا وَكَـذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَـاءَ فَعَـلَ، فَـإِنَّ لَـوْ تَفْـتَحُ عَمَـلَ الـشَّيْطَانِ"([5])، فهنيئـاً للـذين أخـذوا بالأسباب، وتوكلوا على الله، وفازوا بالنجاح والتفوق، هنيئاً لهم ولذويهم الذين أحاطوا فلـذات أكبادهم بحسن الرعاية، وزرعوا فيهم حب الجد والمثابرة، حتى جاءتهم النتائج مبشرة بجني الحصاد وقطف الثمر، أما أصحاب الكبوة الذين تعثروا، فلم يجدوا أنفسهم مع الناجحين، فلن يـنفعهم العويل ولا الاستسلام للإحباط، وإنما عليهم أن يستيقظوا لحالهم، فيأخذوا العـبر والـدروس ممـا حصل، وكثيرة هي التوجيهات القرآنية التي جاء بها الحبيب محمد ﷺ عن ربه، التي تأخـذ بأيـدي أصحاب الكبوة، لينهضوا من جديد، إذ لا فائدة من الخنوع والركـون للفـشل والجـراح، ولكـل جواد كبوة، والله تعالى يقول: {وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}([6])، ويقول سبحانه: {لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَـى مَـا فَـاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُـوا بِمَـا آتَـاكُمْ وَاللَّـهُ لا يُحِـبُّ كُـلَّ مُخْتَـالٍ

---

1. قال القاضي: أجرني بالقصر والمد: وقال الأصمعي وأكثر أهل اللغة: هو مقصور لا يمد، ومعنى أجره الله أعطاه أجره، وجـزاء صـبره وهمه في مصيبته. صحيح مسلم بشرح النووي، ج6، ص220.

2. بقطع الهمزة وكسر اللام. قال أهل اللغة: يقال لمن ذهب له مال أو ولد قريب أو شيء يتوقع حصول مثله أخلف الله عليـك، أي رد عليك مثله، فإن ذهب ما لا يتوقع مثله بأن ذهب والد أو عم أو أخ لمن لا جد له ولا والد له قيل: خلف الله عليك بغير ألف أي كـان الله خليفة منه عليك. صحيح مسلم بشرح النووي، ج6، ص220.

3. صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة.

4. (اِحْرِصْ) فَبِكَسْرِ الرَّاء، (وَتَعْجِز) بِكَسْرِ الْجِيم، وَحُكِيَ فَتْحهمَا جَمِيعاً، وَمَعْنَاهُ اِحْرِصْ عَلَى طَاعَة اللَّـه تَعَـالَى، وَالرَّغْبَـة فِيمَـا عِنْده، وَاطْلُبْ الإِعَانَة مِنْ اللَّه تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ، وَلا تَعْجِز، وَلا تَكْسَل عَنْ طَلَب الطَّاعَة، وَلا عَنْ طَلَب الإِعَانَة، صحيح مسلم بـشرح النووي، ج 16، ص215.

5. صحيح مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله.

6. آل عمران: 139.

فَخُورٍ} [1]، ويقول سبحانه: {...لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}.[2]

فإجراء مراجعة ذاتية من الشخص لما جرى منه من تقصير، لاستخلاص العبر، بهدف النهوض من جديد، أمر في غاية الأهمية، إذ الغالب في النتائج أن تأتي حسب مقدماتها من أفعال البشر، والله تعالى يقول: {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ} [3]، فعمل الإنسان هو بذار زرعه، وغصن ثماره، والله تعالى يقول: {وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلا مَا سَعَى*وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى* ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الأَوْفَى}.[4]

والمرجو من الأهل أن يهيئوا لأبنائهم سبل النجاح، وأن يحفزوهم إليه، وأن لا يحبطوهم إذا تعرضوا لفشل ما، فلا بد من المحافظة على استشعار الأمل ما دام في العمر فسحة، وفي القلب إيمان، فالفشل يكون أحياناً طريقاً للنجاح، إذا أُخذت العبر، وأُحسن العمل، فهو نقطة انطلاق للنجاح القادم، بإذن الله وتوفيقه.

وإلى جانب الأمل لا بد من الصبر على مصيبة الفشل، والترفع على الأحزان، والله تعالى يثني على المؤمنين الصابرين، فيقول سبحانه: {الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [5]، فالمطلوب إيمان وتوكل وسعي وعمل وصبر وشكر واستخلاص عبر، دون كبر ولا بطر، ولا يأس ولا قنوط، {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً* إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرا}.[6]

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

---

1. الحديد: 23.
2. آل عمران: 153.
3. الشورى: 30.
4. النجم: 39-41.
5. الحج: 35.
6. الشرح: 5-6.

الرسول الأسوة محمد ﷺ يحث أمته على اختيار الاسم الحسن

لما كان الإسلام دين الحنيفية السمحاء الذي ارتضاه الله لعباده، وأتم نعمته على هذه الأمة وعلى البشرية جمعاء بكماله وتمامه، فهو الدين الذي يوازن بين الروح والمادة، ويلائم الفطرة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها، فقد اعتنى هذا الدين بكل جوانب الحياة الإنسانية، فلم يغفل شيئاً منها، ولو كان شيئاً بسيطاً أو قليلاً، كما أنه بالتأكيد اعتنى بأمر المعاد والآخرة التي هي دار المآل، والبقاء والخلود، بل كانت الحياة الدنيا دار الامتحان والعمل والابتلاء التي تقود إليها، وتفضي إلى عاقبة السعادة أو الخسارة فيها.

{وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}.[1]

ومن أركان إيمان المسلم أن يؤمن باليوم الآخر، وما فيه من الحشر، والحساب، والسؤال، والمصير إلى الجنة أو النار، فالناس ينادون يوم القيامة على رؤوس الأشهاد بأسمائهم للحساب من رب العالمين، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، والذي أحاط بأعمال عباده، وما قدموه وفعلوه وجنوه في حياتهم الدنيا، {يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}.[2]

{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ* وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ }.[3]

{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ* قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ}.[1]

---

1. العنكبوت: 64.
2. المطففين: 6.
3. الزمر: 68-69.

{وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ }.[2]

{فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلا تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }.[3]

وقد حرص نبينا الأكرم ﷺ على اختيار الاسم الحسن، وجاء حثه على ذلك من خلال هديه الشريف فيما رواه ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، يَتَفَاءَلُ، وَلا يَتَطَيَّرُ، وَيُعْجِبُهُ الاسْمُ الْحَسَنُ".[4]

وفي حديث آخر؛ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: "خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنْ الأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ، وَلَمَّا يُلْحَدْ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، وَكَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ فِي الأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: اسْتَعِيذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنْ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنْ الآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلائِكَةٌ مِنْ السَّمَاءِ، بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ عَلَيْهِ السَّلام، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ، قَالَ: فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ، قَالَ: فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلا يَمُرُّونَ، يَعْنِي بِهَا، عَلَى مَلإٍ مِنْ الْمَلائِكَةِ إِلا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلانُ بْنُ فُلانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ .... قَالَ: وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ، مِنْ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ

---

1. يس: 51-52.

2. الصافات: 24.

3. يس: 54.

4. مسند أحمد، ومن مسند بني هاشم، بداية مسند عبد الله بن العباس، وقال شعيب الأرناؤوط: حسن لغيره.

مِنْ الآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنْ السَّمَاءِ مَلائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمْ الْمُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنْ اللَّهِ وَغَضَبٍ، قَالَ: فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنْ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحٍ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلإٍ مِنْ الْمَلائِكَةِ إِلا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ، فَيَقُولُونَ: فُلانُ بْنُ فُلانٍ، بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ فَلا يُفْتَحُ لَهُ...".([1])

إن هذه الأحاديث الشريفة تبين بشكل قاطع أن الإنسان يدعى في الدنيا والآخرة باسمه واسم أبيه، وهي تبطل عادة شائعة بين الناس بأن الميت، أو في الآخرة، يدعى باسمه واسم أمه، فالصحيح الوارد في كتاب الله وسنة رسوله، عليه الصلاة والسلام، أن الإنسان يدعى باسم أبيه لا باسم أمه، سواء أكان على قيد الحياة أم كان متوفى، فالله يقول: {ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ} ([2])، وهذا عام في الحياة وبعد الموت.

وقد ثبت في الصحيحين عن ابن عمر، رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ، قال: "إِنَّ الْغَادِرَ يُرْفَعُ لَهُ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُقَالُ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلانِ بْنِ فُلانٍ". ([3])

وقد تعرض كثير من العلماء في أبواب من كتبهم إلى ضرورة اختيار الاسم الحسن للولد، وبينوا من خلال هدي النبي ﷺ الوقت الذي يسمى فيه المولود والعقيقة عنه، وما إلى ذلك من الأحكام المتعلقة بالولد.

فقد عقد ابن القيم، رحمه الله، في كتابه زاد المعاد في هدي خير العباد فصلاً بعنوان "فصل في هديه ﷺ في تسمية المولود وختانه"، بين فيه ما يستحب من الأسماء وما يكره، وما يستحب

1. مسند أحمد، أول مسند الكوفيين، حديث البراء بن عازب، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح.

2. الأحزاب: 5.

3. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما يدعى الناس بآبائهم.

عمله بالنسبة إلى المولود عند الولادة؛ كالأذان في أذنه اليمين والإقامة في أذنه اليسرى، وتسميته يوم السابع، وذبح عقيقته، وحلق شعره، والتصدق بمقدار وزن شعره فضة أو دراهم، وإزالة الأذى عن المولود.

وقد ذكر ما ورد عن النبي ﷺ من اختيار الاسم الحسن والترغيب في ذلك، وكذلك الكنية.

فقد ثبت عن النبي ﷺ، قوله: "إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأَمْلاكِ ... لا مَالِكَ إِلا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ".[1]

وعنه ﷺ: ".... أَحَبُّ الأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَأَصْدَقُهَا حَارِثٌ وَهَمَّامٌ، وَأَقْبَحُهَا حَرْبٌ وَمُرَّةُ".[2]

وقال رسول اللّه ﷺ: "أَحَبُّ الْكَلامِ إِلَى اللَّهِ أَرْبَعٌ؛ سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، لا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ، وَلا تُسَمِّيَنَّ غُلامَكَ يَسَارًا، وَلا رَبَاحًا، وَلا نَجِيحًا، وَلا أَفْلَحَ، فَإِنَّكَ تَقُولُ: أَثَمَّ هُوَ، فَلا يَكُونُ، فَيَقُولُ: لا... ".[3]

وقد ثبت كذلك أن النبي غير بعض الأسماء؛ من ذلك اسم برَّة، فغيره رسول الله ﷺ، إلى جويرية، وسمى حرباً سلماً، وشعب الضلالة شعب الهدى، وسمى بني مغوية بني رشدة.

ولعل من فقه هذا الحديث أن الأسماء قوالب للمعاني، ودالة عليها، فاقتضت الحكمة أن يكون بينها ارتباط وتناسب، لا أن يكون المعنى معها بمنزلة الأجنبي المحض الذي لا تعلق له بها، فإن حكمة الحكيم تأبى ذلك، فللأسماء تأثير في المسميات، وللمسميات تأثير بأسمائها في الحسن والقبح، والخفة والثقل، واللطافة والكثافة.

وقد قيل: وكلما أبصرت عيناك ذا لقب إلا ومعناه أن فكرت في لقبه

وكان ﷺ يستحب الاسم الحسن، وأمر إذا أبردوا إليه بريداً أن يكون حسن الاسم، حسن الوجه.

---

1. صحيح مسلم، كتاب الآداب، باب تحريم التسمي بملك الأملاك وبملك الملوك.
2. سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء، وقال الألباني: صحيح.
3. صحيح مسلم، كتاب الآداب، باب كراهة التسمية بالأسماء القبيحة وبنافع ونحوه.

ولعل من أوضح الشواهد على النفاذ من الأسماء إلى المسميات ما رواه الشعبي، قال: "سَأَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رَجُلاً عَنِ اسْمِهِ، فَقَالَ: جمرة، فَقَالَ: وَاسْمُ أَبِيكَ؟ قَالَ: شهاب، قَالَ: مِمَّنْ؟ قَالَ: مِنَ الْحُرَقَةِ، قَالَ: فَمَنْزِلُكَ؟ قَالَ: بِحَرَّةِ النَّارِ، قَالَ: فَأَيْنَ مَسْكَنُكَ؟ قَالَ: بِذَاتِ لَظَى، قَالَ: ادْهَبْ فَقَدِ احْتَرَقَ مَسْكَنُكَ، فَذَهَبَ فَوَجَدَ الأَمْرَ كَذَلِكَ".[1]

وقد أشار علم النفس إلى هذه العلاقة بين الإنسان واسمه ولقبه، ومثال على ذلك اسم صعب، فإن دوام انصباب هذه التسمية في سمعه ووعيه يطبع عقله الباطن بطابعه، فتتسم أخلاقه وسلوكه بالصعوبة، كما أن البيئة المحيطة لحياة الإنسان تؤثر في سلوكه وتصرفاته، فمن باب أولى أن يؤثر وقع الاسم الملاحق له على الدوام بهذه الطباع.

فجاء هدي النبي الأسوة ﷺ، في حث أمته على اختيار الأسماء الحسنة، والكنى الحسنة للأبناء، وكذلك تغيير الأسماء القبيحة إلى الحسنة.

واختيار أحب الأسماء التي تظهر عبودية الإنسان لديه كاسم عبد الله وعبد الرحمن، والتسمي بأسماء الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، والابتعاد عن الأسماء القبيحة كأسماء الشياطين والفراعنة والجبابرة من الأمور التي يجب التنبه إليها، لما لها من تأثير واضح في حياة الأبناء وسلوكهم في الحياة، ومجانبة ذلك للصواب الذي أمر به النبي ﷺ، وهو يرشدنا إلى اختيار الأسماء الحسنة لأبنائنا، حيث يدعون بها في الدنيا، وينادون بها يوم القيامة، نسأله تعالى أن يجعلنا من الهداة المهديين، وأن يوفقنا لاتباع هدي نبينا ورسولنا الأسوة ﷺ، لنفوز برضا الله في الدنيا والآخرة، إنه نعم المولى ونعم النصير، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

1. زَادُ الْمَعَادِ فِي هَدْيِ خَيْرِ الْعِبَادِ، فُصُولٌ فِي هَدْيِهِ ﷺ فِي الْعِبَادَاتِ، فَصْلٌ فِي هَدْيِهِ ﷺ فِي الْهَدَايَا وَالضَّحَايَا وَالْعَقِيقَةِ، أحب الأسماء إلى الله، ص: 308.

فهرس الكتاب

الرقم	الرسول الأسوة ﷺ	الصفحة
	الفصل الأول **عقيدة**	
.1	يربي أمته على العقيدة الراسخة	5
.2	يبين منزلة محبة الله ورسوله	10
.3	يحثنا على الوقوف عند حدود الله	14
.4	يرشد إلى أهمية التوكل وفضله	18
.5	يأمر باتباع سنته والابتعاد عن البدعة	24
.6	يبين مكانة المسجد الأقصى لدى المسلمين	29
.7	يؤم الأنبياء، عليهم السلام، ليلة إسرائه	33
.8	يبين ما ينفع الإنسان بعد موته	37
.9	يخبرنا عن غربة الإسلام	41
.10	يعين الأشهر الحرم	45
.11	يحدث عن الزمان وتقلب الأعوام (ح1)	49
.12	يحدث عن الزمان وتقلب الأعوام (ح2)	54
.13	يحدث عن الزمان وتقلب الأعوام (ح3)	59
	الفصل الثاني **ذكرى مولد الرسول ﷺ وهجرته**	
.14	في ذكرى مولده ﷺ	64
.15	يولد في خير البلاد ويبعث لخير الأمم	69

.16	المهاجر لله والعائد إلى الوطن	73
	الفصل الثالث **عبادات**	
.17	يشرّع النداء للصلاة بالأذان (ح1)	79
.18	يشرّع النداء للصلاة بالأذان (ح2)	83
.19	الرسول الأسوة ﷺ يستسقي	90
.20	يصوم يوم عاشوراء	94
.21	الرسول الأسوة ﷺ وشهر شعبان	98
.22	هديه في صدقة الفطر وفدية الصيام	102
.23	أعماله بعد الانتهاء من صيام رمضان	107
.24	هديه في الأيام العشر من ذي الحجة	113
.25	هديه في يوم الأضحى	117
	الفصل الرابع **جهاد وأسرى**	
.26	يقود جمع المسلمين إلى النصر في بدر الكبرى	122
.27	يحث على الانتصار للمحاصرين ظلماً وعدواناً	128
.28	الرسول الأسوة ﷺ ومعاملة الأسرى	135
.29	ينتصر للأسرى	140
	الفصل الخامس **مناهج وقيم**	
.30	يحثنا على استثمار أعمارنا وأجسامنا في طاعة الله	147
.31	الرسول الأسوة ﷺ واستراحة العابد	151

.32	يدعونا لموسم الطاعة ونبذ العصيان	158
.33	الرسول الأسوة ﷺ وأساليبه التعليمية في الحج	164
.34	يعلم الحجاج مناسكهم	171
.35	يحث على الصدقة بالفضل	178
.36	يثمن قدر الآباء والأمهات	182
.37	يدعو للوحدة ويؤسس لها	188
.38	يدعو لوحدة الأمة	192
.39	يحذر من جريمة القتل	195
.40	يميز بين الفضيلة والرذيلة في العلاقات الجنسية	199
.41	تحيته السلام	205
.42	ينهى عن فضول الكلام	210
.43	ينهى عن تتبع عورات المسلمين	216
.44	يحث المتقاضين على تحري الصدق	220
.45	حاله وأفعاله إذا حزبته الخطوب	224
.46	يبث الأمل وقت الشدة	231
.47	يحافظ على حق العامل	235
.48	مواقف من رحمته	239
.49	يوجه الناجح وصاحب الكبوة	243
.50	يحث أمته على اختيار الاسم الحسن	250

****
****